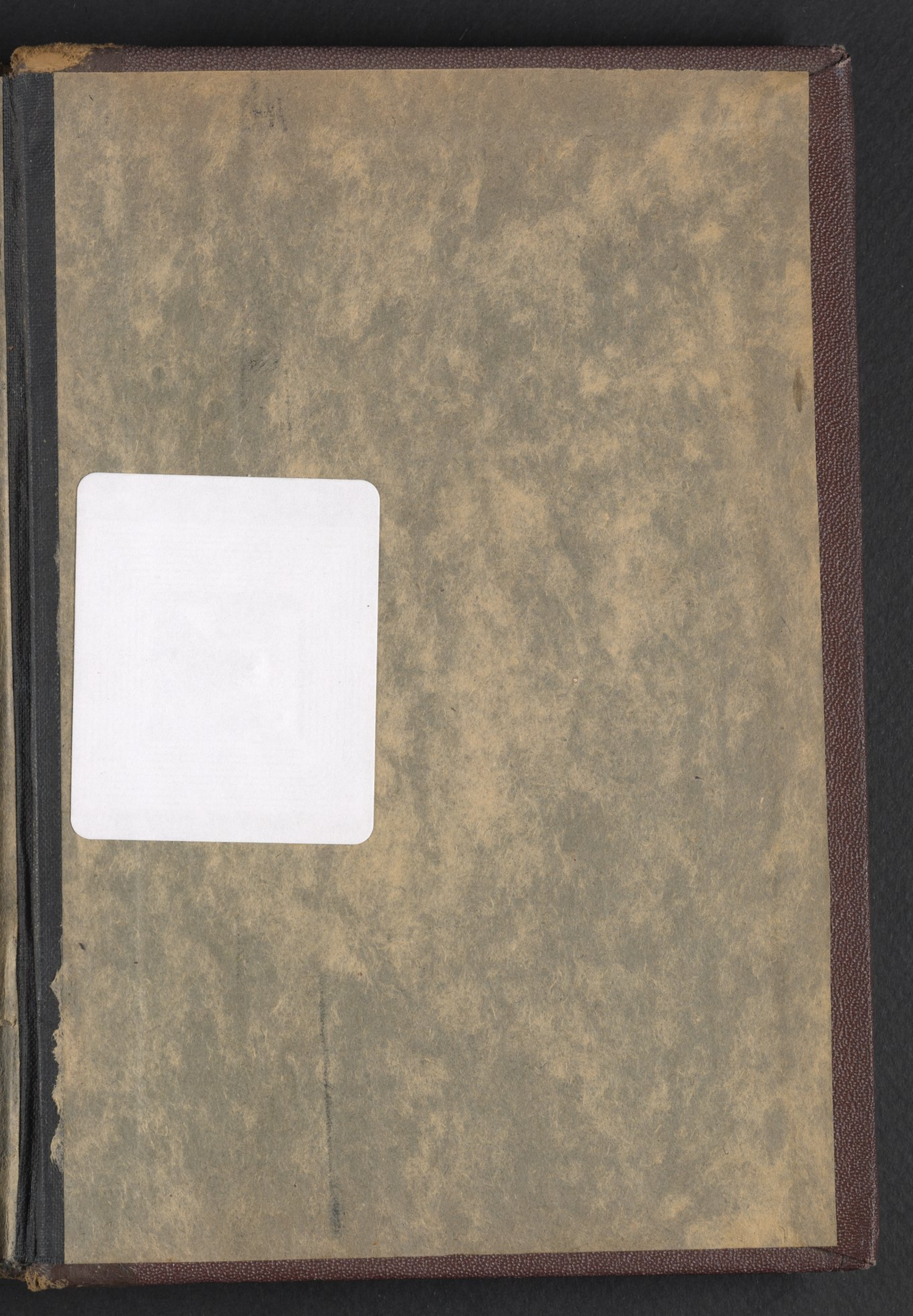
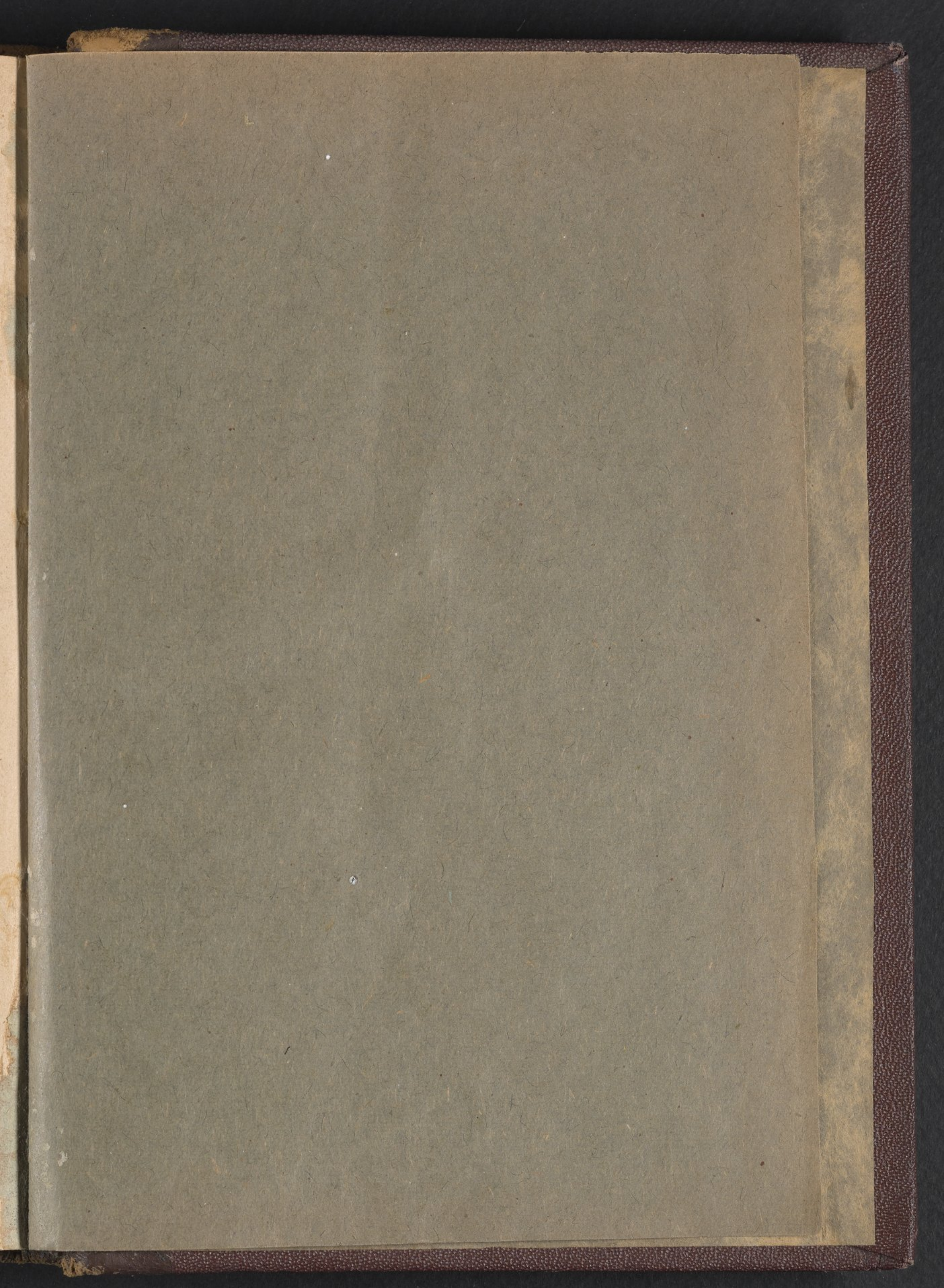


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01084 0183





وقعة السلطان عبد العزيز

تأليف ‏— احمد صائب بك

تعريب ‏— محمد توفيق جانا

الثمن عشرة قروش صاغ

طبع بمطبعة هنديه بشارع المهدي بالازبكيه بمصر

١٣١٩هـ



كلمة للمترجم

لما كانت الامة العربية المستظلة بالظل العثماني تشكل نصف الهيئة الاجتماعية (على وجه التقريب) من الدولة العلية وبناء على ما شاهدت من بني العرب وعلى الاخص ابناء وادي النيل وشدة اشتياقهم الى تتبع أحوال الخلافة العظمى اشتياق الظمآن الى الماء رأيت من الواجب ان اقوم بترجمة هذا الكتاب نظراً لما يحتوي من الحقائق التاريخية التي تهم كل من طلعت عليه الشمس من المسلمين خصوصاً والعثمانيين عموماً مع اعترافي بالعجز والتقصير وعدم الوقوف على كنه اللغة العربية وان كنت من ابنأها . واملي وطيد بان ارى من القراء الكرام عفواً واسعاً عما حصل من الهفوات الكثيرة في تعريب هذا الكتاب وقد لا يخفى على ذوي العقول النيرة ما يعتري من هو على شاكلتي من المصاعب الجمة حيث انها اول خطوة خطوتها في هذا السبيل وبالله استعين

١ ايلول سنة ١٣١٩ — محمد توفيق جانا

﴿ كلمة للمؤلف ﴾

لا أقصد بكتابي هذا تفصيل ما وقع أيام سلطنة السلطان عبد العزيز وما امتزج بها وتفرع عنها شرحاً مفصلا موضحاً فتلك أمنية يبعد نيلها على همة هذا العاجز لعظيم اعتقادي بان تأليف كتاب كهذا فى وقتنا الحاضر ضرب من المحال لان تأليف الكتب التاريخية في عصرنا هذا يحتاج الى وجود مادة واسعة تكون روحاً للتأليف وضف الى هذه الحاجات الكبرى اثاراً كثيرة يستعان بها على ضبط أسباب ومنشأ الواقعة التي هي أساس التأليف ومن العبث انه يطمح لكتابة تاريخ جامع مع فقدان ذاك الشرط . ولا خفاء انه لا يوجد لدينا معشر العثمانيين شيئاً من الاثار (التى نحتاجها لنستعين بها) على التدوين في جميع أدوار التاريخ العثماني . والادلة على استكمال هذه النواقص مفقودة . أما الكتب التاريخية التي تبحث في أحوال الممالك المحروسة وأدوارها الجديدة فكثيرة ولكن كلها لجماعة من الكتاب الاجنبيين ولذا فانها لا تفي بالغرض المقصود اذ يدور رحى كل مافيها على محور الاغراض النفسانية وزد على ذلك عدم وقوف مؤلفيها على احوال العثمانيين ومن

جهة اخرى فانه لا يوجد أثر من اثارهم مأمون الجانب من الاغراض ولو وجد شيء فلا يخلو من النقص فتقارير سفراء الدول (التى تزداد علاقتهم السياسية يوماً عن يوم مع المملكة العثمانية) المرفوعة لجانب حكوماتهم لم تنشر جميعها . وأما غير هذه التقارير فليس سواه الا الوقوف على المخابرات السياسية الخفية التي يمكن التوصل بها للتدقيق في المواد التي هي موضوع البحث وهذه هي الحقيقة بعينها . ومع اعتقادنا استحالة تأليف تاريخ كامل عن احدى وقائع التاريخ العثماني نرى السير في هذا الطريق لا يخلو من الفائدة . والسعي الجزئي ينتج فوائد جمة .

لان اظهار الحقائق المستورة بما أمكن الحصول عليه من المعلومات وربط سلسلة حوادث ببعضها واستخلاص واقعة سياسية مهمة كواقعة السلطان عبد العزيز من بين غياهب الشك التي سدات على ماضي التاريخ العثماني أمر سهل المنال . ويوجد عندنا كما يوجد في أوروبا كتاب واحد يبحث عن سلطنة السلطان عبد العزيز فيمكننا نستعين بهذه الكتب على كتابة تاريخ حكم السلطان عبد العزيز وما وقع في اخره من الاحوال الجالبة للأسف . والتأليف الاخير لفي غاية من الاهمية

عندنا لانه محرر بيراع (أحمد أفندي مدحت) الكاتب التركي الشهير . وان لم يشاهد هذه الحادثة بعينه ويشترك فيها بنفسه ولكنه كان مقرباً ممن اشتركوا في تدبيرها . وهذا السبب هو أعظم باعث لزيادة قيمة هذا الأثر في أعيننا وفي الحقيقة ان هذا الاثر أي (أس الانقلاب) أحسن ما كتب في هذا الموضوع . ولو وضع في بلاد غير البلاد العثمانية لكان أعظم قيمة وأعم نفعاً اذ ما الفائدة منه وقد سار في طبعه (كما يقال) على البروغرام الذي وضع له من لدن جلالة خليفة هذا الزمان أو في الحري رسم على الخطة التي ترضيه . وعليه لا يمكننا ان نامن جانبه تماماولو طالعناه لوجدناه يعقب في كل سطر بمقصد خصوصي .

ولا يمكننا ان لا نأسف على هذه الاحوال . مع ان احتياجنا شديد لتأليف تاريخ واقعة كواقعة السلطان عبد العزيز تشكل فصلاً مهما في التاريخ العثماني تكون طاهرة من كل غرض ولها علاقة كبيرة مع هذا الزمان المحزن الذي نحن فيه . أما الافكار في هذه المسئلة فمتباينة متضاربة اذ يعد بعضنا حالتنا الحاضرة وما نابنا من المصائب والرزايا نتيجة طبيعية لهذه الواقعة المؤلمة . والبعض يعدها دليلا على مبدأ لمستقبل حسن

وتنور أفكار العثمانيين . وعلى كلا الحالتين فان الافكار المذكورة تبرهن لنا على شدة الاحتياج لظهور اثر جديد يبحث عن واقعة السلطان عبد العزيز غير قاصدين من عملنا الا تسهيل السبل للمؤرخين الذين يأتون بعدنا وليكون دليلا لهم على سلوك الطريق المستقيم وعلى ما ارى خصوصاً وانه وضع بعد كثير من المحاكمات العمومية الخالية من شوائب الاغراض . على تفصيل الواقعة الماضية ولا ندع مع هذا كله انه خلو من النقص والعيب لان عدم كفاية المأخذ وفقدان المعلومات الرسمية سببت بلا شك حصول هفوات متعددة واذا وجدت مادة نعتقد بصحتها فهي بلا شك خلو ملاحظاتنا على المستقبل من كل غرض وبناءها على طهارة القلب وخلوص النية وموافقة قرائنا على صدق هذا الامر كاف لنيل ما نرغبه ونتمناه وبالله التوفيق

٢٠ كانون الثاني سنة ١٣١٩ — أحمد صائب

الوقعة الخيرية ونتيجتها

السلطان سليم الثالث — السلطان محمود — المشكلات التي اعترت تشبثه للاصلاحات — السلطان عبد المجيد — وزراء ذلك الزمان : رشيد باشا ، عالي باشا ، وفؤاد باشا — الثورات الداخلية ومحاربة القريم . ظهور الاحوال الغير المأموله في الاصلاحات — التكاسل في نشر وتوسيع المعارف — نواقص التشكيلات والتنظيمات العسكرية واسبابها — المالية العثمانية — ولوج الدولة باب الاقتراض لاول مرة — وفات السلطان عبد المجيد .

تصفح التاريخ العثماني من بدء القرن الحادي عشر على الحساب الهجري حتى الآن تر السلطان سليم الثالث اعظم سلطان واعدل خليفة ارتقى اريكة آل عثمان وبويع بالخلافة الاسلامية الكبرى وتعلم انه كان من اكبرهم همة واكثرهم غيرة على مصالح الدولة والدين . تولى الخلافة اوهي اريكة آل عثمان واحوال الدولة فوضى والبلاد من اقصاها الى ادناها مصبوغة بالدماء والخلل يكتنف مصالحها والعلل تمشى في ادارتها فلم يقبض بيده على صولجان الملك حتى اخذ يصلح مختلها ويداوي معتلها ولم يمضي عليها وقت قصير حتى بلغ من ذلك السعي غايته فوضع للبلاد قوانين وقواعد تضمن للرعية العدل الشامل وتكفل نفاذ

ما ابتغاه من تحسين واصلاح . لكن الله شاء ان يقوم من رجال الدولة اوهم افراد الامة اقوام خافوا ان تنزع تلك الاصلاحات عنهم نعماً يتلذذون باطايبها ويرتعون في بحابحها وان يناقشون الحساب من بعد هذه الاصلاحات وان تكون القيد الذي يغل ايديهم عن المظالم والمغارم فاخذوا يدسون الدسائس ويقيمون العقبات في سبيل ما ابتغاه السلطان العادل . بل بلغ من قيامهم انهم حرضوا عساكر الانكشارية (وهم عبارة عن وحوش في صورة جيش منتظم) على ان يرفضوا كل قانون جديد يبتغي السلطان تنفيذه ولسوء حظ الامة صادفت مساعيهم نجاحاً وانتهى الامر على ما ارادوه وفوق ما طمحت اليه انفسهم وانقضى الجدال بخلع السلطان وقتله . وكان ذلك من اعظم الجرائم على الامة والبلاد وحجر الاساس في تدبير المكايد والدسائس للسلاطين وان كان قد تقدم تلك الجريمة جريمة اخرى من نوعها وعلى ذلك انقضت حياة السلطان سليم الثالث وانطفأت بموته منارة العدل التي شيدها وغيض ينبوع الاصلاح والحرية وهكذا سودوا صفحات التاريخ العثماني بما تسببوا في حصوله

ثم تولى بعده السلطان محمود والمشاكل في السلطنة كبيرة

والمصاعب عظيمة والامر فيها لاولئك الانكشارية يجددون ما
ارادوا بلا خوف ولا حساب وكان السلطان ذا نفس عالية
ومبادىء كريمة واميال مفطورة على حب العدل والخير
ورغبات مطابقة لرغبات سلفه السلطان سليم الثالث بلا فرق
ولا اختلاف . فاراد ان يسير بالسلطنة العظمى على ما يوحي اليه
طبعه فحالت الايام دون مرامه واوشك ان يصيبه ما اصاب
سلفه اذ اجتمع الانكشارية في ميدان هنالك يدعى (آت ميدان)
وتآمروا على قتله لكن المقادير مدت اليه يدها ورفعت عنه
شر المتآمرين ومكنته منهم جميعاً فارسل عليهم من جيشه
المخلص في ولائه كتائب أعملت في رقابهم السيف ولم ينج منهم
أحد . وتسمى هذه الواقعة في التاريخ العثماني (بالواقعة الخيرية)

زين ذلك العادل التاريخ العثماني بافعاله واعلن للعالم عزمه على
ترك النظامات القديمة التي لم تكن الا وسيلة لهدم اركان الدولة
والنزول بالوطن الى دركات الانحطاط والهوان ثم أزمع على
تشكيل هيئة ادارية توافق الزمان والمكان وادخال اصلاحات
جدية في الامور الداخلية . فاحدثت هذه الارادة تأثير كبير في
الداخل والخارج اذ كانت الدول الاوروبية خلواً من تمام

الوقوف على أحوال الشرقيين كما ينبغي فكانت تعتقد فيها بعض الاعتقادات الباطلة وتظن في الدولة العثمانية وآلها انها أمة لا قدرة لها على نقل قدمها خطوة الى الامام لتنظيم واصلاح أمور الملك (وهو اس التقدم المدني الحاضر) . ولكن حصول هذه الواقعة ومحو اثار الانكشارية الذين هم العقبة الكؤد في سبيل الاصلاح وجلب ذوي الخبرة والقدرة من أوروبا لتخديمهم في أمور الدولة وهذا كله أوجب تبديل الافكار السيئة التي خالجت ضمائر عقلاء وساسة أوروبا وتمكنت من عقولهم حتى أحدثت الخوف عند الكثيرين منهم وكان بين الاوروبيين فريق يعتقد انه اذا انتظمت شؤون الدولة العثمانيـة وادارتها على حسب القوانين الغربية وانتشرت العلوم والفنون الحديثة المتنوعة بين افرادها وكانوا يرون أيضاً ان القوة المعنوية والاقتدار العسكري اللذان هما نتيجة الهامات الدين الاسلامي القويم اكبر واسطة لترقي الدولة العثمانيـة من كل وجهة ويعيدانها لمجدها القديم وعليه فمن المحتمل ان هذه الاحوال تؤثر على موازنة أوروبا السياسية

هذه نتيجة ماحصل في الخارج من تأثير تلك الاصلاحات اما في

الداخل فان كافة الاهالي كانوا في هرج ومرج من جراء امال السلطان الخيرية حتى ان الملة يئست من مستقبلها. والسبب فى ذلك اليأس هو ظهور نتيجة السيئات الذي كانت الدولة غريقة لججها منذ ثلاثة قرون. وقد نشأ عن توالي العصيان فى الولايات والقلاقل الكثيرة عجز السلطان المرحوم عن اتمام مآربه وغلت يداه عن كل عمل . لان القسم الاعظم من رجال الدولة كانوا يشكون من أفعال السلطان جهاراً فرغبوا عن العمل بحسب رأيه مفضلين البقاء على القديم وعدم الخروج عما اختطه الآباء والجدود (بعد ان أحسوا بمقاصد السلطان وعلموا ان غاية ما يرمي اليه هو تقليد أوروپا في اصلاح الادارة وتنظيم أمور الدولة) بالرغم عما كان ينتابهم من ظلم الانكشارية والخوف الشديد الذي كان يخامر قلوبهم منهم

ولولا قوة عزم السلطان واستعمال بعض اركان الحكومة الشدة مع الأهالي لآل الامر الى شق عصى الطاعة على جلالة خليفة رسول رب العالمين

غير ان ذاك القتال الدموي الذي جرى بالامس فى (آت ميدان) مع الانكشاريه كان لايزال رسمه باقياً فى مخيلة الكل ولذا

لم يبق في الاستانة احد يرجى منه الاندفاع للخروج على السلطان

وخلاصة القول ان السلطان المرحوم توفق لنيل بغيته الوحيدة وهي قلب ادارة المملكة ببذل النفس والنفيس فوطد دعائم النظام على اسس متينة ثم صرف الهمة للتشييد على ذلك الاساس وهو عبارة عن موادها الكافلة لحفظ العرض والناموس والامن على الاموال والارواح ويتفرع عنها تقدير الويركو الضريبة وترتيب العساكر وما شاكل ذلك .

وكانت الاصلاحات التي اسسها السلطان محمود في ايام ملكه عبارة عن تأسيس النظام العسكري وتغيير ازياء الاهالي ومع ان المادة الاخيرة يراها البعض قليلة الاهمية في اول وهلة ولكن اقل ملاحظة على وجود التعصب والجهالة عند اهالي البلاد العثمانيه في ذاك الحين وما تكنه صدورهم من البغض لاصول المعيشة الغربية تدل على ما كان يعتري هذه الاصلاحات من الموانع الكثيرة

ولما كان لابد لتنظيم ادارة امور الدولة واتمام الاصلاحات المطلوبة من انشاء مدارس يستخرج منها رجال اكفاء لخدمة الدولة ونشر العلوم والمعارف وبما ان هذه النقطة لم تخف على نظر

السلطان قرر تأسيس جملة مدارس وبوشر حالاً فى انشاء بعضها فاصبحت هـذه التوفيقات العظيمة كافية لتخليد الذكر الحسن لجلالة السلطان وتخليد اسمه الى الابد

ولكن تزايد الاختلال الداخلي وظهور العصيان المستمر ومحاربة بعض الدول الخارجية ، لم تترك مجالاً لتنظيم الادارة الملكية والسعي لاجراء الاصلاحات الاخرى على قدر الامكان

جلس على سرير الملك بعد السلطان محمود خان العادل السلطان عبد المجيد وفى ايامه ظهر ميل عظيم من الاهـالي للاصلاحات والسير فى طريقها القويم وكان من اللازم حينئذ التوغل في هذا الطريق نظراً لموافقة الزمان ولكن اكتفى وقتذاك بوضع خط الـكلخانة الهمايوني وبعض النظامات وهي كل ما جرى من الاصلاحات فى هذه المدة

وهكذا ذهب ذاك الوقت الثمين سدى واستعمل على غير هدى ومع اقرارنا باجتماع أحوال كثيرة كانت السبب في التكاسل والتسامح ولكن لا ننكر وجود المسؤلية عند ذوي المكانة فى ادارة الدولة من الموظفين . ولا يخفى على كل من طالع تاريخ هذه الفترة التي تزيد سنواتها عن اثـنين وعشرين

عاماً ونصف ان السلطان وبعض الوزراء كانوا عالمين باسباب
هذه الاحوال وانه لابد من السير في الطريق الذي سار عليه
السلطان محمود ولكنهم لم يظهروا أثراً مما كان يجب عليهم اظهاره
من الحميـة والغيره واكتفوا بتسكين الشؤون القليلة الاهمية
التي كانت تحصل في بعض الجهات من سوء الادارة وحصروا
جل همتهم في الحرب مع الروس . وفي عهد هذا السلطان
ظهر عدد من الوزراء ذوي القدرة والهمة كرشيد باشا وعالي
باشا وفؤاد باشا وكان هؤلاء جميعهم يشغلون الطبقات العلياء
في ادارة الدولة وبيدهم زمام الامور وأغلبهم ممن نشأوا في
عهد السلطان محمود .

وهم من ذوي الفكرة النيرة والخبرة التامة باحوال الدولة
العثمانية والسياسة العمومية . ولكن ما الفائدة اذ لم يجدى منهم
نفع في وقت كهذا كان أثمن فرصة عندنا نظراً لمساوىء الامور
التي هي علة العلل وأساس كل خلل في الطبقات العليا من
مراتب الدولة من قديم الزمان . وقلة المال التي هي نتيجة
سوء الادارة وندرة الوسائط التي تتوقف عليها ثروة البلاد
وسعادة العباد واختيار مصارفات كثيرة لتسكين العصيان

الذي كان يبدؤ كل آن في جهة اضطرت الدولة لصرف جميع قواها . وكانت هذه الزعازع الداخلية سبباً لتضعضع مركز الدولة وضعف نفوذها بين الدول وفي هذه الاثناء اثار الروس (وهم أعدائنا الازليون الألى لا تغفل لهم عين عن انتهاز كل فرصة تسنح لنيل مقاصدهم وقضاء لباناتهم منا) غبار المسئلة الشرقية

وهكذا حصلت محاربة القريم . ولولا معاونة الانكليز والفرنساويين لنا في هذه المحاربة بناءً على منافعهم السياسيه لما أمكننا الى الان تعيين المهالك التي كادت ان تقع فيها الدولة ولو على وجه التخمين

فان الدولتين اعانتا دولتنا اعانة خالية من شوائب الغرض وكانتا سبباً لمحافظة استقلالها في هذه الاثناء وتركتا لنا ميداناً فسيحاً ووقتاً طويلاً لاجراء الاصلاح لان اندحار الروس ذلك الاندحار المبين جعل تحككهم بالشرق في مدة قصيرة من رابع المستحيلات .

وكان الواجب علينا اذ ذاك ان نحترس من الوقوع فى ورطة كهذه . ونبذل جهدنا لاتمام الاصلاح (بعد ان من الله علينا وجعلنا فى مركز يمكننا من ان نخط خطوات سريعة فى

(سبيل التقدم) ومحو تصورات عدونا الذي لابد له من اعادة الكرة علينا بعد زمن قليل . وكان من أوجب الواجبات علينا ان نقدر مركزنا المنيع حق قدره ونستميت فى رتق ما فتق وتقويم ما أعوج من الامور لان هاتين الدولتين اعانتانا فى حرب القريم وقد افهمتانا بواسطة سفرائهما ان غايتهما الوحيده قاصرة على ما قدمنا أى ترك ميدان واسع لنا حتى نصلح أمورنا ونوقف الدب الابيض عدونا عند حده

ولكن هيهات! فان هذه النصائح والمظاهرات الوديه كلها كانت صيحة فى واد اذ لم يعار لها اذن صاغية او يعطي لها أقل أهمية .

بقيت ادارة الدولة على ما كانت عليه قبل الحرب وكل من اهل السراي والوزراء سابح فى بحار اللذائذ . ولم يسع احدهم لحل معضلات الامور ومع انه من العبث الاتيان على اسباب عدم اجراء شيء يفيد الملة من ادارة الدولة فى الدور المذكور بيد انا نرى ايضاح الاسباب التي انتجت خطأ اولياء الامور (اي السلطان والوزراء) لايخلو من الفائدة .

ومن البديهيات ان علو منزلة الدول واكتسابها للقوة

وعزة الجانب لا يتوفر الا بترقي درجة العلوم والمعارف فى ملكها وانتشارها بين افرادها فاي ملة من الملل بلغت درجة عالية فى الترقي العلمي والمدني لا بد وان تصل قوتها وانتظام امورها الى هذه الدرجة وهي حقيقة واضحة لا ريب فيها

فمهما كانت عليه احدى الدول من كثرة العدد وسعة الاراضي فانها تبقى فى عداد الدول الثانوية اذا هي بقيت محرومة من العلوم والمعارف وهذه دولة الروس اكبر مثال وهو امر يمكن اثباته من تاريخ الدولة المذكورة. فالروس اكثر الدول الاوربية على وجه الانفراد عدداً ولهم من سعة الملك ما لا يمكن حصره ومع هذا لم تحز هذه الدولة النفوذ الذي هي عليه الآن بين الدول حتى القرنين الآخرين اي منذ ظهور رجل فيها يقدر الخوارق العلمية والفنية حق قدرها كبطرس الاكبر ولم تعد فى مصاف الدول العظمى الا بعد دخول المدنية الغربية فيها وانتشارها بين اهليها

ومهما طال بنا الكلام عن المعارف فليس كل ما نبديه الا نقطة من بحر فتأثير المعارف على استعداد الامة اعظم من أن يقدر ومهما بلغ قوم من الغنى المادي بالزراعة او نحوها

فانهم لا يقدرون بشيء ما داموا خلوا من العلم . فالشعب لا يرقى ولو وطدت دعائم قوانينه على مبادئ العدل والانصاف ما لم يكن رائده العلم والمعرفة بل لا يمكنه الاستفادة من العدالة والانصاف ما لم يستنير بنبراس العلم فلا يقف على حقيقة شيء بدون المعارف ولا يركن غوامض الامور بدونها ولا تقوى أمة على ردع أهوائها النفسانيـة التي نشأت معها بل تبقى محرومة من مزايا تقـدير قيمة الوطن الحقيقية فتصبح الحرية والذل عندها سيان ولا تنجو من التعصب بمجرد معاملتها للملل الاخرى ولا تدرك كنه الحقيقة وهكذا تحيا هدفاً لاستهزاء الامم المتمدنة لا اعتبار لها عنـدها بل تعد امامها كخادم أو أسـير . وصفوة القول ان الدولة التي لا تنشر المعارف بين أفرادها تبقى دائما هدفاً للسقوط والاضمحلال ولا يمكن لهـا المحافظة على سر وجودها بين الدول ومن هـذا كله يتضح للقارئ باجـلى بيان انه كان من الواجب على أولياء الامور في الدولة بعد السلطان محمود ان يبذلوا الجهد في نشر العلوم والمعارف وتعميمها بين الافراد وادخال المدنية العصرية في انحاء البلاد

ولكن هيهات ! فانهم لم ينتبهوا الى هذا الامر ولم يمنحوا الامر أقل أهمية ولا يظن القارئ الكريم اننا ممن يعتقد بان تعميم المعارف عندنا الآن مما يخرج بوطننا الى ساحل السلامة.

كلا ثم كلا انا لا نعتقد ذلك مطلقاً : بل الذي نراه هو ان المعارف لا يقتطف ثمرها عاجلا ولا بدلها من زمن طويل .

وجلّ ما نرمي اليه هو انا لو سرنا في زمن السلطان عبد المجيد خطوة نحو انتشار المعارف لامكننا الآن ان نجني منها قطوفاً دانية ولكنا الآن في أرغد عيش وأهنأ بال

بل كنا الآن بغنى عن أوروبا ولكنا نتدارك احتياجاتنا بنفسنا وتكفينا معاملنا مؤنة ما نحتاج اليه من الخارج . . .

. . . .

كانت المعارف في عهد السلطان عبد المجيد حتى الاصلاحات التي اعلنت رسمياً بخط الكلخانة الهمايوني وزفت بها البشرى الى العالم العثماني وطرب لها كل محب للدولة العثمانية حبراً على ورق أو محض تفكير لم يبرز الى عالم العمل وطوى في سجل الاوهام

فلو ضربنا صفحاً عن المعارف يمكننا ان نقول ان ذكر كلمة

عن المواد التي هي ذات أهمية عظمى كالاصلاحات العدليـة وتربية أولاد الاسرة المالكة التربيـة الحقة بعد ثرثرة فارغة اذ كان من الواجب (لحصول المواد الآنفة الذكر) استحضار جماعة من الاوروبيين ذوي الخبرة في أمور الادارة للاستفادة من علومهم ومعارفهم

ولكن لم يحصل من هذه الامور شيء اللهم الا الاهتمام ببعض شؤون نظارة الحربية فنظمت المعسكرات بعض التنظيم (نظراً لما فطرت عليه عساكر الدولة العثمانية من حب الانتظام) بواسطة الضباط الذين اوتي بهم من اوربا على عهد السلطان محمود العادل . فابتدأ ضباطنا بعدئذ يتعلمون الفنون الحربية (التي كانت مفقودة لذاك الحين) في المدرسة الحربية

ولكن ما الفائدة من ذلك كله وقد كان بعض المغرورين المتعصبين من اصحاب المراتب العالية عقبة في سبيل التقدم المطلوب لعدم ادراكهم معنى الترقى حق الادراك . ومع هذا فقد وصلنا الى منتهى الكمالات العسكرية مع عـدم وقوف ضباطنا على سوى مقدمات الفنون الحربية وأدبياتها . وكان اولياء الامور يجددون و ينقحون پروغرام المدرسة الحربية على

ما تشاء اهواؤهم ولم يهتموا في انتفاعنا من الترقيات الفنية التي تحدث من حين لآخر في مدارس اوروبا الحربية فانتج هـذا التسامح والغرور من سوء التأثير في ترقياتنا العسكرية ما اضطرنا الآن لان نأتي بضباط اجانب يدربون عساكرنا وضباطنا على الفنون الحربية العصرية وهذا النقص ناشيء كما قدمنا قبلاً عن عدم تحصيل ضباطنا للعلوم والتدرب على الفن العسكري تحصيلاً كاملا يجعلنا في غنى عن الضباط الاجانب ولنضرب لك مثلا على صحة قولنا ظهور شدّة احتياجنا في العام الماضي (اي بعد تأسيس المدرسة الحربية بستين سنة) لجلب ضابط اجنبي يعلم ضباطنا فن تقسيم الاراضي . وهو نقص يدلنا دلالة واضحة على الغلط الفادح الذي حصل من اولياء الامور في ذاك الحين . ومما هو جدير بالتيقظ والتذكير ان الروس كانوا منذ مائتي سنة في حالة تشبه حالتنا في عهد السلطان محمود العادل ولكن بطرس الاكبر سعى ابان حكمه لانهاض وطنه من هاوية الجهل فاتي من اوروبا بعدد كبير من العلماء ونظم امور ملكه ولم يبال بمعارضة كبراء المملكة وما اقاموه له من العثرات في سبيل قصده ولم يروعه قيامهم عليـه سراً وجهاراً

بل ظل سائراً في هذا الطريق حتى بلغ شعبه شاؤاً بعيداً من الترقى وهكذا استغنت تلك الدولة عن الاجانب بظهور رجال اكفاء فيها بعد اربعين سنة

اما نحن فلا نقصد من ابحاثنا هذه الاثبات بانه كان من المناسب وقتئذ تسليم زمام امور الدولة للاجانب . بل نقول انه ما دام اصحاب الاقتدار وذوو الكفائة مفقودين بين رجالنا فكان من الواجب حينذاك ان يأتوا بالرجال الاكفاء من الاجانب ويستخدموهم في المراكز التي يهيئها لهم ذوو الحل والعقد وكان يمكننا بهذه الواسطة اظهار رجال اكفاء يدبرون مهام الملك على ما ينبغي وكان من الواجب ايضاً اقتفاء آثار (بطرس الاكبر) بارسال الشبان العثمانيين الى مدارس اوروپا ليتلقوا هناك العلوم والمعارف على رجالها حتى اذا بلغوا قصدهم عادوا الى بلادهم وعلموا ابناء اوطانهم وفي مدة قليلة تظهر نتائج هذا التعليم ويتخرج شبان يدبرون حركة الامور بانفسهم في جميع شعبات ادارة الدولة . ولو اعاروا جانب الالتفات الى هذه النقطة السياسية وقتئذ لامكننا الآن ان نستغنى عن علماء اوروپا ولكان بين ظهرانينا من يخدم بلاده الخدمة المنتظرة

من الاجانب. ولكن مضي ما مضي فلا يجدى تذكيره الآن نفعاً وجميع ما جرى في عهد السلطان عبد المجيد عبارة عن تقاليد بدون ترو وكثيراً ما ظهرت نتائج هـذه التقاليد بشكل ادعى للاسى والاسف واول ضربة من ضرباتها المضرة وقوع البحران المالي وخلل النظام في ادارة نظارة المالية

وكان من اللزوميات قبل كل شئ لتأمين انتظام المالية هو السعى وراء توسيع وتعميم التجارة والصناعة وهي أمور لم يعتن بها وزراؤنا بل ذهبوا وراء تقليد الدول الاوروبية بفتح الاعتمادات الماليه التي لاتلج الدول بابها الا بعد كل حساب دقيق واقتصادى لاصلاح مالياتها

نعم ان الدول الاوروبية في أوروبا تطرق باب الاقتراض لكي لاتقع ماليتها في عسر ولكنهم لا يخطو خطوة في هذا السبيل الا بعد اجراء كل حساب دقيق واقتصادي كما قدمنا

هذه هي أحوال الدول الغربية الغنية المرتقية. أما الدولة التي لا يعلم رجالها شيئاً من هذه الحسابات . ولا يفقهون لها معنى ولا لاي شي تعقد هـذه الفروض فانها بلا شك تنتج أضراراً عظيمة وربما أدت بالدولة الى السقوط في الهاوية

حيث لا فائدة وراء هذه القروض لخزينتها ولا هي عائدة عليها بنفع ظالما كان السبب موهوماً لما وضع له القرض . وهي أول مرة تهجم فيها وزراؤنا على التقاليد الغربيـه في الاقراض أيام السلطان عبدالمجيد ولم يفكروا في عواقب هذا القرض او تغافلوا كما هي عادتهـم التغافل عن كل شيء له مساس بمصالح الدولة فكان مجموع هـذا القرض يزداد يوماً عن يوم حتى وصل في اواخر حكم السلطان عبدالمجيد الى عشرة ملايين من الجنيهات وضف الى هـذا ان الحالة المالية الداخلية كانت في غاية من الارتباك . نعم ان مبلغ العشرة ملايين غير كبير عند دولة كالدولة العلية تملك خزائن متعدده ولكن كان من الضروري صرف المبالغ في مواضعها والاحتراس من تبذيرها فان هذه الاموال ذهبت هباءً منثوراً ولم يترك السلطان عبد المجيد لخلفائه سوى بدعة الاقتراض ودفتراً مفتوحاً للديون

والمسؤلية في هذه الاحوال عائدة بلا شك على السلطان ووزرائه اما ملخص الاصلاحات في دور السلطان فهي :

تعميم القانون العسكري مع أصول القرعة الذي وضع للعسكرية في سـنة ١٢٦٠ من التاريخ الهجري ووضع قانون

يحتم على كل مسلم الدخول في الخدمة العسكرية خمس سنوات في النظاميـة وسبع في الرديف وفي سنة ١٢٧٣ ﻫ أسست مطبعـة في الاستانة وفي سنة ١٢٧٤ ﻫ وضع قانون الاراضى والجزاء الهمايوني وهذا كل ما جرى في عهد السلطان عبدالمجيد من الاصلاحات . وفي سنة١٢٧٧ ﻫ انتقل السلطان عبدالمجيد خان الى دار البقاء بعد ان تولى الملك أثنين وعشرين سنـه ونصف بالغاً من العمر ٤٠ سنة وبعد وفاته تولى أريكة الخلافة الكبرى والسلطنة العظمى أخوه السلطان عبد العزيز

أوائل سلطنة السلطان عبد العزيز

أول أماني السلطان الحسنة — الباب العالى والسراي — صدارة فؤاد باشا الاولى — صدارة كامل باشا — زيارة السلطان لمصر — صدارة فؤاد باشا الثانية — الاسراف في هذا العهد — صدارة محمد رشدي باشا — الثورات الداخلية.

ولد السلطان عبد العزيز سنة ١٢٤٥ من التاريخ الهجري وكان عمره يوم وفاة السلطان محمود وجلوس أخيه الاكبر السلطان عبد المجيد عشر سنوات. فتربى على الاصول والقواعد المتبعة عند آل عثمان في العهد الاخير وصرف حياته بين نساء السراى واغاواتهن الخصي فشب على حب عدم التداخل في شأن من شؤون الدولة وكان كلما كبر سنه احتجب عن أعين الناس كما هي عادة أولاد الاسرة المالكة. خصوصاً وان السلطان عبد المجيد كان يتركه حراً في اتيان ما يريد بحسب ما تسمح الظروف والاحوال. وكان عبد العزيز لا يلتفت الى القراءة والكتابة وتحصيل العلوم والمعارف في صغره فلم يصرف جزأً من أوقات فراغه للاطلاع على أحول العالم والوقوف على الاحوال السياسيه فاضاع وقت شبيبته الثمين في الصيد والرياضة في القصر

الفخيم الذي شاده في (قوربغه لي دره) وغير ذلك من الامور الدنيئة التي لا أهمية لها

حيث ان فقدان تربيته التربية الحقه وقلة علومه ومعارفه كانت السبب الوحيد لظهور مساوئ كثيرة في أحواله واعماله مؤخراً . ولكن الانانية التي فطر عليها وسوء أخلاقه كانا أعظم مانع لعدم تحصيله وتربيته تربية ملوكية تؤهله للاستقلال في ما بعد . ومع كل هذه الاحوال فان السلطان عبد العزيز كان مكتسباً رضا الجميع قبل أن يتبوّأ سرير الخلافة العظمى وكانت رقاب الجميع مشرئبة اليه . وكان السلطان عبدالمجيد أخوه الاكبر كريم النفس حسن الاخلاق ولا يحب ضرر احد ولكن العجز والتساهل اللذان كانا رائده اوقعا الرعية في يأس شديد والدولة في ارتباك ما عليه من مزيد . اما عبد العزيز فكان بعكس ذلك مجبول على الكبر وعدم التساهل في أمرٍ من الامور حتى ان الشهامة وعلو الهمة اللذين كانا يبدوان على ملامحه أوجبت معظم الاهالي لان تأمل منه أشياء كثيرة فى المستقبل . وعندجلوسه كان الكل يأمل منه أن يسير بالدولة سيراً حثيثاً فى طريق التقدم واول خطوة خطاها فى هذا السبيل

ثبتت هـذه الامال عند الاهالي اذ لم يجلس على سرير الملك حتى أخـذ يطرد بعض حشرات السراى الذين يأخذون من المرتبات باهظها بدون عمل يعملونه لمنفعة الدولة . وجعل همه وضع حد للاموال الكثيرة التي تذهب ضحيـة اسراف أهل السراى ومنع من ابتياع الاوانى الذهبيه والفضيه والمجوهرات التي اعتاد أسلافه على ابتياعها ووضعها داخل السراى وعدا ذلك فانه أجرى تنقيحات مهمه فى ما يأخذه موظفو النظارات وعلى الاخص نظاره الحربية

وأظهر للعالم تقديمه المنافع العموميه على منفعته الخصوصيه باعلانه عزمه على ترك ثلث واردات الخزينة الخاصة الى بيت المال

وعزل بعض الموظفين في الخدمات العمومية الذين لا يرجى منهم ادنى نفع والذين لا يعرفون من وظائفهم شيئاً سوى قبض المرتبات . كما انه طرد من السراي اصحاب المحسوبية على سلفه السلطان عبد المجيد الذين بتقربهم اضروا الدولة كثيراً بسوء استعمالهم ما كان لهم وقتئذٍ من النفوذ اذ لم يأت منهم سوى الضرر المتمادي للدولة والملة كرضا باشا (محبوب السلطان عبد المجيد) ، وعثمان باشا ، وعمر افندي والحاج مصطفى افندي

وما شاكلهم ممن كانوا اعز الناس لدى السلطان السابق ٠

ولكن هذه الاجراآت مع قلتها اثرت تأثيراً حسناً على الاحوال العمومية وازالت بعض المساوي الموجودة وزادت الناس شغفاً على شغف بالسلطان وازداد به حسن ظنها وكثرت محبته عندها وعلت في اعينها درجته حتى صار موضوع بحث الخاص والعام والكل يهلل بذكره و يسبح بحمده

كان في جميع الاوقات شيئان يؤثران بصورة قطعية على احوال ادارة الدولة احدهما السراي والآخر الباب العالي

وكان هـذان على طرفي نقيض بخصوص التصرف في الدولة فقد ثبت بالتجارب العديدة ان وقوف كل منهما عند حده وعدم خروجه عن دائرة تصرفه فيما هو مكلف اليه ومحافظته على شرفه عنـد اجراء وظيفته لمما ينتج ثروة البلاد وسعادة العباد وحصول الامن في داخل المملكة والعكس بالعكس فان الاهالي تنفر من هذه الادارة كما ان وقوع ثورات كثيرة لمما تفتح باب المداخلة للدول الاجنبية فى شؤون الدولة

ولم تكد تنطفي اول جذوة من نار الترقي فى عهد السلطان عبدالعزيز الا وقامت قيامة الاختلال فى الامو ر وصار كل من

الباب العالي والسراي على طرفى نقيض فوقع الشقاق بين ذوي النفوذ والاقتدار فى الباب العالي من الوزراء وبين اهل السراي وهذا ما كان منتظراً وقوعه من المجادلات الشديدة والمشاغبات العديدة واتسع ميدان الجدال بينهما حتى خيل للناظر ان ادارة الملك فى بني عثمان عبارة عن جدال بين السراي والباب العالي

ولكن تعاقب محمد رشدي باشا القبرصي وعالي باشا وقتئذ على منصب الصدارة بفاصل جزئى ووجود مناسبات متعددة بين السلطان وبينهم اخّر وقوع هذه الاحوال الى حين

فكان الاول (اي محمد رشدى باشا) مفطور على ضعف القلب وعدم الاقتدار على الاصرار فى المقاومة . والثاني كفوءاً لان يوقف اهل السراي عند حدهم بما له من النفوذ والصفات التي تمكن من صد تيارهم ولكنه كان يرى من المناسب عدم التهور دفعة واحدة حتى لا يذعر السلطان الجديد فاتخذ التأني له رائداً وبناء عليه كان السلطان عبد العزيز حينئذٍ فى موقف الغالب على خصمه فاساء استعمال هذه الفرصة الممنوحة له من طرف الباب العالي ولم يرتدع حتى عيل صبر الوزاء واجبرهم على ترك الحلم والسكون فازدادت منه شكاياتهم فتحروا لايجاد

وسيلة يحافظون بها على حقوق الباب العالي التي كان يحاول نزعها ويسعى جهده لمحوها وعندئذ ظهر الاحتياج بعد كل هذه الافعال لوجود هيئة نظار تستقل فى الامور وتكون المسؤولة عما يحصل من سوء الافعال . فكان فؤاد باشا يؤيد هـذا الفكر بكل قواه

اما فؤاد باشا هذا فهو ابن رجل طبق صيته الخافقين على عهد السلطان محمود كما هو معلوم ومشهور عند الجميع وكان يلقب بكچه جي زاده « عزت ملاّ » وقد تربى هذا الباشا من صغره تربية حقة على عهد والده وكان وحيد عصره بالعلم والمعرفة كما انه كان نابغة عصره في الذكاء ويمتاز بين اقرانه بسعة الاطلاع على امور الدولة ومعرفته ستة لغات اوروپية كما يعرف لغـة آبائه واجـداده فاشتهر بطلاقة لسانه وقوّة جنانه ونبوغه فى السياسة وقد اظهر هذه الخصائل الحسنة جميعها اثناء هبوب رياح محاربة (سيواستوپول)

ومع كون المشار اليه من الحزب الذي يرى لزوم ادخال الترقيات العصرية والافكار الجديدة فى بلاد الدولة العثمانية وازدياد العمران وسعادة الاوطان . ولكنه ايضاً يحب لنفسه

ولكنه لم يكن ذا فكر صائب ومسلك مخصوص حتى ظهر عجزه عن اتخاذ طريق يسير فيه وراء تخليص الدولة مما هى عليه من الاضمحلال . فكان يسعى لاستئصال شأفة هذا الخلل الظاهر سعيا ملؤه الكذب والرياء ليظهر للعالم حسن ادارته وسلامة طويته ومع هذا كله لم يتمكن من ايجاد منفذ تتمكن معه الدولة ان تنجو مما هي عليه من السقوط السريع

وكان المشار اليه مفطوراً على حب استقلال الدولة وترقيتها ولكنه كان ايضاً يحب لنفسه الاستقلال وبقائه في منصب الصدارة اياماً طوال واكتسابه للشان والشهرة محبة تكاد ان تكون عبادة . ولم يكن في ذاك الوقت رجل يستحق الصدارة غيره كي يحفظ للدولة استقلالها ويعلي بين الدول شأنها

وقد تقلد كثيراً من الوظائف العالية في الدولة قبل صدارته لكنه لم يلبث طويلاً في منصب الصدارة نظراً لعدم تحمله وقوع الهفوات الكثيرة التي كانت تصدر من اهل السراي بلا انقطاع

واضطر على ترك منصب الصدارة ووقوفه على جانب الحياد بالرغم عما كان يخالج ضميره من الحب الشديد الى هذا المنصب

ولكن المطبوعات ذات الصوت المسموع عند الدولة والنشريات الاجنبية التي تظهر قوتها في كل آن ضربت جميعها على وتيرة واحدة وهي وجوب تسليم زمام الصدارة لفؤاد باشا وان لا احد سواه يتمكن من ازالة هذه السيئات جميعها. ولكن كل هذا النداء لم يجد نفعاً الا بعد ان اعمل سفير الانكليز نفوذه في السراي وتداخل فى الامر. وقد عين فؤاد باشا صدراً اعظم بعد ان رأى السلطان ان لا مناص من تعيينه

والسبب فى معارضته على تعيين فؤاد پاشا واصراره على هذه المعارضة حتى مداخلة سفير الانكليز هو خوفه من فؤاد پاشا وصدارته لما بينهما من تناقض الرأي في تدبير امور الملك

ولم تدم صدارة فؤاد باشا زمناً طويلاً اذ لم يتولى المشار اليه مسند الصدارة حتى سعى لسد منافذ التحكم والاستبداد ولم يرى من الجائز ترك أهل السراى تتحكم في ادارة الملك كما تشاء . فاتفق مع جميع الوزراء على محافظة استقلال الباب العالي فاتخذوا أقل الامور سبباً وقدموا استعفاءهم جميعاً . وكان مقصدهم من هذا الاستعفاء تهديد السراى بهذا الاتحاد المتين وقلع جذور مداخلات اهل السراى التي لاتجني الا اردأ الاثمار.

ولو ان مسئلة الاستعفاء فكر مبتكر وكان يؤمل منه حصول اتفاق بين السراى والباب العالي ولكنه كان بدون جدوي اذ ظهر استحالة الحصول على ما املّوه . حيث ان السلطان شدد النكير وقبل استعفاءهم بكل سكوت وسكون ولم يبالي بهم وباتحادهم وجعل نصب عينيه سلب حقوق الباب العالي تماماً فعين (نورس باشا) في منصب الصدارة لما يعهد فيه من التبصبص والاطاعة التامة للسراى . واتخذ تعيينه واسطة لتأمين منافعها بدلاً من منفعة ادارة الدولة . ولكن مجاهرة عموم الاهالي في عدم رضاءهم عن هذا الصدر اكره السلطان على ترك العناد والسير على الطريق الذي تبتغيه العباد فعزل نورس باشا وعين (كامل باشا) مكانه بعد ان أحس بسوء المنقلب

اما كامل باشا فظهر بادئ بدء بمظهر رجل مطيع للسلطان متّبع اهوائه مع انه كان من الذين يريدون ان يكون الباب العالي متمتعاً باستقلاله خلواً من مداخلة اهل السراي فلم يكن حريصاً على مسند الصدارة بل كان غاية ما يرمى اليه هو ان يتربع في دست هذا المنصب ولو برهة قصيرة ليلقب (بالصدر الاعظم الاسبق) ويستنتج مما قدمناه على وجه الاختصار ان السلطان

عبد العزيز لم يفكر في أمر الملك والامة حتى في أوائل سلطنته بل كان يسعى وراء منفعته الذاتية فى كل مشكل وقعت فيه الدولة . فلم يترك باباً من أبواب الحيل حتى ولجه ليكون له من الغنيمة النصيب الاوفر .

ولم تزد مدة صدارة كامل باشا عن سبعة أشهر ولم تأت هذه المدة بفائدة سوى انتقال الصدارة الى فؤاد باشا لمدة طويلة

مصر بلاد تحكمها العائلة الخديوية المحمدية العلوية منذ أيام محمد علي باشا الكبير . وهى مستقلة في ادارة أمورها الداخلية بموجب امتيازات كثيرة منحت لها من طرف الباب العالي فكانت حقوق الدولة فيها عبارة عن أقوال بسيطة ولو ان هذا الحال منافياً لمسلك الادارة المركزية ولكن عجز الباب العالي (نظراً لما هو عليه من الاحوال الداعية للأسف) عن اجراء شيء لجبر هذا الصدع القديم اضطره ان يتخذ طريق السكوت احتياطاً وان يسعى باطناً لاتخاذ الوسائل المناسبة لربط الخديوية المصرية بالخلافة الاسلاميه ربطاً قوياً محكماً . ففي أيام صدارة كامل باشا توثقت العلائق الوديه بين مصر ومركز الخلافة وظهرت فكرة زيارة السلطان لمصر . والسبب

في تعجيـل زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية وسرعة
حصولها ناشئ عن رغبة فؤاد باشا فى ابعاد السلطان عن بعض
الذين كانوا يغوونه واقصائه عن دائرة نفوذهم ولو لأمد قريب . وكان
فؤاد باشا يقصد من جهة أخرى من ترغيب السلطان فى هذه
السياحة ابعاده عن هذه الزمرة ومرافقته فى زيارته بصفته ناظراً
للحربية والمحادثة معـه ملياً فى شؤون الدولة وفتح ميدان فسيح
لنيل التقرب من الخليفة على قدر الامكان . وقد نال ما كان
يتمناه فى هـذه الزيارة اذ تمكن من ازالة نفور السلطان منه
واكتساب رضاه وتوطيد دعائم نفوذه بين أهـل السراي
فنصب صدراً أعظم بعد العودة من مصر . وبقيت نظارة
الحربية فى عهدته ووجهت اليه رتبة مشيرية المابين ولنترك
الآن تفصيل ما وقع من الحوادث فى زمن صدارة فؤاد باشا
التي دامت زمناً طويلاً لمقالاتنا الآتية ونكتفي ههنا بكتابة بعض
الشيء عنها لم يظهر جزء من مائة جزء مما كان ينتظر ظهوره من
الاعمال المفيدة فى عهد صدارة فؤاد باشا ولو قسنا الاصلاحات
التي أجريت فى مـدة الاربع سنوات بالسيئات الموجودة
والمقتضى ازالتها لرأينا ان الفوائد التي حصلت للدولة من صدارة

فؤاد باشا أقل من القليل

والمسئلة التي جرت في عهده وجديرة بالذكر هي الاصلاحات المهمة التي تمت في ولاية الطونه ولكنها ناشئة عن اجتهاد مدحت باشا المستمر الذي كان والياً عليها وقتئذٍ وقد ارادوا تعميم هذا الاصلاح في جميع الولايات وكأني بهم وقد ارادوا ان يظهروا للعالم سعيهم في سبيل نجاح الملك بافتتاحهم معرضاً بميدان السلطان احمد في الاستانة سنة ١٢٧٩ وتشكيل (صندوق رأس المال) في كل قضاء وقرية من بلاد الروم ايلي . وتأسيس البنك العثماني لاول مرة في دار السعادة برأس مال يربو على ثلاثة ملايين جنيه لمدة ثلاثين سنة . وقد أعلنت هذه الاصلاحات كلها في الجرائد الوطنية والاجنبية فعدت دليلاً على ترقي الدولة وتقدمها ولكن ما لبثت ان شهدت عليها آثارها بانها جعجعة فارغة وطنطنة كاذبة

كان المشار اليه يرى مركزه عرضة للزوال في كل زمان فهان عليه بيع وطنيته وتضحية مصلحة بلاده في سبيل تمتين دعائم مركزه فساعد السلطان على تبذير أموال الدولة واعانه على نيل مآربه السيئة التي فطر على حبها . حتى أوقع مالية الدولة

(التي هي لها بمثابة الروح للجسد) في ضنك شديد .

وان كان السلطان معتدل المشرب فى بدء سلطنته ولكنه اتبع اخيراً اهواء أهل السراي وطاوعهم على الاسراف الكثير التي ذهب بحياة الامة :

فبلغ عدد نساء السراي عدداً كبيراً ضاقت بهم السراي مع اتساعها المشهور وعلى رواية ان عددهن تجاوز التسعماية وازداد أيضاً عددا اغاواتهن الخصي زيادة نسبية فكان مجموع الحشرات في السراى الهمايوني الفان وخمسمائة نفس !

ولو قلنا ان المطبخ الشاهانى كان يحضر ماية سفرة وفى كل سفرة اثنا عشر لوناً من الطعام لكان مجموع مايؤكل في كل أربعة وعشرين ساعة يربو على الستة آلاف صحن وهو مقياس يمكن معه ادراك مقدار الاسراف والتبذير في عهده

والذي زاد فى الطنبور نغمة تشييده قصر (چراغان) الفخيم وقصر (بكلربكى) وقصور كثيرة فى جهات مختلفه ولو اغضينا النظر عن المصاريف الكبيرة التي لابد من صرفها كالمبالغ التي بذلت لانشاء (الترسانه والطوبخانه) لكان مجموع ما صرف على قصر (چراغان) فقط نيفاً ومليون

ونصفاً من الجنيهات وهي حقيقة ثابتـة بدفاتر وقيود مأمورو الانشاآت . وباضافة هـذه المبالغ الى مصاريف المطبخ يظهر للقارئ باجلى بيان مقدار تلك الاسرافات الفاحشـة . ولم ينس فؤاد باشا نفسه بعد ان ساعد السلطان على هذا الاسراف كله بل انتهز الفرصة وشيد له قصراً كبيراً يعجز عن وصفه الواصفون [1] ولقـد سرت هذه الروح الى صغار الموظفين فى جميـع شعبات الادارة بعد ان رأوا بام عينهـم فعل أولياء الامور منهم

فراج سوق الاسراف بعدئذ فى جميـع ادارات الدولة وابتذل الارتشاء والارتكاب وتركوا الاجانب يتمتعون بثروة البلاد ويزاحمون فى التجارة والصناعة والاستعمار أهل الوطن .

واتسع نطاق هذه الاحوال حتى باتت الدولة على شفا جرف هار من الاضمحـلال ولم يأتوا بامر ينفع الامة من الامور اللازمة

اللهم الا تنظيم الجيوش البرية وايجاد قوة بحرية هائلة ولو نسب حصول ذلك الى صدور الذين تولوا هـذا المنصب بعد فؤاد

(١) هو الآن دائرة نظارة المالية في الاستانة

باشا لكان اقرب للحقيقة كما لو عزي الى المشار اليه وسنفصل
هذه الحقائق تفصيلا فى الفصول الآتية وكانت علائقنا الخارجية
حينذاك في فتور مع الدول ولسنا ننكر اقتدار فؤاد باشا وزكاءه
وبعد نظره في عواقب الامور واشتهاره بين الساسة الاوربيين
ولكن اختلال الامور الداخلية وعدم انتظامها اثرت اسوأ تأثير على
علائقنا مع الدول الاجنبية وحالت دون الاستفادة من اقتداره
وشهرته واضاعت حقوق الدولة في رومانيا والجبل الاسود وعلى
الاخص في الصرب وهى الدولة التي كانت لم تزل حتى الساعة
مستظلة بنفوذ الدولة الموهوم . وقد انسحبت العساكر العثمانية
التي كانت تحتل من قديم الزمان اهم النقط العسكرية في بلاد
الصرب ومنحت هذه استقلالاً سرياً . وكانت هذه كل نتائج
صدارة فؤاد باشا التي دامت اربع سنوات حتى يمكننا ان نقول ان
نتائج هذه السياسة الخرقاء اثرت على مستقبل دولتنا اسوأ تأثير
اذ كانت اعمال فؤاد باشا سبباً لابتعاد جميع اصحابه عنه
واتفاقهم على اسقاطه من منصب الصدارة . والذى عجل بسقوطه
وعدم بقائه في منصب الصدارة مدة اخرى هو وفاة (پالمرستون)
احد مشاهير وزراء الانكليز في ذاك الحين . حيث ان وزراؤنا

قد اعتادوا جميعاً ان يعتمدوا اثناء صدارتهم على احدى الدول العظمى ليقاوموا تيار السراي ويقضوا ايام صدارتهم آمنين جانب مداخلتها ويسعوا جهدهم لتزايد نفوذ سفير الدولة المنتمين لها في الاستانة ليستفيدوا من ازدياد نفوذه في السراي وكان فؤاد باشا ينتمي للدولة البريطانية فلم يكن بقاؤه في منصب الصدارة زمناً طويلا الا نتيجة انتمائه لها وازدياد نفوذ «بالمرستون» في الاستانة وبعد سقوط صدارة فؤاد باشا تولى محمد رشدي باشا منصب الصدارة في ٢٤ مايو سنة ١٢٨٣ هـ

وكان رشدي باشا متوسط الحال بين الوزراء ولم يقدر على تنظيم الامور وايقاف دولاب دائرة السوء التي اشتد دورانه في المدة الاخيرة . وكانت هذه الصدارة مشكلة من رجال معروفين (ما عدا فؤاد باشا) بالحزم والتدبير وبينهم الصدر الاسبق عالي باشا . واول نقطة يقف عندها الناظر من اعمال هذه الصدارة هي ترك الميل لسياسة الانكليز التي كان فؤاد باشا متعلقاً باهدابها واتباعهم سياسة الفرنساويين كما هي العادة عند كل من تولى الصدارة فى اتباع سياسة احدى الدول واتخاذها ملجأ له يلجأ اليها عند مسيس الحاجة

اما الاحوال الداخلية فكانت تزداد وخامة يوماً عن يوم ووصلت مالية الدولة الى حالة يندبها الصديق ويرثيها العدو حيث ان اسراف اهل السراي وسوء تدبير الوزراء لم يبق ولم يذر على الملايين الكثيرة التي اقترضتها الدولة من متمولي الاجانب وعجزت الخزينة عن اداء فوائد الديون عند حلول المواعيد المضروبة اذ كانت خزينة الدولة افرغ من فؤاد ام موسى فانزلت هذه الحال بمكانة الدولة عند الاجانب كما اسقطتها في عيون الوطنيين

فبحث اولياء الامور لايجاد وسيلة يستندون بها على سلب الاموال فقر قرارهم « وبئس ذاك القرار » على ان يوضع مال البنك العثماني ضمانة للدائنين وان يترك دخل عدة ولايات للبنك المذكور وتمادوا في غيهم هذا حتى كانوا من اقوى العوامل على تشكيل الديون العمومية (١) وهي كما ترى عبارة عن « حكومة في قلب حكومة »

ومن نوائب هذا الزمان التي تنفطر لها القلوب حزناً انتهاز الصرب والجبل الاسود ورومانيا هذه الفرصة السانحة لنيل امنية طالما كانوا يتمنونها ومما ساعدهم على بلوغ هذه الامنية

---

(١) تعادل صندوق الدين في مصر ٠

وقوع الدولة في احوال كهذه هم بفروغ الصبر ينتظرونها لخلع نير تلك التابعية التي كانوا مرتبطين بها مع الدولة ارتباطاً جزئيا ونيل الاستقلال التـام او على الاقل تزيد الامتيازات التي يتمتعون بها من قبل وقدظفروا بما املوا بعدجدال سياسي عنيف فانسحبت عساكر الدولة من القلاع التي كانت تحتلها في بلاد الصرب وعلى الاخص قلعة بلغراد [1] بعد مخابرات دامت مدة طويلة ومنحت رومانيا والجبل الاسود ما طلبا من الامتيازات الكثيرة بعد حزف جزء منها

وبينما كانت نار هذه الاحوال تتأجج اذ شق اهالي(كريد) عصا الطاعة فارخى عملهم ستار النسيان على ما تقدمه من المصائب والرزايا. فاجتهدت الدولة كثيراً في تسكين هذا العصيان ولكنها اخفقت سعياً ولم تتمكن من تسكينه الا بعد ان تولى عالي باشامنصب الصدارة فسكن بحسن سياسته ذلك العصيان بعد ان زاد امتيازات الجزيرة زيادة لم تكن في الحسبان. وكانت كل هذه الجروح من سوء التدبير التي أنزلت بالدولة الي هوّة الاضمحلال . فيستنتج من الملاحظات كلها ان رشدي باشا لم

(١) هي الآن عاصمة الصرب

يتمكن من مداوات هذه العلل فاستعفى والخطب جلل فجاهر الجميع بوجوب تسليم زمام الصدارة لفؤاد پاشا فعارض السلطان في الامر اشد المعارضة لعدم محبته له وقلة ثقته به وعين اخيراً عالي پاشا صدراً اعظم وفؤاد پاشا ناظر للخارجية ورشدي پاشا ناظر للحربية



اواسط سلطنة السلطان عبد العزيز

صدارة عالي پاشا — زيارة السلطان عبد العزيز لاوروپا — حسن ادارة الصدر الاعظم — وفات عالي پاشا — بعض الاصلاحات التي تمت في ذاك الحين — نظامنامة الولايات — تأسيس مجلس شورى الدولة — بعض التشبثات في امور النافعة — الجهة العسكرية — الاحوال المالية

كان عالي پاشا كأكثر وزراء زمانه من تلامذة الصدر الاسبق مصطفى رشيد پاشا المشهور . فاستخدم نيفاً وعشرين سنة في شعبات الادارة حتى اصبح وليس من خافية تخفاه واخيراً عين في نظارة الخارجية وخدم الدولة خدمات مهمة وبالاخص فى معاهدة پاريز التي كانت نتيجة حرب سيواستوپول اذ كان مندوباً للدولة العثمانية فاظهر من ضروب المهارة السياسية ما اذاع اسمه فى اوروپا . ومن خصائصه الممدوحة انه لم يكن كمن شغفوا بالمناصب والرتب وكانوا يبذلون كل مرتخص وغال فى هذا السبيل سيما السعي فى بلوغ رتبة الصدارة ومع انه كان فى الدرجة الثانية من الوظائف ويرجح الاشتغال بما عهد اليه من الامور الخارجية ولكنه دعى لرتبة الصداره بعد سقوط

وزارة رشدى باشا فقبلها مكرهاً

وكانت امور الدولة الداخلية كثيرة الاضطراب وطالما ادت هـذه الاحوال الى مداخلات الدول الاجنبية ودعت فتح باب التعرض لدولة الروس عدوتنا الزرقاء منذ القديم . وكان عالي باشا جلب محبة بعض الدول الاوروبية بما اكتسب من الشهرة والنفوذ وبالاخص عند ناپوليون الثالث امپراطور فرنسا فهدأ ثورة كريد فى مدة قصيرة بما استعمل من التدابير المؤثرة الفعالة ولما استتب الامن فى كريد لم تتوفق روسيا من اشعال جذوة الثورة العظيمة التي ارادت ايقادها فى بلغاريا بواسطة جمعيات «پان اسلاويزم» واستتب الامن هنالك في مدة قصيرة وعدت هذه الحالة مغلوبية تامة لساسة الروس فكانت هذه التوفيقات المهمة وتشبث السلطان عبدالعزيز لزيارة اوروپا مقدمة لاكتساب الدولة العثمانية موقعاً ممتازاً بين الدول

والعاقل البصير يدرك موافقة هذا التدبير الجليل للحالة الحاضرة لانه لم ير فى التاريخ العثماني حادثا مماثلاً لهذه السياحة الملوكية . كما ان العلاقات القديمة بين دولتنا ودول اوروپا قد تغيرت منذ الواقعة الخيرية ولذا كان من الضرورى لنا تأييد العلاقات

الحبية بين سلطاننا وملوك أوروپا . حتى ان هذه الزيارة كانت السبب الوحيد لازالة بعض ما طرأ من التغير على أفكار ملوك الغرب وما كانوا يعتقدونه في الشرق والشرقيين وقد فتحت هذه الزيارة ببلادنا طرق الفوائد المدنية ودفعت بهم لزيارتهم مصر والاستانة .

وكانت السبب الوحيد لتوطيد دعائم العلاقات بين ملوك أوروپا والاسرة المالكة في دار السعادة : والغاية الوحيدة من تشويق عالي پاشا للسلطان عبد العزيز لهذه السياحة ارائة الدول الاوروپية دخول الدولة العثمانية في دور الترقي واستعدادها لاجراء الاصلاحات الجدّية

ومحو تصورات الاعداء على الاخص منهم دولة الروس الذين كانوا يشيّعون عن الدولة وسلاطينها اشاعات ملئها الكذب والافتراء

ومن جهة أخرى كان يود ان يرى السلطان عبد العزيز دول الغرب وملوكهم وما يعاملون به الرعية من الرفق والعدالة وما أثمرت أفعالهم من الثمرات الحسنة من أعمار الملك وزيادة الثروة في البلاد لتكون له درس عبرة ولعل وعسى ان يقتدى

بهم فيصلح الملك ويريح العباد وبناء عليه عزم السلطان على زيارة أوروبا فأخذ صحبته السلطان مراد[١] وعبد الحميد أفندي[٢] وكثير من كبار المملكة وبعض أتباعه وفي سنة ١٨٦٧ م توجه الى پاريز والسبب في رحلته أولاً لپاريز هو وجود ناپوليون الثالث ايمپراطور فرانسا الذي له من الصيت والشهرة ما يغني عن البيان وقد أثرت اذ ذاك سياسة عالي پاشا تأثيراً حسناً في هذه الزيارة اذ كان ينتمي للفرنساويين فاكرمت حكومة فرنسا مثوى السلطان واستقبلته استقبالا يليق بالملوك العظام وقد رأى الاكرام الزائد منها طول اقامته في پاريس وتركها بعدئذ قاصداً لوندره ولما ان وصل اليها رأى من الاكرام مالم يره في پاريز اذ كان فيها ضيف الحكومة والاهالي معاً بينما كان في پاريز ضيفاً للحكومة فقط فكان جميع الاهالي ترحب به وتهتف له بالدعاء أينما حل وأدبت له بلدية لوندره مأدبة شائقة ولم يكن ذلك بالامر الكثير لما اعتادته هذه الامة من الشغف الزائد بدولة بني عثمان

---

(١) الذي كان ولياً للعهد حينئذ

(٢) هو السلطان عبد الحميد الآن

وبعد ان مر على بعض الجهات عقب زيارته لوندرة قفل
راجعاً الى الاستانة وكان زمان صدارة عالي پاشا من أحسن
الايام وبهمته تأسس مجلس شورى الدولة في مركز السلطنة
وابتدأت آثار الترقي تظهر في جميع شعبات الادارة فسكن
عصيان كريد بسياسته بعد ان كانت الحرب على قاب قوسين
بين الدولة العثمانية واليونان نظراً للمعاونة الدائمة من الثانية لثوار
كريد وبعد ان اشتغل السردار عمر پاشا مدة في تسكين
العصيان بالقوة القاهرة ولم يجد عمله نفعاً . حصر عالي پاشا
فكره في اصلاح وتنظيم الامور الداخلية ولكن حال دون اتمام
امنيته عدم وجود عمال اكفاء وما اعتادته حشرات السراى من
المداخلات فى امور الدولة . وقد كان الامران من اهم الاسباب
لعدم وضع الاصلاح كما ينبغي ومما يذكر فيشكر تشكيل
صندوق الامنية فى الاستانة وادخال بعض الاصلاحات فى
الجيش كتنظيم الجيوش وتنسيقها على الطراز الجديد . وعلى العموم
فان الاحوال الداخلية قد انتظمت انتظاماً يذكر بعد حادثة
كريد . وفى ذاك الحين كان مدحت پاشا والياً على بغداد فاستطاع
اخضاع اهالي ولايتي القطيف والاحسا ووجه همته الى توزيع

العدالة فى تلك الديار واصلحها كما اصلح احوال الطونة واسس شركة بواخر عثمانية وكانت الغاية الوحيدة من هذه الشركة توسيع نطاق النقل بين بومباى وبغداد والاستانة ونشر تجارة البلاد ومما هو جدير بالذكر أيضاً تأليف معسكر في اليمن سنة ١٢٨٧ ه وادخال العرب المنتشرين فى صنعا والعسير تحت لواء الطاعة وتأييد النفوذ العثماني بتلك الاصقاع النائية . وبعد تدبير هذه الامور بسنة من الزمان بدأت صحة عالي پاشا بالانحطاط ثم اشتد عليه المرض وعلى رواية أخرى ان محاربة ١٨٧٠ التي وقعت بين فرنسا والمانيا واسر ناپوليون الثالث واندحار فرنسا أثرت فيه وكانت سبباً لاشتداد مرضه فانتقل الى رحمة ربه تاركا من حسن السمعة ما خلد له اسما لا تمحوه كرور الايام

نعم ان عالي پاشا لم يقم باصلاحات قطعية أيام صدارته ولكنه كان أعظم صدر أتى حتى ذلك الوقت فان تشكيله لمجلس شورى الدولة وسعيه لصد تيار حشرات السراي من الامور التي تخلد له أطيب الذكر وتكفي بان تكون شهادة حسنة على حسن تدبيره وزد الى ذلك انه كان رحمه الله حميد السيرة طيب السريرة عفيفاً مدبراً وخلاصة القول انه كان أصلح الوزراء

الذين وجدوا في عهده . وقد اشتهر بنفوذه لدى السلطان عبد العزيز ولذلك تمكن من انقاذ الملك من بين يدي هذا الملاك المخرب وأخر حلول الايام المشئومة الى حين . وتربع في دست الصدارة العظمى بعد وفاته محمود نديم پاشا في ١٢٨٨ هـ وكانت صدارة هذا الاخير تشكل دور المصائب والانقراض في عهد السلطان عبد العزيز . فلنترك هذه الحوادث للآتي ولنلخص ماتم من الاصلاحات في الدولة العثمانية من عهد جلوس السلطان عبد العزيز حتى صدارة محمود نديم پاشا فنقول : ان الاهالي كانت تأمل من السلطان عبد العزيز اصلاح البلاد ولكن هيهات ! فقد ظهر في القريب العاجل استحالة حصول هذا الامل . ومع هذا فلا ينكر انه قد حصل في دور السلطان عبد العزيز من العمران واصلاح الملك اكثر مما حصل في عهد السلطان عبد المجيد

ولم تكن آثار هذا العمران والترقي نتيجة حب الوزراء وحشرات السراي للوطن أو تفانيهم في الاخلاص له بل كان ناشئا عن استعداد الامة وتقلبات الزمان . وعدم اقتدار وزراء ذاك الوقت « اللهم الا النفر اليسير منهم » وعدم غيرة من

تربعوا في دست الوظائف العالية دليل واضح على ان هـذه الاعمـال كانت قليلة جداً وفي الدرجة الثانية من الاهمية

وكانت أمور الولايات ملقاة على عاتق الولاة الذين يعينون من الاستانة رأساً وهؤلاء يعينون في وظائف الالويه والمديريات بعض خدمهم واتباعهم وأصحاب المحسوبية عليهم . فكان هؤلاء الموظفون يضعون الرسوم على الاهالي بحسب نفوذهم وانصافهم ويعاملونهم بقدر ما يستطيعون من الجور والعسف حتى ان مصائب الوباء كانت دون هذه المصائب على الاهالي . والسبب في عدم خوف الظالمين الصغار اشتراك الولاة واصحاب النفوذ في الاستانة حتى أهل السراي وتقاسمهم الاموال المنهوبة على السوا . وكان الولاة يرسلون الهدايا الدائمة لاصحاب النفوذ في الاستانة ليحافظوا على مراكزهم ولم يدخل من الاموال الاميرية الى الخزينـة الا الجزء اليسير . فاحس بعض العقلاء بعدم جواز هـذه الاحوال وأرادوا ان يتلافوها قبل ان يتسع الخرق على الراقع ويحل القضاء حيث لا عاصم ولا مانع . فقر قرارهم على تغيير ادارة الحـكومة وافراغها في قالب أنفع ودعوا والي الطونه مدحت پاشا الذي كان مشهوراً بثباته ونشاطه وحسن

درايته في الامور السياسية واكتسب شهرة عظيمة لاتمام هذا المشروع الجليل وبعد ان تذاكر الوزراء في هذا الامر ملياً وضعوا نظاماً جديداً يدعى بنظامنامة الولايات وكان ساعدهم الاقوى في اتمام أمنيتهم أفكار ومطالعات مدحت پاشا ثم بدأوا في تطبيق هذا النظام على ولاية الطونة فلما ان ظهرت ثمرته في مدة قصيرة قرروا تطبيقه أيضاً على جميع الولايات تدريجياً .

ومما هو جدير بالذكران هذا النظام مهما كان موافقاً للمصلحة فلا بد له من رجال اكفاء يقومون بتنفيذه ولذا لم يقتطف ثمرة هذا النظام الجليل الا في ولاية الطونه حيث كان مدحت پاشا واليها وبهمته انتج هذا النظام فوائد عديدة فاحيي تلك الولاية وأوصلها لدرجة ضاهت بالعمران أحسن بلاد أوروپا

ولكن مما يؤسف له انه بينما كان الحال في هذه الولاية كذلك لم يرَ لهذا النظام في غيرها أدنى تأثير . فبعد ان انتظمت تلك الولايات قليلاً أتى الدور للاستانة فجددت الاصلاحات في أمور مجلس شورى الدولة والفضل كل الفضل في ذلك عائد على مدحت پاشا والدليل على ذلك تفويض أول رياسة لهذا المجلس الى عهدته . ثم تحولت أنظار هذا المصلح العظيم

للحقانية (أي العدلية) فأجرى فيها بعض الاصلاحات ونظمها على قدر الامكان تنظيما يناسب الوقت والزمان

فاصلح وضع هذا النظام جميع الدوائر وسد جزءاً مما تحتاج اليه الدولة من الاصلاح وعلى كل فان فائدة هـذا الانقلاب ظهرت للعيان ظهور الشمس في رابعة النهار . وقد أصلح في مقدمة هـذا الانقلاب بعضا من الامور النافعة ولـكن عدم وجود رجال اكفاء عندنا لادارة هذه الاعمال العظيمة بنفسنا أوجبت احالة هـذه الامور بشرائط معلومة الى الاجانب كي نستفيد من ثروة بلادنا عملاً بالقول المأثور (مالا يدرك كله لا يترك كله)

ولـكن لم يحصل من تسليمها للاجانب سوى الاضرار البليغة لنا فكأني بالحـكومة العثمانية وقد رأت بأم عينها ما نتج من المضرات العظيمة بسبب اعطاء امتيازات الخطوط الحديدية للاجانب فشرعت في مد خط الاناطول على حسابها ولكن أنتج انشاء هذا الخط من الاضرار المالية ما قدر باضعاف الخسائر الذي نشأت عن مد الخطوط بواسطة الاجانب فبينما كانت النية موجهة الى مد الخط داخل الاناطول واقترض لهذا الغرض الملايين من الجنيهات من بنوكة أوروپا لم يتجاوز الخط ثغر

أزميد . وعند الحساب تبين ان ماصرف على كل كيلومتر واحد يعادل ما صرف على خمسين كيلومتراً مما مدته الاجانب . ولولا تعبئة اكياس الخائنين لامكن على قول العارفين مدالخط الى البصرة بهذه المبالغ الجسيمة . ولم تقف أحوال النافعة عند هذا الحد بل ألفت أيضاً في نهر الفرات شركة بواخر فنالها ما نال خط السكة الحديدية حيث ان المنفعة الخاصة قدمت على المصلحة العامة . حتى ان جهل الوزراء وحرصهم على المنفعة الذاتية أعمى قلوبهم عن الشركة الخيرية التي تشتغل داخل البوسفور وما تجره يومياً من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولم يروا امامهم هذا الهيكل المجسم بل أعماهم عنه الغرض فلم يهبوا لتنظيم شركة البواخر العزيزية [1] اذ كانت هذه الشركه تدار بواسطة الحكومة تارة وبواسطة الاجانب اخرى . ومع هذا لم تأت باقل فائدة تذكر بل كانت دائماً مورداً عذباً للاجانب فتشبثوا أخيراً في اخراج المعادن المكوزة في بلادنا ومنحوا الاجانب امتيازاتها فنال الخزينة من هذه ما نالها من الخطوط الحديدية وشركة البواخر العزيزية ولم ينتفع منها سوى الاجانب من

---

(١) تسمى الآن بالادارة المخصوصة

مهندسين وعمال حيث امتلأت منها جيوبهم بالاموال .
وأجدرها بالذكر الحسن هو تمديد الخطوط التلغرافية بجميع انحاء المملكه العثمانية فارتبطت بها البلاد ببعضها .

هذه هي مجموع الاجراآت النافعة التي اردنا عرضها للقراء ولو انه لم يستفاد منها ادنى فائدة فجميع هذه المضرات لم تكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لماحصل من الاضرار بواسطة بناء القصور الشاهقة ليتنعم بهاجلالة السلطان ومقربوه اما الامور العسكرية فانها ترقت ترقياً نسبياً ولكن مكتب الحربية بقى على ما كان عليه منذ تأسيسه ايام السلطان محمود بينما ان المعسكرات كثرت وتزايدت حتى لم يعد المكتب المذكور كافياً لاخراج الضباط اللازمين من اصحاب المعلومات و بناءً عليه كان يقتضي في ذاك الحين وجود مكتبين للبيادة او ثلاثة ومكتب للسواري وواحد للهندسة ومع غض النظر عن عدم انشاء احدهما تجد انهم وضعوا پروغرام المدرسة الحربية بدون تروٍ حيث كان المكلفون باصلاحه لا يعلمون عن اصول المدارس شيئاً حتى بقيت هذه المدرسة دون مدارس اوروپا الحربية ولم تستفد من الترقيات الحديثة شيئاً يذكر

وابتدأوا حينئذ في اجراء المناورات في المعسكر الخاص والثاني فترقت العساكر وتوسعوا في التعليم حتى ظهرت اخيراً فوائده العظيمة .

اما السواري فانها كانت قبلاً تشكل الصنف الممتاز بين العساكر العثمانية وهي التي كانت مداراً لتأمين الانتصار ولكنها انحطت اخيراً حتى اصبحت لا تعد شيئاً بالنسبة الى الطوبجية والپياده فانصرفت الهمة حينئذ لاصلاح هذا الصنف واكتفى بتسليحه ببنادق مانشستر والطپانچه والسيف وتجهيزه بالخيول السريعة العدو . اما المالية فارتبكت ارتباكا ما عليه من مزيد لان الاقتراضات الخارجية ابتدأت من ايام السلطان عبدالمجيد وتزايدت في عهد عبد العزيز الى ان وصلت لعشرة ملايين وسرت الى الداخل فنمت نموا عظيما حتى عادلت الديون الخارجية

ومن المحزنات ان هذه الديون التي استدانتها الدولة بعد كل عناء لم تصرف في سبيل الامور الجدية بل ذابت في زمان قليل بين ايدي الوزراء وحشرات السراي مما سنفصله تفصيلا .

﴿ اوروپا والدولة العثمانية ﴾

بعض الملاحظات على الفتوحات العثمانية . — عناصر النصارى في البلاد العثمانية — تشبثات السلطان سليم الاول ضدهم — انحطاط الدولة العلية بعد معاهدة قارلوفچه — تعرض روسيا للشرق — احوال هذه الدولة التاريخية — پطرس الاكبر ومحارباته مع الدولة العثمانية — وصية پطرس السياسيه — حماية الدول للدولة العلية — السعي فى تجديد قوة الروس بعد محاربة القريم — جمعيات الاتحاد السلافي — اتحاد السلافيين ومبدأ ظهوره — حركات هذه الجمعية —

اثبت التاريخ ان اكتساب احدى الدول للقوة والسطوة يتوقف على اجتماع سلسلة حوادث ووقائع متعددة في وسط مناسب كما ان انقراض دولة قوية الشكيمة وصلت الى الاوج الاعلى من المجد الشامخ يتوقف على هذه الاحوال. ومع ان الحال الاخير بدأت اماراته تظهر في التاريخ العثماني منذ ثلثماية سنة فالدولة العثمانية زحفت عساكرها من آسيا الى اوروپا حين كانت فريدة عصرها بالقوة والسطوة ووصلت عساكرها الى ابواب ڤينا « عاصمة النمسا » في مدة قليلة والذي حدا بالعناصر النصرانية التي تقطن البلاد التي افتتحتها الدولة الى التزام السكون طول هذه المدة هو عدم اقتدارهم على مقاومة تلك القوة القاهرة وعجزهم عن اتخاذ ادنى الوسائط امامها .

ولكن العثمانيين اخطأوا خطأ فادحاً حيث انهم لم يصرفوا قسماً من اقتدارهم وزكائهم في ربط البلاد المفتتحة ربطاً قوياً محكماً . وهو خطاء سياسي عظيم حتى كان السبب في اضمحلال الدولة العثمانيـة . لان مجرد فتح البلاد لا ينتج ادنى فائدة في الاستقبال ان لم يبن على اساس متين كما ان بقاء النصارى على ما هم عليه ومحافظتهم على جنسيتهم القومية تمام المحافظة لمما يترك لهم باب الامل مفتوحاً للتخلص من حكم الاتراك وبناء عليه فان عدم تجنيس النصارى بالجنسية التركية على قدر الامكان لهو خطاء عظيم وعدا هذا فانهم لم يهتموا في امر تكثير الاسلام بين اهالي قطعة اوروپا حتى ان كثرة المحاربات اوجبت انقراض الاسلام فيها تدريجياً وكانت الاحوال تزداد وخامة يومابعديوم

ومع هذا فلا يذهب فكر القارئ الى ان العثمانيين الذين أظهروا من ضروب المهارة السياسية والادارية ما تعجز عنه أية أمة من الامم الغربية لم يهتموا قطعياً بهذه المهالك المقبلة . بل ان السلطان سليم الاول الذي تفرد بالذكاء والفراسة وبعد النظر في عواقب الامور قد بذل جميع ما في وسعه لهذه الغاية حتى انه عرف ان الفتوحات للاستقبال لا للحال فاتخذ هـذا الفكر

دليل أعماله . ولكن ما الفائدة اذ لم يبث فكره لاحد ولم يمكنه قصر الاجل من اظهار رأيه الى عالم العمل فتوفي ودفنت معه تلك الدرة اليتيمة .

فلم يهتم من تولوا عرش الخلافة الاسلامية بعد ساكن الجنان بالمسئلة المبحوثة بل تركوها في زاوية الاهمال ولم تلبث حتى ظهرت نتائج تلك الافعال . فبمعاهدة « قارلوفچه » أمضت الدولة العثمانية على ترك الفتوحات وصفرت صفير الرجوع الى الوراء وزد على ذلك ازدياد الثورات الداخلية زيادة عظيمة حتى يئس الجميع من الاصلاحات . فالاعداء الذين تحملوا التابعية العثمانية بالرغم عن ارادتهم رأوا حينئذ ان الفرصة سانحة لاظهار ما تكنه صدورهم من الغل ، والغل كمين في الصدر يخفيه الضعف وتظهره القوى . فتباين الاديان واختلاف الاجناس بين سكان أوروپا العثمانية لم يرب في قلوبهم سوى التمسك باسترداد الاستقلال وخلع نير حكم بني عثمان عن عاتقهم كلما لاح لهم بارق الآمال . وطرد الاسلام من تلك الديار الذين هم القسم الجزئي فيها الى قطعة آسيا وطنهم الاصلي . فلم تخف على رجال الدولة العثمانية هذه الآمال ولكن الضعف كان حائلاً

بينهم وبين مجازات الخائنين

اذ كان أهل السراي وهم منبع الفساد الذين مضى عليهم حتى الآن من العمر ما يتجاوز الثلاثمائة سنة في أبان شبابهم فاوقعوا الدولة في حيص بيص من جراء أفعالهم . فبناء عليه كان يستبعد ظهور وزير من بين وزرائنا صاحب تدبير كالوزراء السابقين بينما كان الاعداء في الخارج والداخل قد وجدوا ميدانا واسعاً فكانوا يرجعون بالغنيمة كلما اغاروا علينا

وحينئذ ظهرت المسئلة الشرقية «أي طموح الدول الاجنبية لاقتسام تركية أوروبا وتهيئ كل منهم لابتلاع اللقمة الكبيرة منها» وهي بلا شك نتيجة كثرة الاضطرابات الداخلية وعدم توزيع العدالة بين اهالي البلاد فكانت روسيا اكثر الدول المجاورة طمعاً في اقتسام الدولة العثمانية وابتلاعها بادعائها حق الشفعة في ارث بنى عثمان . اذ آنست في نفسها الكفائة بعد ان أصلحت احوال داخليتها في عهد پطرس الاكبر فكانت تتخذ حماية المسيحيين وعلى الاخص السلافيين منهم في تلك الديار ذريعة تتوصل بها الى نيل مآربها حيث ان السلافيين يشكلون القسم الاعظم من أهالي أملاك الدولة العثمانية في أوروپا .

وعليه جعلت نفسها الوارث الشرعي لهذه الدولة وكانت توالي محارباتها معنا وتبذل كل نفس ونفيس في سبيل الوصول الى غايتها .

ولنوجز شيئاً من تاريخ هذه الدولة عدوتنا الازلية كي يعلم القارئ تماماً ما كانت عليه وما آلت اخيراً اليه ولكل زمان دولة ورجال .

لم تكتسب الروسيا هذا الموقع الممتاز التي هي عليه الآن بين الدول مع ما اوتيت من كثرة العدد وسعة الاراضي في شرقي اوروپا الامنذ مايتي سنة اي بعد ان اعتلى پطرس الاكبر سرير قياصرة الروس . ولو انها منسوبة الى السلافيين ولكنها كانت اجهلهم جميعاً وكانت في أقصى درجات التعصب . ولم تختلط مع الامم الاوروبية الاخرى بل بقيت في حال التوحش الى عهد پطرس الاكبر . فقد كانت في مبدأ ظهورها تعبد الاصنام واعتنقت بعدئذ الديانة المسيحية وقبلت مذهب الارثوذكس بواسطة المبشرين الذين أرسلوا لها من قبل قيصر الروم الذي كان حاكم القسطنطينية وكان قبولهم هذا الدين في عهد « ڤولوديمتري » پرنس روسيه فبعد وفاة المذكور انقسمت

المملكة بين أولاده وتشتت شمل ذاك الملك الواسع حتى عجزوا عن صد هجمات الاعداء الخارجين . وبينما هم على هذا الحال اذ ظهرت التاتار فاستولت عليها وبقيت تحت ربق اسرهم مدة تنوف على مائتي سنة ولكن أمراء الروس رأوا بعينهم النتائج الوخيمة التي نتجت عن هذا الانقسام فاتحدوا جميعاً وصاروا يداً واحدة وسلكوا مسلك الخوف والرجاء تجاه اعدائهم حتى اذا ما تمكنوا من لم شملهم أسسوا امارة مهمة تحت ادارة أمير موسكو [1] بعد مائتي سنة أخرى فكان أمير موسكو حينئذ « ايوان » الاول فصادف زمان سلطنته دور السلطان محمد الفاتح فلما افتتح الترك القسطنطينية وسقطت دولة القياصرة فرّ « ديمترى » أخو القيصر قسطنطين المقتول الى أوروبا

فتزوج ايوان الاول بابنته صوفيا وحول لقب الامارة الى لقب « قيصر » ودعى نفسه الوارث الشرعي لقيصر الروم ومع هذا كله فان الروس داموا على ما هم عليه مائتي سنة أخرى وكانوا أقرب شبهاً لدول آسيا منها الى دول الغرب ولكنهم

---

(١) مدينة روسية كانت عاصمة البلاد قديماً . ومشهورة بكثرة كنائسها وان فيها يتوج القياصرة حتى اليوم .

تمكنوا من توسيع حدودهم وعمران ملكهم بعد ان آمنوا جانب التاتار الموجودين داخل بلادهم وخارجها وعلى الحدود الشرقية وكانت الروس في نظر أوروبا والدولة العثمانيـة قوم كالعدم فلم يسمع لهـم اسم الا بواسطة السفراء الذين كانوا يرسلونهـم الى الاستانة واوروبا فى بعض الاحيان

وفى سنة ١٧٠٠ م توفى الكسي ميخاليويچ قيصر الروس تاركاً بنتا وولدين وكانت البنت تسمى صوفيـه وهي اكبر انجاله فتربعت في دست الملك وكانت حريصة عليه فسعت جهدها في محو أعقل أخويها حتى يخلو لها الجو ولا يبقى لهـا فى الملك معارض ولكن مريدى أخاها وقفوا لها بالمرصاد فاثاروا عليها عساكر موسكو وحبسوها فى دير هنالك وبايعوا اخاها الملك وهو فى الثامن عشر ربيعاً من عمره . وهذا الذى نحن بصدده هو بطرس الاكبر بعينه .

ومن غرائب الصدف ان ظهوره كان فى مبدأ انحطاط الدولة العثمانيـة . ومما لاريب فيه ان بطرس الاكبر كان على جانب عظيم من الذكاء ففى زمن قصير غير احوال الروس وبدلها تبديلاً وسعى جهده في ادخال المدنية الاوروبية لبلاده

حتى تمكن من ايصال ملكه الى الاوج الاعلى من الترقى
وأدخلها لمصاف ارقى الدول فى مدة حكمه التي لم تزد على
الثلاثين سنة . وحارب الدولة العثمانية مرتين ففي الاولى اشترك
مع الدول الثلاث (النمسا وپولونيا والبنادقه) الذين كانوا وقتئذٍ
اعلنوا الحرب علينا . ولما كان الاستيلاء على البحر الاسود مطمح
انظاره هجم اولاً على قلعة آزوف فارتد عنها خاسراً ولكن لم
تثنِ هذه الخسارة عزمه فاستجمع قوته واعاد الكرة عليها ثانياً
فاستولى على هذه القلعة بعد حصار طويل واعطيت هذه بعدئذ
للروس بموجب معاهدة قارلوفچة .

اما المحاربة الثانية : فهي ان ملك السويد شارل الثانى عشر
حارب الروس زمناً طويلاً ولكنه التجأ الى الدولة العثمانية بعد ان
غلب فى محاربة پولتاوا الشهيره . فشوق السلطان على محاربتهم
وعضده فى هذا الفكر بعض الوزراء حتى أعلنت الدولة العثمانية
الحرب على الروس . وكان قائد العساكر العثمانيه حينئذ الصدر
الاعظم محمد باشا البالطهجى فحاصر بطرس الاكبر وحصره على
اطراف نهر الپروت وسد عليه جميع الطرق حتى لم يبق له وجه
للخلاص فلما ان تأكد سوء العاقبة أرسل زوجته القيصرة كاترينا

مع «شفيروف» احد ضباط معيته لقائد المعسكر العثماني وبعد بذل كثير من الاموال للمقربين من القائد توفقوا لاقناعه على المصالحة . وحين ملاقاة القيصرة كاترينا بالصدر الاعظم تعلقت باذياله ووقعت على اقدامه قائلة : لا أبرح هذا المحل حتى ترض بعقد الصلح وهذه خلاصة المحررات الموجوده الآن من تلك المحاربة وهى أقوال المؤرخين الاجانب من روسيين وغير الروسيين ومهما كان الامر فان بطرس الاكبر خدم أمته خدمةً لا يمكن لاعظم ملك محبٌ لوطنه ان يأتي باكبر منها . فالاصول الذى وضعه في ادارة دولته والوصية التي أوصى بها بخصوص ما يجب على الروس ان تفعله في المستقبل هما للآن دستور العمل عندهم اما ما كتبه في وصيته عن سياسة الروس الخارجية فهي عائدة لنا بتمامها .

قال فى وصيته: ان دين الروس قد ظهر من الاستانة وابنة آخر قيصر للروم تزوجت بقيصر الروس وعليه فروسيا هي الوارث الوحيد لقيصر الروم . ولا بد من ضبط الاستانة وجميع الممالك العثمانية وعلى من يخلفه على سرير الملك أن يسعى في حصول هذه الامنية وان يضبط أولاً فأولاً سواحل البحر الاسود

والا فروسيا لايمكنها ان تملك حدودها الطبيعية وقد بـين فى وصيته التدابير اللازم اتخاذها .

وهي : اعلان الحرب على الدولة العثمانية عند اول فرصة تسنح والتقدم داخل الحدود على قدر الامكان .

تنظيم عساكر الروس وتدريبها على الفنون الحربيـة حتى تؤمن الغلبة على عساكر الترك .

والاستفادة من الثورات التي تحدث قصداً او اتفاقاً داخل البلاد العثمانية وتشويق عناصر النصارى فيها على شق عصا الطاعة . وقال في وصيته أيضاً ان الجسارة وحسن الاخلاق التي تمتاز بهما العثمانيين أخذتا بالتدني والانحطاط ودخل النفاق بين وزرائهـم وسرى بينهم كما يسرى الدم في العروق ولا بد من استمالتهم نحونا ببذل الاموال والهدايا عليهم وضبط البلاد العثمانية تدريجياً الخ .

ولو ان ساسة الروس تحاول انكار وجود هـذه الوصية التي نشرت مراراً في المطبوعات الاجنبية ولـكن الخطة التي ساروا عليها تجاه دولتنا بعد وفاة بطرس الاكبر تؤيد كل التأييد وجودها مهما حاول الروس اخفاءها . وعلى كل حال فان فكر

استيلاء الروس على بلاد الدولة العثمانية بدء منذ اعتلاء بطرس الاكبر على سرير قياصرة الروس . وقد حاربنا الروس للآن ثماني مرات وكانت تدور الدائرة علينا في جميعهم وأشدهم هولاً وأعظمهم مصيبة علينا هي المحاربة التي وقعت في عهد كاترينا الثانية والذي انجلت عن معاهدة قاينارجة . حتى ان هذه القيصرة الزكية كانت أشد من تقدمها من قياصرة الروس شغفاً في انفاذ وصية بطرس الاكبر فسمت حفيدها باسم قسطنطين تذكاراً لاسم آخر قيصر من قياصرة الروم . وفي المحاربات التي وقعت بيننا وبينهم على عهد اسكندر الاول ونيقولا الاول أكرهنا على امضاء معاهدات مجحفة بحقوقنا كل الاجحاف . ولكن المحاربة التي أعلنتها علينا الروس في أواخر عهد نقولا الاول بدعوى مفاتيح كنائس القدس الشريف لم تأت لها بفائدة تذكر فدحرت اندحاراً مبنياً حيث ان فرنسا وانكلتره اتفقتا معنا في هذه المحاربة فعجزت الروس عن اظهار مقاصدها من حيز القوة لحيز الفعل ولم تتمكن من انفاذ وصية بطرس الاكبر

اذ لم يساعد الروس على قضاء أوطارهم منا الا اتحادهم مع النصارى التي تقطن بلاد الدولة في أوروبا جنسيتاً وديانتاً

وفي الحقيقة ان دولة الروس استفادت كثيراً من اغبرار خواطر النصارى العثمانيين . ولكننا نخطيء اذا قلنا ان اغبرار خواطر النصارى هو السبب الوحيد فى استفادة الروس اذ ان فقدان الانتظام في ادارة أمور دولتنا والثورات الكثيرة التي يتوالى وقوعها داخل بلادنا منذ قرون عديدة لاكبر داع الى قضاء لبانة الروس منا فقد نظرت الروس الى أحوالنا هذه نظرة خبير مقتدر وشخصت أسباب هذا الداء كما يشخص الطبيب مرض عليله . ولنراجع ماضي التاريخ كي نوضح هذه النقط التاريخية تمام الايضاح :

قلنا قبلاً ان أول حجر وضع لبناء سياسة الروس تجاه الدولة العثمانية هو الحجر الذي وضعه بطرس الاكبر وكان أساساً لهذه السياسة ولو دققنا قليلاً لوجدنا بين أسطر وصيته هذه الجملة الذي أجملناها قبلا وهي قوله : ان المال اكبر واسطة لاستمالة الوزراء العثمانيين نحو الروس ولا بد للسعي ان أمكن وراء استمالة اهل السراي حتى السلطان ذاته بهذه الواسطة وهذا القول الذي قاله هذا القيصر المشهور في حق دولتنا كما قالت كاترينا لاحد وزرائها البرنس « رپنين » في جواب أرسلته اليه

وهي القيصرة التي حاربتنا مرتين واكرهتنا على امضاء معاهدة قاينارجه . قالت « اني آسفة جداً على وفاة السلطان مصطفى الثالث حيث كان جاهلاً وبجهله خدمنا كثيراً حتى ان نفسي تحدثني بان أدعي لاستراحة روحه في جميع كنائس الروس . وهذا الجواب كانت أرسلته اثناء المحاربة الاولى .

أما في اثناء المحاربة الثانية بينما كانت تبحث عن مواد متعددة في جواب ارسلته لسفيرها في الاستانة اذ غيرت الموضوع بغتة وقالت نسيت ان أسألك عن شيء وهو انهم يشيعون عن السلطان الجديد (سليم الثالث) اشاعات كثيرة سواء كان في اوروبا او هنا . يقولون ان هذا السلطان يحب الاصلاح ويريد ان يفعل في ملكه ما فعل بطرس الاكبر فى بلاده من جلب المعلمين الاجانب وتنظيم شؤن الملك فاذا صح ما يقال فاني أؤكد عليكم ان لا تتركوا واسطة الا وتتخذونها لتهييج الترك ضد هذه الاصلاحات واقامة العقبات في وجه السلطان حتى لا يتم له ما يبتغيه والا فاذا تحصل على آماله فهي ستكون الضربة القاضية على الروس وعلى تصوراتهم فى حق هذه الدولة وان كل ما فعلناه للآن ضد هذه الدولة سيذهب ادراج الرياح بلا محالة انتظر منكم

الجواب السريع بهذا الخصوص .

وهذان الجوابان يدلاننا تماماً على سوء قصد الروس عدوتنا الازلية فالروس قد استفادت كثيراً من جهل ملتنا . واختلال ادارتنا ، وفساد طباع أهل سراي سلطاننا ، ومسكنتنا وسفاهتنا ، وشنايعنا . ومساوئنا . واكبر خوفهم من ترقي افكار العثمانيين ووصولهم بالعلوم والمعارف الى درجة يمكنهم معها الوقوف على اغراضهم ولم تغب هذه النقطة عن افكار ساسة الروس فاجتهدوا اجتهاداً كبيراً في عدم ادخال الاصلاحات الى البلاد العثمانية وعاكسوها بما أمكنهم من الوسائل

حتى ان اتخاذهم مفاتيح كنائس القدس الشريف حجة واعلانهم الحرب علينا منذ خمس وأربعين سنة لم يكن الا نتيجة الخوف الذي خالج قلوبهم مما وصلت وستصل اليه الدولة العثمانية من الترقي بعد الواقعة الخيرية بواسطة الرجال الصادقين للدين والدولة وقناعة الروس قناعة تامة بحصول الاصلاحات داخل البلاد العثمانية فسعوا جهدهم لمحو الدولة العثمانية من دفتر الوجود وساروا على الطريق الذي سار عليها بطرس الاكبر . ومن اكبر الدواعي لاشتداد فكر امحاء الدولة عندهم هو ازدياد نفوذ

الدولة بين المسلمين مع انتشار نفوذ الخلافة الاسلامية فى جميع انحاء العالم وتعلق الاسلام والمسلمين وتمسكهم بسدة الخلافة العثمانية حيث ان الروس اكثر الدول الغربية علاقة مع المسلمين وعلى الاخص في المحاربات وهم يعلمون مقدار تأثير الخلافة وما هى عليه من النفوذ الديني والسياسي حتى انهم جربوا هذا الامر واختبروا هذه الاحوال تماماً ولذا تراهم يجتنبون دائماً مس حقوق الخلافة الاسلامية ويرون وجوب الاستيلاء على الاستانة حتى لا يبقى للاسلام الذين هم تحت سلطتهم نقطة استناد ينظرون اليها ومن جملة الاسباب الداعيه لتعرضهم للشرق هو اعتقادهم انه اذا لم يكن البحر الاسود بحيرة روسيه فان أحوال بلاد الروس الاقتصاديه والتجارية تبقى عرضة للاخطار وان دولة الروس مهما تعاظم أمرها فان أهلها لا تنجو من العسر والضيق كما ان جنوب دولة الروس يبقى هدفاً لتعرض الاعداء ولا بد لدفع هذه المحاذير من الاستيلاء على الاستانة . فاذا دقق حضرات القراء في الامر تظهر لهم افكار الروس السيئة وما تكنه صدورهم للدولة العثمانية والمسلك الذي يعقبونه في الحال والذي سيعقبونه في الاستقبال حيال المسئلة الشرقيه .

وعلى كل حال فان عداوة الروس لنا ظاهرة للعيان لا تحتاج الى أدنى برهان ولكن مهما كان من مقاصد الروس الظاهرة أو المستترة فان بعض الدول الاوروبية ترى هذه السياسة منافية لمنافعها ومقاصدها الذاتية مهما بلغ من عداوتها لنا . ولو ان كل واحدة من هذه الدول لا تقوى وحدها على محاربة الروس ولكن اتفاق دولتان او اكثر عليها كافٍ لرد مطامعها الاشعبية . حتى ان اكثر الدول الغربية اتبعت هذه السياسة الاخيرة ضد الروس وتغيرت بتغير الزمان فلم تتخل احداهم عن حماية دولتنا من مخالب الروس الا وحمتها دولة أخرى .

وأول من قاوم مطامع الروس في المسئلة الشرقية هي فرنسا حين حملت كاترينا حملتها المشهورة على الدولة العثمانية في العصر السابق فحاربتها فرنسا أولا بالاتفاق مع النمسا ثم وحدها فردت الروس على أعقابهم وخلصتنا من أيدي استيلائهم بعد ان تحملت خسائر كبيرة وقد ظهرت خدمة الفرنساويين لنا وعلى الاخص فى بدء القرن التاسع عشر حين كانت فرنسا محور الدنيا وكان نابوليون الاول قابضاً على زمام الامور فيها فحارب الروس مراراً عديدة وتركها ولا قدرة لها على تحريك ساكنٍ

في المسألة الشرقية بعد ان قلب عاليها سافلها . فبقيت على هذا الحال خمسة عشر عاماً في شغل دائم عن المسألة الشرقية وتركتها مدة طويلة ولكن تركها لم يكن الا اضطراراً وامرٌ موقت حيث ان الروس تعتبر المسألة الشرقية من المسائل الحيوية وهي تأمل دائماً حلها حلاً يوافق منفعتها الذاتية

حتى انها لم تستريح من متاعب الحروب الاولية الا وأعلنت علينا المحاربة التي انجلت عن معاهدة ادرنه . وفي هذه المحاربة خدمت فرنسا والنمسا أيضاً دولتنا وحافظتا على تمام ملكيتها وتداخلت انكلتره أيضاً لمنفعتنا في هذه المسئلة بعد ان وقفت زمناً طويلاً على الحياد واخذت هذه المسئلة شكلاً خصوصياً بين الروس والانكليز ولم نخطئ اذا قلنا ان اختلاف هاتين الدولتين في هذه المسئلة صان مابقى من أملاكنا بعد تلك الضائعات الكثيره . ففي محاربة القريم لم تقف الروس امام قواة الدول الثلاث المتفقه (تركيا وفرنسا وانكلتره .) بل هزموا شر هزيمة وامضوا على معاهدة باريس الذي لم يرمثل أجحافها في حقوق أمة من الامم الغابره . فكان هذا الحال داعياً لتزعزع أركان تلك الدولة من

أميرها الى حقيرها تزعزعاً كاد ان يقوض اساسها . فبحثوا عن أسباب هذه المغلوبية بعد عقد الصلح فوجدوا اسباباً كثيرة في أمور داخليتهم فاهتموا باجراء اصلاحات جديه وصرفوا هممهم الى تلافي مافات والتهيؤ الى ماهو آت .

فاصلحوا مختل الامور وداووا معتلها في مدة عشرين سنة ونظموا جميع شعبات ادارة ملكهم وكان قيصر الروس حينئذٍ اسكندر الثانى رجلٌ عادل ومحب للاصلاح فلم تثن عزائمه كثرة العقبات التي اقامها اعدائه له في سبيل ما ابتغاه من الاصلاح وخلص اهالي بلاده البالغ عددهم خمسة وسبعون مليوناً من ذل الاسارة والاستبداد وشكل نظارات الحقانية والنافعه والصناعه والتجاره داخل البلاد ودأب وراء اصلاح ملكه ولم يترك بابا الاولجه لنيل مقاصده الشريفه وأسس مدارس الملكية والعسكرية من ابتدائية وعالية ووضع اساس « الاعتدال » التي لم يسبق له في قوانين الروس مثال حتى عهده وجدد بناء العسكرية على اساس متين واجتهد كثيراً في تعميم الفنون الحربية عند ضباطه والغى الامتيازات الممنوحة قبلاً للاغنياء من الاهالي واعلن المساواة بين افراد الرعية حتى احيا

بهذه الافعال ملكه ونظم ادارة الامور الداخلية أحسن تنظيم فاستجمعت الروس بعد هـذه الاصلاحات قواها وصوبت الى المسئلة الشرقية سهامها . فيستفاد من هذه الاحوال ان المسئلة الشرقيه هي جل آمال الروس منذ عهد بطرس الاكبر الى الآن

والمسئلة الشرقية هي الاستيلاء على الاستانة واتخاذها عاصمة ملكهم وضبط جميع البلاد العثمانية فرسخت هذه المسئلة فى اذهانهم حتي دخلت عندهم فى عداد المسائل المليه . وكلما ترقت معارفهم وتدربت على الفنون العسكرية الحديثة عساكرهم وتنورت عقول افرادهم ازدادت هذه المسئلة رسوخاً حتى في ذهن العوام منهم

ولكن عقلاء الروس الذين نشأوا سنة ١٨٤٠ افرغوا المسئلة في قالب أبسط من الاول اذ شكلو جمعية تدعى عندهم بجمعية« پان اسلاويزم » وهذه الجمعية لم تترك المسئلة الشرقية على حالها القديم بل فكرت في جمع شتات السلافيين وجعلهم جميعاً تحت سلطة الروس فسعت فى تعميم الادبيات الروسية بينهم حتى يسهل استمالة قلوبهم نحوها كما سعت لتخليص السلافيين الذين تربطهم بها رابطة الدين والجنسية كالبلغار

والصرب والبوسنه والهرسك والجبل الاسود من حكم الاتراك

ولكن الروس لم تتمادى فى زمن القيصر نقولا في تشويق السلافيين على شق عصا الطاعة حذر الوقوع في مشكلات خارجية ولكنها تحققت بعد محاربة القريم استحالة وقوع ما كانت تخشاه وحصولها بالهين اللين على مقصدها بواسطة هذه الجمعية فامطرت عليها من الاموال مطراً غزيراً حتى اذا ما صار لديها كثيرٌ من المال والرجال باشرت في وضع أساس الاعمال وأسست جمعية أخرى في موسكو وفرقت رجالها خفية وجهاراً داخل البلاد العثمانية وما جاورها من الايالات الممتازة فكانوا يرسلون أطفال السلافيين وبعض من الرعايا العثمانيين الى بلاد الروس على نفقتهم ويعلمونهم في مدارس هذه الجمعية حتى اذا تعلموا ما يلزم لهم من العلوم لبث هذه الروح الخبيثة عادوا الى بلادهم ولدى عودتهم يؤسسون المدارس وينشرون أفكار هذه الجمعية بين الاهالي فانتشرت أعضاء هذه الجمعية في جميع بلاد البلقان وكانوا يبشرون الاهالي بقرب انقاذهم من حكم الترك ويفهمونهم ان الجمعية وحكومة الروس ساعيان جهدهما لخلاصهم وان لا بد لهم من تدارك السلاح لشق

عصا الطاعة عند اللزوم وكانوا يعاونونهم ويسهلون لهم السبل في تدارك الذخائر الحربيـة حتى أصبحت جميع نصارى البلقان تحت أمر هذه الجمعية تنتظر أقل اشارة منها لتقيم معالم الثورة فى جميع الانحاء . ولهذه الجمعية جرائد كبيرة مهمة وادارة مكملة ، وبريد منتظم في موسكو .

ولو ان هـذه الجمعية مستقلة في أمورها ولكنها كانت تستشير الحكومة عند اللزوم وتعمل باوامرها فالتحق بها كثير من كبار موظفي الحكومة الروسية وكان رؤساءها الظاهرة قاتقوف واقساقوف وچرنايف قوماندان عموم محاربة الصرب وكان اغناتيف سفير الروس في الاستانة من أعضائها وان لم يكن ظاهراً بل كان الركن الاقوى بين اركانها . وهذه اجمال أحوال الدولة الروسية في اواخر سلطنة عبد العزيز بينما كانت الدولة على ما قدمنا قبلاً من العجز والتقصير . وكانت هذه الاحوال المتناقضة تدل دلالة واضحة على قرب حصول محاربة أشد هولاً من محاربة القريم وأوخم عاقبة منها .

﴿ سوء الادارة في أواخر عهد السلطان عبد العزيز ﴾

آل عثمان — بعض الملاحظات على تربية أولاد الاسرة المالكة — مقام الصدارة في اواخر عهد السلطان عبد العزيز — صدارة محمود نديم باشا — صدارة مدحت باشا — حسين عوني باشا وخدماته للعسكرية — احوال المالية

ألمعنا قبلاً ان عالي باشا توفى سنة ١٢٨٠ هجرية ويعد هذا التاريخ دوراً مهماً في عهد السلطان عبد العزيز حتى ان ظهور الحركات المغايرة من السلطان في هذا العهد كانت السبب الوحيد في وقوع فاجعة لم يرَ لها مثيل بين وقائع التاريخ العثماني من عهد بعيد وتذكير الامة بحوادث نسخت من أذهانها وسنفصل هذه الفاجعة تفصيلاً في فصل مخصوص ولكن لا بد لنا من الاتيان على سبب هذه الفاجعة ونشأتها كما انه لا بد لنا من ذكر كلمة عن تربية أولاد الاسرة الملوكية .

فنقول : ان أولاد الملوك يلقنهم الاساتذة والمعلمون منذ صغرهم انهم سيصيرون ملوكاً في المستقبل وعلى زعمهم ان الرعية التي يربو عددها على الملايين تسير تبع ارادتهم وطوع اشارتهم فلهم الامر في طرد من لا يريدون وتقريب من يحبون

وان الله خلق هذا الشعب عبيداً لهم . وبمثل هذه الخرافات وسواها كانوا يحشون عقول أبناء السلاطين فزادت انانيتهم وهو داء مضيع للبلاد وأصبحوا ولا يخطر لهم على بال انهم انما خلقوا عبيداً أمناء على الملة وانهم منتخبون من هذه الامة وللافراد الحق في تولية من يريدون منهم وحرمان من لا يريدون

وكان اكثر الجميع تقرباً في هذا العصر من سلاطين آل عثمان أصحاب المحسوبية عليهم ومن عرفوهم أيام شبيبتهم من الخدم وبعض العبيد الذين هم وحدهم أقاربهم من جهة أمهاتهم حتى ان الرجال الاكثر خدمة للدولة العثمانية ذهبوا ضحايا أغراض هؤلاء الزعانف وضف الى هذا كله ان اكثر الكل تضرراً من احوال الملوك المعروفة هي شعبات ادارة الدولة ومقام الصدارة

لان رجالها كانوا اقرب الكل اختلاطاً بحكم الظروف السياسية والادارية مع السراي الملوكية

ولو ان ارزاء السراي الملوكية الآنفة البيان كانت ظاهرة تأثيراتها الوخيمة في اوائل سلطنة عبد العزيز ولكن هذا الضرر زاد زيادة لم ير لها مثيل في التاريخ لذاك الحين

وفي سنة ١٢٨٨ تولى الصدارة بعد وفاة عالي پاشا محمود نديم باشا المشهور ثم عزل بعد احد عشر شهراً وتولى الصدارة بعده مدحت پاشا وبعد واحد وثمانين يوماً عزل المشار اليه واستلم رشدي پاشا زمام الامور

ولكن ما عتم ان عزل بعد سبعة عشر يوماً وتولى اسعد پاشا مهام الامور فلم يلبث ان عزل بعد واحد وستين يوماً من توليته وتربع في دستها شيرواني زاده رشدي پاشا وما مكث حتى عزل بعد بضعة ايام وخلفه حسين عوني پاشا الذي عزل بعد ايام فعقبه اسعد پاشا ثانياً فلم يلبث الا عشية او ضحاها حتى عزل وعين مكانه محمود نديم پاشا ثانياً وهكذا كان السلطان يقيم في كل يوم وزارة ويسقط أخرى كما يلبس ثوباً ويقلع آخر فتقلب على منصب الصدارة ثمانية او تسعة من كبار الرجال كل منهم مرة او مرتين في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات وشهر وايام معدودة . مع استحالة وقوع هذه الاحوال السيئة في دولة غير دولة بني عثمان

ولا خفاء ان وقوع هذه الامور في ادارة الدولة ناشيء كما قدمنا من سوء تدبير ملوكنا الذين يتعلمون من صغرهم كلمة

« انا ملك » والملك لي ومن يعارضني فيه ؟ وخرافات كثيرة كهذه لا تنطبق على احكام الشرع الشريف وهي بلا شك نتيجة تلك الاعتقادات الباطلة . فبينما كان مسند الصدارة لا يعهد الا لمن يكون قادراً على القيام بخدمات مهمة من اصحاب الحمية في ايام كانت انوار العظمة تنتشر من حول هلال دولتنا الى جميع اطراف الدنيا اذ ترى هـذا المنصب آل الآن الى عروس تتجلى لمن يكتسب رضاء السلطان و يتخذ الحيلة وسيلة الى الوصول اليها من الزعانف وليس بمستغرب ان هؤلاء الكبار لم يتحملوا اصحاب الاقتدار من الموظفين فكانوا يسعون جهدهم لابعادهم عن مراكزهم فتوفقوا لقضاء مآربهم في اكثر الاوقات .

نعم انه كان يوجد كعالي پاشا كثيرون من ذوي المكانة نشأوا في وظائف الدولة في أيام السلطان محمود ولكن كان يوجد حين وفاته من هم على شاكلته في الاقتدار السياسي والاداري ومن كانت لهم رغبة شديدة في اجراء الاصلاح في أمور الدولة والمقتدرون على اداء هـذه الوظيفة . ولكن هيهات . فان السلطان عبد العزيز لم يكن هنالك ولن يبغي اعطاء هذا المنصب

لاهله بل كان يبحث على رجل يوافق عقـله ويسعى في اخراج تصوراته من حيز القول الى حيز الفعل . وقد توصل الى ضالته المنشودة بتعيين محمود نديم پاشا صدراً أعظم . وكان هذا الپاشا ابن رجل نال اكبر منصب في خدمات الدولة ومما يؤثر عن هذا الصدر تداخله فى أمور الدولة منذ الصغر ولكنه كان قصـير النظر في العواقب وكانت أخلاقه وعاداته تدل على عدم أهليته لاصغر الوظائف والرتب . ولم يكن عنده من الحمية مقدار ذرة كما انه لم يفتكر بان يكون فطن الحرمة ورعاية أحـد بل كان بعكس ذلك لايفتكر الا في منفعته الذاتية ونيل رضا السلطان ولوكان من وراء ذلك خراب الدولة وضياع الاوطان . وخلاصة القول ان سياسته كانت مبنية على هـذا الاساس وكما انه كان يشوب سمعته شيء من الكدورة كان لايفتر ساعة عن تشويق السلطان الى سلوك هذا السبيل

وكذلك عرف بتتبعه لطريقـة الدراويش البكتاشيه في الميل الى معاشرة الخلان ومعاقرة بنت الحان . حتى ان مساوئ الامور التي حصلت في آخر عهد السلطان عبد العزيز ابتدأت مع تولى هذا الصدر مقام الصدارة العظمى .

وفي عهد صدارته تمت التنقيحات العموميه التي هي عبارة عن سلم يصعد عليه للتوصل الى غاياته فطرد من ادارة الدولة بحق وبغير حق جماً غفيراً كان طردهم لغايات شخصية في اكثر الاحوال. وكان بين من طردوا رجالٌ خدموا الدولة بالصدق والامانة مدة تزيد عن ثلاثين أو أربعين سنة و بينهم جماعة عاجزون عن بلوغ قوتهم بدون التوظف ولو ان نتيجة هذه التنقيحات كانت عائدة الى الخزينة بفائدة لما حق لنا ان نقول شيئاً ولكن نتيجة التنقيحات المالية أعطيت في الحال الى المتقربين من أهل السراي الذين تربو رواتبهم على الكثيرين من الموظفين. فكان مقدار ما زيد على رواتبهم يربو على رواتب أولئك الذين عزلوا بقصد التوفير

ومن جملة مساوئ صدارة محمود پاشا اعطاء امتياز سكة حديد الروملي (للبارون هرش) السري النمساوي الشهير بشروط مجحفة بحقوق الدولة كل الاجحاف و بصورة لم يسبق لها مثيل و بهذه الواسطة أخذ الصدر الاعظم وحشرات السراي وتوابعهم من الشركة الالوف المؤلفة من الدراهم بصفة رشوة ومهما كان عليه السلطان عبد العزيز من محبته لمحمود پاشا حيث

انه كان اطوع له من بنانه ولم يتعرض لتخطئة رأيه في أمر من الامور ولكن بغض الاهالي له وعدم ملاءمة الظروف اضطرت السلطان عبدالعزيز لعزله وتعيين مدحت باشا المشهور مكانه وهو تعيين لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً بعد ان بلغ السيل الربى

وكان مدحت باشا يبلغ حينئذ خمسين سنة وقد ترقى من أصغر وظيفة في الدولة الى أعلاها بجده واجتهاده وبلا التماس وترقى الى رتبة الوزراء فى أوائل عهد السلطان عبد العزيز . وكانت الاصلاحات التي اجراها في ولاية الطونه اثناء توليته عليها باعثة لاشتهاره ودليلاً كافياً على حسن اقتداره وقد أوضحنا قبلاً ان الروس لم يتركوا فرصة الا وانتهزوها ليستفيدوا من اختلال الاحوال فى داخلية الدولة العثمانية وكان لهم فى أغلب الاوقات الحظ الاوفر فى تحريك سواكن الفتن . فلما كان مدحت باشا والياً فى الروم ايلى كان الروس يزرعون بذور الشقاق بين العناصر المختلفة القاطنه هنالك وكانت على الاخص تشوق البلغار لشق عصا الطاعة كي تستثمر من هذا الحال رطباً جنياً وبعد ان حمل مدحت باشا علي عاتقه تلك الوظيفة المهمه

أظهر فى بادئ الامر للروس انه كمن سبقه من الولاة الاتراك لايبدي أقل حراك ولا يملك أدنى ادراك ولكنه كان فى ذاك الحين يبحث خفية عن منبع الفساد والذوات الذين لهم علاقة به

وقد ظفر بما أمل فأظهر مخبئات الامور بصورة لم يبق معها للروس أقل انكار وبعد ان حاكم جواسيس الروس وأرباب الفساد منهم محاكمة أصولية وعاقبهم عقاباً جعلهم عبرة لمن اعتبر انتقل الى اعضاء جمعية الفساد من البلغار فحاكمهم أيضاً محاكمة أصولية وشنق بعضهم على مرأى من قناصل الروس والدول الاخرى حتى ان جميع مطبوعات أوروپا رقصت عجباً وصفقت طرباً لجراءة هذا الرجل الغيور والبطل الجسور وقد ضرب الامن اطنابه فى جميع انحاء الولاية ببرهة قصيرة

ولما رأى الروس عجزهم عن اتمام امانيهم لوجود مدحت پاشا والياً على الطونه سعوا وراء عزله من هذه الولاية وتداخلوا مع السراي وبعد بذل الجهد توفقوا لعزل المشار اليه وبعد ايام عين مدحت پاشا والياً على بغداد وكانت أمور تلك الولاية حينذاك في اختباط لامزيد عليه ولكنه تمكن من اعادة نظامها

وقطع دابر الاشقياء منها في مدة قصيرة وادب قبائل العرب
النازلين فيها واجبرهم على الرضوخ والطاعة وأسس شركة بواخر
تسير فى نهر الفرات واوجد طرق التجارة فى هذه الولاية الخصبة
وخلاصة القول انه غير احوالها العمومية ورقاها من كل وجهة
وكان مدحت پاشا زهرة وزراء ذاك الزمان باقتداره الغريب
ولذا كان الكل ينتظر منه خدمات عظيمة للدولة والملة

ولا شك فى انه كان عارفاً هذه الجهة اكثر من الجميع
حتى كان يستنشق اخبار الاحوال الجارية فى عاصمة الملك بينما
كان والياً فى بغداد . ولم يطرق اذنه خبر وفاة عالي پاشا حتى
وضع نصب عينيه الذهاب الى الاستانة ولكن سبق السيف
العذل وعين محمود نديم پاشا صدراً أعظم . ولما كان مدحت
پاشا عالماً باحوال هذا الموظف متيقناً انه لو بقى مدة فى
منصب الصدارة لآلت أحوال الدولة الى مالا تحمد عقباه
فبذل كل همته فى عزل محمود نديم پاشا وبعد ان وزن الاحوال
العمومية جيداً قصد الاستانة بدون استئذان ولم يثنه عن عزمه
صدور الاوامر العالية برجوعه الى بغداد ولم يعبأ بها بل ظل
سائراً بعد ان ابدى اعتذاراً كبيراً وعند وصوله الاستانة ذهب

تواً الى المابين وفعل مافعل حتى عين فى منصب الصدارة بعد أحد عشر شهراً من وفاة عالي پاشا وهكذا صار مدحت پاشا صدراً أعظم ولكن ما الفائدة اذ لم تدم صدارته كثيراً اذ كان وزراء ذاك الزمان جميعهم يخافونه ويخشونه ويحسدونه على ماله من النفوذ والاقتدار ولذا كانوا يسعون جهدهم وراء اسقاطه من هذا المنصب ويشون به للمابين حتى تمكنوا من عزله بعد واحد وثمانين يوماً ولم يروا من الصواب ابقاءه فى الاستانة فابعدوه عنها ولكن لم تدم مدة هذا النفي كثيراً حتى عاد اليها ولم يكن من خلفه فى الصدارة كرشدي واسعد پاشا عديمي الاقتدار حتي انهم لومنحوا حرية التصرف فى الامور لخدموا الدولة والملة خدمات كبيرة ولكن لم يسع احدهم لاجراء شيء حتي كنت ترى الواحد منهم كما قدمنا يسقط من صدارته في اقل من لمح البصر بارادة تصدر من السراي حتي انه كثيراً ما كان النفي نصيبهم دون ان يجنوا ذنباً سوى انهم ارادوا خدمة الدولة واصلاح الملك وهكذا كانت تدور دائرة السيئآت فى الدولة ولم يقدر ان يفوه ببنت شفه

ولم يكن عدم اتمام شيء من أمور النافعة [1] في الدولة ناشئاً عن ندرة وجود المقتدرين او قلتهم بين الوزراء بل كان ناشئاً عن سوء تصرف أهل السراي والامر واضح للعيان لا يحتاج دليـلا ولا برهانا حتى ان اشغال حسين عوني پاشا لمقام السر عسكرية [2] فى اكثر الاوقات وتنظيمه للامور العسكرية اكبر دليل على ما قدمناه . اما حسين عوني پاشا فولد في اسپارطه وتعلم العلوم الشرعية والعربيـة فيها ودخل المدرسة الحربية في ابتداء تأسيسها وبعد دخوله فيها بسنوات قليلة تخرج منها حائزاً لرتبة يوزباشي من صنف الاركان حرب وهو في الثلاثين من عمره وعين في المعسكر الخاص . وترقى تدريجياً حتى نال بجده واجتهاده وفرط ذكائه رتبة المشيرية في زمن قليل وعنـد ظهور الاختلال في كريد سنة ١٨٦٥ عين المشار اليـه في معية السردار عمر پاشا اولا ثم استقل بالامر واظهر في تسكين الاختلال من ضروب الكفاءة ما اوصله

(١) النافعة كلمة تشمل مصلحة اصلاح الطرق ومد الخطوط الحديدية في بلاد الدولة العثمانية ولها نظارة مخصوصة تسمى بنظارة النافعة

(٢) نظارة الحربيه

الى رتبة ناظر الحربية . ولكنه نفي بعد وفاة عالي پاشا عقاباً على معارضته لاعمال صدارة محمود نديم فاتحد اهل السراى عليه لما لهم من العلائق مع هذا الصدر فنفوه الى اسپارطه ولم يمض زمن حتى عزل محمود نديم پاشا وتولى الصدارة اسعد پاشا ولعلمه بشدة الاحتياج الى حسين عوني پاشا اعاده الى الاستانة وادناه منه وعينه ناظراً للجهادية وبعد برهة قصيرة عين صدراً اعظم

ولكن لم يثبت زمناً طويلا حتى عزل منها كما عزل من نظارة الحربية بما استعمل سفير الروس « اغناتيف » من الوسائط المؤثرة ضد هذا الرجل الغيور اذ كان لهذا السفير على ادارة الدولة نفوذ كبير . فابعد عن الاستانة وعين والياً على بروسه وبعد زمن عين ناظراً للجهادية بعد ان رأوا شدة الاحتياج اليه ولنترك الآن تفصيل احوال عوني پاشا ونتكلم قليلا عما أتاه من الخدامات الجليلة في ادارة العسكرية العثمانية مدة تقلبه في مراتب الوزارة :

أول سعي سعته الحكومة من اصلاح الجندية هو اهتمامها بتحسين أحوال الطوبجية فجهزتها بمدافع كروب من الطراز

الاخير وانتقى لها أحسن الخيول واكثرها صبراً على تحمل عبئها الثقيل كما انتقوا لها أحسن الضباط علماً وأقدرهم عملا

وترقى صنف الاستحكام كما ترقت الطوبجية وأسست عدة مستشفيات في مراكز المعسكرات ولكن ظهور بعض النواقص فيها (كعدم وجود المستشفيات السيارة) نشأ عنها حصول مضرات متعددة اثناء حرب الروس الاخير وانتقى للبس العساكر أحسن لباس اذ استبدلت الجاكت القصير والپانطالون الواسع بستره وبانطالون ضيق حتى صار عسكرنا يشبهون عساكر أوروبا زياً . ومن اكبر اصلاحات هذا الزمان تسليح افراد العساكر ببنادق مارتين التي كانت أشهر سلاح في الدنيا والتي كانت تستعمل في ذاك العصر من معامل اميريكا . وتوفقوا أيضاً لتأسيس صندوق التقاعد العسكري بقصد اعانة ايتام وأرامل الضباط الذين يستشهدون في الوقائع ومن اعتل منهم أو عجز عن كسب قوته بعد ولم تكن هذه المحسنات التي ذكرناها الآن عبارة عن كل الخدامات التي أجراها بل انتقى من ضباط الجيش المقتدرين (ولا يعلم قيمة الشيء الا ذووه) كل من حباه الله بالذكاء المفرط ورقاهم أعلى المراتب وهكذا

أعطى القوس باريها وفتح طريق الترقي لذوي الاستحقاق حتى نشأ بين ضباطنا كثير من الرجال الذين يعرفون كيف يخدمون اوطانهم فابلوا فى محاربة الروس بلاء حسناً حتى انهم كانوا سبباً في انتصار عساكر الدولة على الاعداء في عدة مواقع فحافظت بها الدولة على مكانتها الملية والعسكرية . ومع هذا فان الاصلاح في قسم واحد من اقسام ادارة الدولة لا يفيد شيئاً مهما بلغت درجته بل كان لا يزيد من تعميمه في جميع دوائر الدولة وتنظيم أمور كل منهما وتعيين الطريق التي يجب ان يسار عليها وراء الاصلاح والا ذهبت كل هذه الاتعاب ادراج الرياح ولم تأت باقل ثمرة ونظارة البحرية العثمانية اكبر شاهد على صحة ما نقول.

فان وجد شيء اهتم به تمام الاهتمام في اواخر عهد السلطان عبد العزيز فهو اعلاء شأن البحرية وايصالها لدرجة تضاهي احسن قوة بحرية من الدرجة الثالثة في الاستعداد بين قوات الدول البحرية فكان مجموع ما عندنا من القوة البحرية خمساً وعشرين مدرعة بين كبيرة وصغيرة عدا ما كان عندنا من السفن النقالة الكثيرة العدد ، فكانت هذه القوة كافية لمقابلة دول كثيرة أخصها بحرية دولة الروس ولكن هذه القوة لا تفي بالغرض

المقصود طالما انها لم تبن على أساس متين وكانت محرومة من رجال اكفاء يديرون حركتها لان القوة البحرية مهما كانت عليه من كثرة العدد والعدد فما هي الا طيف زائل ان لم يكن لها من القوة الأدبية ما يضمن لها البقاء ودوام الارتقاء ولو صرف في سبيل تحصيل الفنون البحرية ما صرف على احد هذه الدوارع من المبالغ الجسيمة لكانت فوائدها اعم ونتائجها اهم ولابلت في محاربة الروس البلاء الحسن بدل ما كانت بمثابة ألعوبة .

أما المالية وما ادراك ما المالية ان هي الا صناديق خالية خاوية وقد قدمنا قبلا ان الاقتراضات قد ابتدأت منذ عهد السلطان عبد المجيد فوصلت في هذا العهد الديون الخارجية الى العشرة ملايين وكانت الديون الداخلية ايضاً بهذا المقدار فكان مجموع الاقتراضات يزيد يوماً عن يوم في ايام سلطنة السلطان عبد العزيز حتى انهم كانوا لا يفكرون في سد العجز ولا يرون واسطة لها احسن من الاقتراض حتى صار هذا العمل عندهم دواء لكل داء

وعند مطالعة الميزانية التي سنأتي بها يظهر صدق قولنا

باجلي بيان نحين وفاة السلطان عبد المجيد كان مجموع الديون ثلثمائة وخمسة وسبعين مليون فرنك وفوائدها خمسة عشر مليون فرنك وقسط الدين السنوي ثمانية ملايين فرنك وهذا هو جدول المبالغ التي اقترضت في عهد السلطان عبد العزيز

فرنك	تاريخ الاقتراض
٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠	١٢٧٩
١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠	١٢٨٠
٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠	١٢٨١
٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠	١٢٨٢
١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠	١٢٨٣
١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠	١٢٧٥
٥٥٥٫٦٠٠٫٠٠٠	١٢٨٦
٧٩٣٫٠٠٠٫٠٠٠	١٢٨٧
١٤٢٫٠٠٠٫٠٠٠	١٢٨٨
٢٧٨٫٢٠٠٫٠٠٠	١٢٨٩
٦٩٤٫٨٠٠٫٠٠٠	١٢٩٠
٤٫٥٧١٫٨٠٠٫٠٠٠	مجموع القروض في ظرف احدى عشر سنة

وهذا المجموع هو عبارة عن المقادير المقيدة في التعهدات
التي أعطتها الدولة العلية للاجانب وان لم تكن جميع ما اخذ
منهم . والسبب في ذلك هو انهم كانوا اذا اقترضوا عشرين
مليون جنيه ينزلون منه مبلغاً كبيراً بعد حساب كثير ولم يدخل
الخزينة منها الا نصف القيمة المأخوذة او ربعها . ومن هذا
يستفاد ان الدولة العلية لم تمر عليها سنة دون ان تقترض فيها
طول مدة سلطنة السلطان عبد العزيز وقد هال امر هذا
المجموع المتمولين من الاجانب فامتنعوا عن اعطاء الدولة ما تحتاجه
من الاموال بدون ضمانة يركنون اليها . ولما لم يبق اخيراً
شيء يعطى لهم كضمانة لسلب اموالهم وسدت ابواب الاقتراض
في وجه الدولة عمد اولياء الامور لايجاد وسائل الاقتراض
فتوفقوا اخيراً لحل هذه العقدة باقناع المتمولين انهم سينشئون
السكك الحديدية في جميع انحاء السلطنة وان الاموال ستنفق
عليها فظفروا اخيراً بما أملوا اذ خدع الاجانب بهذه الظواهر
وعقدوا مع الدولة عدة قروض أخرى . ولكن ذهبت هذه
الاموال كما ذهب غيرها هدراً ولم يظهر لها وجود ولا أثر
اللهم الا ما اشتروه من بنادق مارتين التي تصنع في أميركا فقد

ابتاعوا منها بضع مئات الوف ومدوا تسعين كيلو متراً من السكة الحديدية بين حيدر پاشا وازميد ولم يقصدوا منها الا ذر الرماد في اعين المتمولين من اجانب ووطنيين وقد اعلنت جرائد اوروپا هذه الحيلة ونادت بالويل والثبور حتى لم يبق للدولة اقل ثقة عند الاجانب وامتنع الكل عن اعطائها فاندثر اعتبارها ودخل في عداد اهل القبور ففي سنة ١٢٩١ ﻫ كانت ديون الدولة الخارجية تتراوح بين المايتين وخمسين مليون جنيه عثماني وكانت قيمة الاوراق المالية بهذا المقدار حتى كانت واردات خزينة الدولة تصرف على فوائد هذه الديون

وفي سنة ١٢٩٢ تولى سعيد پاشا منصب الصدارة وعقد مجلسا مخصوصاً للمشاورة في ما ستئول اليه عاقبة هذه الاحوال فلم ينتج من عقد هذا المجلس الا زيادة الاختلال في الامور ولكنهم اعلنوا بعدئذ عزمهم على دفع نصف قيمة الاوراق المالية والاقتراضات فاخفقوا سعياً وباتت خزينة الدولة على وشك الافلاس بعد ان رأوا ان ليس لهم عن الدفع مناص . هذا ملخص ما كانت عليه الدولة في اواخر سلطنة السلطان عبدالعزيز ولا بد من عطف النظر على الجهات

الاخرى كي لا يبقى شئ مختبأً تحت ستار الخفاء وسنفصل هذه الاحوال فيما بعد تفصيلاً .

ـ . السراي وسفارة الروس . ـ

الوزراء العثمانيون في دور الانحطاط — الجنرال اغناتيف سفير الروس — اختلاط محمود نديم باشا به — ميل السلطان عبدالعزيز لسياسة الروس — مسئلة تبديل الوراثة — بعض افكار السلطان بهذا الشان — علاقة الجنرال اغناتيف بمسئلة الوراثة — افساد الجنرال اغناتيف — كنائس الروم والبلغار . —

أول مايتوقف النظر عنده متحيراً وجود أمرين متناقضين في الطبقات العليا من ادارة الدولة في زمن كهذا توالت علينا نكباته واودت بحياتنا مصائبه وضرباته لسوء أعمال رجالنا وقلة تدبيرهم واختلافهم في الرأي فالامر الاول الجنوح الى اتباع رأي الانكليز والفرنساويين « الذين ثبت بالتوالي شدة ميلهم الينا وتخليصهم ملكنا من مخالب اعدائنا » والسير بنا في طريق اصلاح الملك وتنظيمه ونشر اعلام العدالة داخل اقاليمه.

والامر الثاني مغاير للاول تماماً اذ يقضي باتباع سياسة الروس بعدم ادخال الاصلاحات في البلاد العثمانية وحرمان اهليها

من نور العلوم والمعارف والاعتراف للروس بالسيادة « باطناً ان لم تكن ظاهراً » على دولة آل عثمان والاعتماد عليها عند مسيس الحاجة

ومن الجلي الواضح ان الاول يحي الدولة وينهض بها من حضيض الذل والهوان والثاني يحتم عليها بالتغافل عن اجراء الاصلاحات والتزام التكاسل والاستسلام للاعداء وقد ابتدأت هذه الافكار تظهر في أواخر سلطنة السلطان عبد العزيز فبعد الواقعة الخيرية بدأت منافع الملك تناقض منافع الملوك عندنا وابتعادهما عن بعضهما بالرغم عن رجوع هذه الفروع الى أصل واحد وقد أظهر كل من رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا الوزراء الصادقون ضرورة اصلاح الملك واتباع خطة الدول المتمدنة فيه وان لابد من تضحية مصالح الملوك مهما كانت درجتها واصروا على هذا الامر فأبى أهل السراى الا ان يستبدوا بادارة الملك حتى بعد الواقعة الخيرية التي كانت حداً فاصلاً بين زمان الاستبداد وزمان العدل والانصاف . وقد أخذ حب الكبر والعظمة والمباهاة والفخفخة بمجامع قلوب سلاطيننا حتى أصبحوا لايفكرون في المحافظة على ملك ورثوه عن اجدادهم وسفكت

عليه دماء عساكرهم وأفرغت في الاستيلاء عليه خزائن أموالهم كما لم يفكروا في مستقبل الدولة والملة واصلاح شأن الاسلام بل حصروا جل عنايتهم فى مقاومة الوزراء المقتدرين وممانعتهم عن تطبيق افكارهم الحسناء فكانوا يصبون عليهم العذاب الاليم صب الطبيب للاحماض على الجراثيم كي لاتنتقل العدوى وتعم البلوى . وقد صان هؤلاء الرجال أصحاب الهمم العالية حقوق الدولة مدة حياتهم حتى عجز الروس عن اظهار مقاصدهم لحيز الفعل ولكن ماالفائدة فلم تأفل شمس حياة هؤلاء الاعاظم الذين ارسلوا لحفظ الملك كملائكة موكلين بحفظه حتى أخذ فساد الروس مأخذه داخل الدولة فدسوا الدسائس واخذوا يداهمون بخيلهم ورجلهم بلادنا التي بقيت امامهم بلا صاحب ومن جهة أخرى لم يدخروا وسعاً في اتخاذ الوسائط المؤثرة لاستمالة الوزراء العثمانيين نحوهم فاظهروا براعتهم في هذا الوقت المناسب اذ كان لهم ميدان فسيح يجولون به جولة الاسد الغالب فاستمالوا محمود نديموف [١]

---

(١) يضاف الى آخر كل اسم من اسماء الروس حرفي (وف) فاذا كان اسمه حسن يكتب باللغة الروسيه (حسنوف) اونديم نديموف وقول حضرة المؤلف نديموف عبارة عن اظهاره شدة تمسك هذا الرجل بسياسة الروس

وشركاءه من أهل السراى بما بذلوه من الدراهم في هذا السبيل كما تزلفوا للسلطان وأشبعوا اذنيه الخائنتين باقوال ملؤها التملق والتزلف وهي التي امكن بها ان يستميلوه نحوهم وكلها تطرب آذان ذوي التيجان بسماعها كقولهم له:

ان هذا الملك حق سيف آل عثمان ، وحقوق الملوك مقدسة ، فصدور الخطأ منهما امر محال ، وما الرعايا الا خدم اراداتهم يطيعون ما يشيرون به ، هكذا الملوك والا فاصلاح الملك ونشر المعارف بين الاهالي لاينتج الا ادراك الاهالي معنى حقوقهم ولايلبث ان تظهر عواقبه الوخيمة ، ولايغرنكم سعي وزرائكم المشهورين ، كرشيد وفؤاد وعالي پاشا ، اذ لم يكن سعيهم الا للملة وليس لذاتكم فهؤلاء اتخذوا خدمتهم للوطن سلماً يتوصلون به الى اعلاء نفوذهم في الخارج والداخل ، وهو أمر يحط بقدر جلالتكم ، فلا يغيب عن ذاكرة جلالتكم ان الملوك لايقبلون شريكاً في ملكهم ، فاذا منعكم مانع عن اجراء ماتبتغونه فروسيا التي هي الصديق الحميم لآل عثمان تعد معاونتها لهم من اقدس الوظائف عندها -

وبهذه الاقوال تمكنوا من دس السم في الدسم للدولة

ونالوا ما يبتغونه من الآمال الدنيئة . اما تفصيل الاحوال :
فهي ان كل من الدول الكبرى كانت تدير أمور الدولة
كما تشتهي منذ أخذت دولتنا بالانحطاط أي منذ عقدت
معاهدة «قارلوفچه» فكانوا يفعلون ما يريدون بواسطة سفرائهم
المقيمين في الاستانة ولا رادّ لامرهم ولا من يناقشهم حساباً
او يرد لهم جواباً فالامر أمرهم والرأي رأيهم في كل مصيبة
ألمت بالدولة فكانت هذه الاحوال داعية لسقوط الدولة وكل
وزرائنا ينظرون اليها ولا يجسرون ان يفوهوا ببنت شفه .
فأخذ النفاق والفساد وسوء الاخلاق مأخذه من الدولة في هذا
الدور الاخير حتى عدت ولا تركبيراً ولا صغيراً أميراً ولا حقيراً
سلطاناً او وزيراً الا وقد جعل هذه السفاسف منتهى آماله
ومطمح انظاره مع ان كلاً من هذه الامور كان يكفي لاسقاط
أقوى دولة من قمة مجدها وتشتيت شمل اكبر أمة مهما عظم
شأنها فهذا الانحطاط الممتزج بفساد الاخلاق أنسى مأموري
الدولة حقوق وظائفهم فكانوا لا يفكرون في سوى منافعهم
الذاتية ولو كان من ورائها محو الدولة واضمحلالها الى ان وصل
الذل ودناءة النفس عندهم الى درجة انهم كانوا لا يستحون من

مد يدهم الى الاجانب وتناول الرشوة منهم اثناء معاملاتنا مع الدول الاجنبيه فكانوا يعدون بيع حقوق الدولة ومنافعها للاجانب على رؤوس الاشهاد من الامور العادية وبمثل هذه الاحوال أوقعوا الدولة في حفرة الذل والهوان ٠

ولو قلبت التاريخ العثماني من مبدأه الى منتهاه لما رأيت حرفاً واحداً مما كتبناه بل هو مأخوذ عن التقارير الرسمية التي حفظت عند الدول ذات العلائق الكبرى مع الدولة العثمانيـة وبعد ان بقيت زمناً طويلاً في عالم الخفاء والكتمان ٠ أظهرتها تلك الدول اذ لم ترَ من حفظها ادنى فائدة وهـذه الاوراق وحدها كافية لاثبات تلك الجرائم وكانت لروسيا مداخلة كبرى مع كل من عرف من رجال الدولة بسعيه في بيع حقوقها اذ كان لها من عهد بطرس الاكبر بين وزرائنا اصـدقاء واحباء مستترون تحت ذيل الخفاء وكان لهم عليها مرتبات معروفه واثبات هذا الامر لايحتاج الى كثير بحث وعناء حتى ان بطرس الاكبر أوصى رجاله باتباع هذه الخطة في وصيته المشهورة اذ لم يتخلص من تلك المحاصرة المشئومة التي حاصره بها « البالطهجي محمد باشا » على نهر ، البروت، الا بالاصفر الرنان بعد ان يئس

من النجاة بحد السنان ولا بد ان هـذه الواقعة كانت سبباً في توصية خلفائه باستعمال الدرهم عند الوزراء العثمانيين

وعليه جعل الروس اس سياستهم من ذاك الحين بذل الدرهم سواء كان فى الامور السياسيه او اثنا المحاربات ولنأتي لك ببرهان على صحة أقوالنا هذه وهو ان الروس انفسهم لا ينكرون انهم لم يستولوا على قلعـة « وارنه » فى محاربة ١٨٢٨ الا بقوة الدينار . وصفوة القول ان نفوذ الدول قد ازداد في الاستانة زيادة تذكر بعد الواقعة الخيرية بينما كانت احوال الدولة سائرة من رديء الى ارداء . ولكن الروس لم يكسبوا شيئاً من النفوذ داخل الدولة حتى اواخر سلطنة السلطان عبد العزيز حيث كان يشغل منصب الصدارة اذ ذاك رجال عرفوا آماني الروس ودخائلهم حق المعرفة كرشيد پاشا ، وعالي پاشا ، وفؤاد پاشا وهم رجال قل ان يأتي بمثلهم الزمان . رجال عرفوا كيف يخدمون اوطانهـم ويصونون حقوق دولتهم ولم يكونوا ممن يرتكبون جريمة بيـع الوطن لاعدائهـم بابخس الاثمان فحافظوا على ولاء الانكليز والفرنساويين الذين لاهم لهم الا بقاء دولتنا مشيدة الاركان وقد توصلوا بمحافظتهم على ولائهما لدفع غائلة محاربة القريم ولكن

من يطالع الاوراق السياسية لذلك الحين يرَ ان اللورد «رادقليف» سفير الانكليز كان يعامل الوزراء العثمانيين معاملة لاتقلّ عن معاملة السيد لخادمه بعد هذه المحاربة كما ازداد نفوذ فرنسا فى الاستانة ايضاً على عهد ناپوليون الثالث اذ كان عالي پاشا واسطة لازدياد هذا النفوذ ودام هذا الحال حتى سقوط ناپوليون المذكور

عين الجنرال اغناتيف سفيراً للروس فى الاستانة قبل وفاة عالي پاشا بعدة سنوات وكان المشار اليه سليلاً لاحدى العائلات الشهيرة وقد بلغ ابوه أعلى الرتب فى دولة الروس ورأس المجلس مراراً فتقلد «اغناتيف» وظائف سياسية مهمة وهو فى سن الشيبوبة لما عرف عنه من الذكاء المفرط . فكان قبل وفاة عالي پاشا باربع سنوات سفيراً للروس فى «پكين» [١] ثم عين سفيراً لها فى الاستانة وهو سياسي محنك لايختلف فى دربته اثنان كيف لاوهو الذي كان من اكبر العوامل على ترويج سياسة الروس فى الشرق الادنى وكان لايجتنب اتخاذ ادنى الوسائط فى سبيل الوصول لهذه الغاية ولكنه لم يجسر على اظهار ما يكنه

(١) عاصمة الصين

صدره من سوء النية وعالي پاشا قابض على زمام الامور فبقى
ساكناً لا يبدي اقل حراك ومع هـذا كان طول هـذه المدة
يتعقب أخبار الدولة والامعان فى أحوالها الداخلية وعلى الاخص
منها أحوال السراي فحكم بعد طول البحث والتنقيب على قرب
وقوع الدولة فى ارتباك كبير والذي أيد هذا الحكم عنده سوء
أحوال السلطان وعدم اهتمامه بالدولة والدين وقد تاكد السفير
ان انقياد السلطان لعالي پاشا وخوفه من تهديده له بعض
الاوقات هو اكبر رادع لجلالة السلطان عن اظهار مساويه وانه
لو قبض على دفة سياسة الدولة لسطا عليها سطوة تقل بجانبها
سطوة العدد ولمزق شملها كل ممزق فداء غاياته الدنيئة فلما توفى
عالي پاشا في سنة ١٢٨٨هـ وتولى محمود نديم باشا منصب الصدارة
كان السلطان كطفل تخلص من ربق نظارة أب شديد النفوذ
عليه فانقاد الى اهوائه الذميمة بكل قواه وحينئذ علم، اغناتيف،
اصابته كبد الصواب فى ماظنه بالسلطان وعلم ان الوقت لانتهاز
الفرصة قد حان

اما محمود نديم پاشا فهو رجل لا يجتنب ارتكاب اعظم
الرذائل التي لا يتـداني لارتكابها اخس الناس طينة وأدناهم

طبيعة ولو ان أعظم قاتل في الدنيا سيق الى احدى الامور التي
يرتكبها لما طاوعه ضميره على ارتكاب ادناها ولهان عليه الموت
دون اجراها فلم يكن عنده من حب الوطن مقدار ذرة ولذا
لم يتردد في تسليم امور الملك الى سفير دولة الروس التي هي ألد
الاعداء لنا مقابل منفعته الشخصية بدون ان يحس باقل عذاب
وجداني بعد ارتكابه جناية عظيمة كهذه حتى خيل للرائي ان
سفارة الروس هي الباب العالي أو نقل اليها

قلنا سابقاً ان جميع من تولوا الصدارة عندنا لم ينتهجوا
منهجاً خاصاً بل كان لكل منهم محبة الى سياسة احدى الدول
فبناء عليه لا يعد ميل محمود نديم پاشا من غرائب الامور
ولكن لم يرَ في جميع ادوار التاريخ العثماني رجل كنديم باشا جعل
نفسه أسيراً لدولة من الدول اذ كان هذا شاذاً بينهم فعدّ نفسه
مأموراً لحكومة الروس وأسيراً لسفيرها وحكومته حكومة
القيصر لاحكومة السلطان وهو أمر لا يمكن تصوره ولم يرَ
لهذه الخيانة مثيل عند وزير من الوزراء او دنيء من الادنياء
في أي زمانٍ كان . حتى كانت أمور الادارة الداخلية كعزل
المأمورين وتعيينهم برأي ،اغناتيف، فبلغ من مداخلة هذا السفير

انه كان يعزل من لا يريد ويعين من يريد وهي قوة لم يبلغ شأوها احد من السفراء حتى الآن .

ومن أرذل الرذائل ان السلطان كان لا يسمع في محمود نديم پاشا قولاً بالرغم عن بلوغ شكوى الاهالي منه عنان السماء ولا يخشى في حبه لومة لائم . فكان يعزله كلما ضجت الاهالي منه ولم يلبث حتى يعينه ثانياً في (السفارة) الصدارة بعد ان يسكن ضجيجهم . فهذه النقطة كافية لاثبات اشتراك السلطان معه في هذه الجنايات وهي ظاهرة ظهور الشمس في رائعة النهار بل هي الحقيقة بعينها فلولا اشتراك السلطان مع هذا اللئيم الغدار لما تمكن من اجراء جزء من هذه الخبائث مهما بلغت درجة خيانته ولما اقدم عليها والا نال العقاب الشديد قبل ان يتمكن من احداث احدى هذه الجرائم وضرب على يده بعصا من حديد . وكان اغناتيف قد خابر حكومته بعد وفاة عالي پاشا بلزوم المال ليصرف على ما يلزم اجراؤه في الاستانة اذا كان هناك ثمت من امر واجب الاجراء مظهراً لها لزوم فتح اعتماد غير محدود ليصرف الاموال جزافاً في هذا السبيل فنال بغيته

اما طريق استهلاكها فينحصر في استخدام عدد من الجواسيس واعطاء رواتب وهدايا كافية وافية لنديم پاشا ورضا پاشا ومن كان على شاكلتهم من الوزراء مقابل استيلائهم على البلاد العثمانية . واظهاره هذه الاسباب الداعية لصرفه الاموال تظهر لنا درجة تلاعب هؤلاء الخبثاء ومقدار دنائتهم التي سودوا بها صحائف التاريخ العثماني . والذي يخجل القلم عن كتابته ان هذا الوغد لوث معه سمعة ربة الصون والعفاف من نحترم ذكر اسمها ونجله بافعاله فكانت (والقلب ينفطر حزناً عند كتابة هذه الامور) تعرف غاية الروس من هذه الهدايا الثمينة والاموال الطائلة الذين كانوا يقدمونها لها بواسطة نديموف وتأخذها عن انشراح صدر وطيب خاطر . وهكذا استمال ، اغناتيف ، صاحبة النفوذ الاكبر في السراي لسياسة الروس بهذه الهدايا ولكن خدمة مادام ، اغناتيف ، في هذه التوفيقات كبيرة حتى ان علائق هذه السيدة معها زادت زيادة عظيمة [١]

---

(١) وهو الامر الذي نوه به حضرة المؤلف في مقدمته من عدم وجود معلومات رسمية في اسفار التاريخ العثماني يستعان بها على تدوين هذه الواقعة تدوينا خاليا عن كل غلط وشطط ولا نخطئ اذا

وكان السلطان عبد العزيز حريصاً على سرير الملك حرصه على حياته فأراد أن يبدل أصول الوراثة ليجعل نجله ، يوسف عز الدين، خلفاً له ووارثاً لسرير آل عثمان ولم تكن توليته لمحمود نديم باشا منصب الصدارة مراراً عديدة الا لثقته به وعلمه علم اليقين اجتهاد المذكور معه في اتمام هذه الامنية وموافقته لرأيه كل الموافقة : ولما كانت مسئلة الوراثة مسئلة خطيرة وجب علينا ان نعلق عليها بعض ملاحظاتنا :

قلنا انها السبب الوحيد في بقاء التقارير التي رفعتها سفراء الدول في الاستانة الى حكوماتهم محفوظة طي الخفاء وعدم ظهورها يورث المؤرخ كثيراً من التعب والعناء فالدسائس التي دسها اغناتيف في بلاد الروم ايلي والاستانة ونجمت عنها محاربة الروس مع الدولة العلية وانجلت عن معاهدة برلين بعد ان مزقت الدول معاهدة (سان استفانو) اغاظت الروس وكدرت كأس صفوهم بعد ان جعلت انتصارهم في خبر كان. فكانوا ساخطين على من كان سبباً في هذه المحاربة وانزلوا عليه اللعنات كالوابل الهطال وكان اغناتيف اكثر الكل هدفاً لسهام تنديد قومه فباء بغضب منهم حتى أصبح لايقدر على مقابلة اقل فرد من ابناء جنسه فشنعت عليه أعداؤه وتمادوا في اتهامه بسرقة الاموال الطائلة التي خصصت للوزراء العثمانيين قصد استمالتهم واتخذوا سوء المنقلب هذا دليلا على خيانته ففرغت جعبة صبره « ينسب اغناتيف لعائلة روسية من اغنى عائلات الروس » فطلب من القيصر اسكندر

منبعث هذا الفكر جماعة الحريم فسعين جهدهن في اخراجه الى حيز الفعل من زمن عالي پاشا ولكن عالي پاشا وبعض الوزراء أبوا على السلطان ان يكونوا آله لتنفيذ مآربه اما السلطان فكانت مسئلة الوراثة عنده من اقصى الآمال وزد على ذلك انه كان يكاد ان يطير فرحاً كلما تفوه محمود نديم پاشا بكلمة تؤيد افكاره او اشار إشارة تدل على استحسانه وكان محمود نديم پاشا لايتردد في الاباحة بافكاره للسلطان مظهراً له سهولة حل

راجياً محاكمته ولكن القيصر أبى ان يحاكمه لاسباب خفية ولكنه ابى الا ان يبرئ ذمته امام الرأى العام الروسي فكتب مقالة بالروسية طارت شهرتها وان لم تطبع ولكن نسخت منها عدة نسخ ووزعت خفية على المراكز اللازمة اما هذا العاجز لم يرى هذه الرسالة بعينه بل سمعها من بعض الذين قرأوها ولذا فاني لا اكتبها. لانني آليت على نفسي ان لا اكتب الا ما رأيته او قرأته ومع هذا فانهم يقولون والعهدة على من قال ان حكومة الروس خصصت لسفارتها في الاستانة مليوني. روبله، اي مائتي الف جنيه في كل سنة وان ما كان يأخذه محمود نديم پاشا وعائلته سنوياً من نقود وهدايا « من فرى وخيول روسية » تربو قيمته على العشرة آلاف جنيه وكان بعض الذوات يأخذون اموالا وهدايا ولكن معظم الاموال كان يصرف على محلات اخرى «مسكين عبدالعزيز تجري المياه تحته ولا يحس بها ولا يعلم ما يدس له الاعداء من الدسائس حتى في بيته وهو الامر لذي نثق بصحته بين سطور هذه الاوراق.

هذه المسئلة واتخذ ترويجه مقاصد السلطان ومطامعه ذريعة
للتامين على منافعه والمحافظة على منصبه مع انه من اعلم الناس
باستياء الوزراء وجميع الاهالي من هذه المسئلة استياءً عظيماً
يدعو الى حصول مالا تحمد عقباه ولكنه اكتسب من السلطان
محبة « بترويجه هذا الفكر » لا تقاس بمحبة الوالد للولد ولم
يكن من ذوي الفكر الرزين اومن الرجال الذين يخلصون الحب
لسلطانهم حتى يطلع السلطان على استياء الملة وسوء مغبة هذه
الفعال اذ خلق لئيم الطبع لا يفكر الا بما تأتيه من ورائه طائل
الاموال . فاجتمع السلطان بوزيره وتشاوروا في الامر وبعد
مذاكرات طويلة وجدوا ان لابد لحل المسئلة من الاتكال على
احد سفراء الدول العظمى ولما فتشوا في دفتر اسماء السفراء
فوقع نظرهم على، اغناتيف ، سفير الروس وقرروا فيما بينهم أن
يكون رابطة عقدهم في حل هذه المسئلة . فابلغ النديم هذا
القرار لاغناتيف فما طرق آذانه حتى كاد ان يطير فرحا فقبله
بكل سرور وارتياح ووعد النديم بانه سيجتهد معهم بكل قواه
وامنه على حصول الامر الذي يتعلق الخليفة به ويهواه والحقيقة
التي لاريب فيها هي ان سفير الروس وجد له ميداناً واسعاً

لتنفيذ مآربه بواسطة افكار السلطان اذ يعلم هذا السفير المحنك
ان السلطان لا يرى بقصده هذا من الاهالي سوى معارضة ملؤها
الذل والهوان وان أي ساعة ينزع فيها لاظهار فكره يحدث
بين الملة الاسلامية داخل الدولة ثورة عظيمة يرجع منها الروس
ظافرين باشهر غنيمه فينالون من هذه الثوره مايبتغونه من الاماني
والامال بدون حرب ولا جدال او ترميل نساء وتيتيم اطفال .

وهكذا تم الاتفاق بين كل من السلطان عبد العزيز
ومحمود نديم باشا ، والجنرال اغناتيف على ان تحل هذه المسئلة
حلاً يوافق اغراض الجميع وابتداؤا مجدين مجتهدين ولكن لم
ينتج اجتهادهم مدة الخمس سنوات المتوالية سوى زيادة المشاكل
بدلاً من حل المسئلة التي كانت لهم اعظم شاغل . وكلما طال
بهم الزمان كشف ستارهم وازداد الهيجان والتحفت هذه المسئلة
التي هي اشهى من العسل على قلب السلطان بلحاف الاستحالة
ودخلت في خبر كان . وكان من اكبر الموانع واولها ماجبل عليه
السلطان عبد العزيز من الجبن والثاني شيوع هذا الخبر بين أصحاب
الحمية من الوكلاء وبين الاهالي فابتدأت تتداول بادئ بدء على
ألسنة الخلق من خواص وعوام في المجتمعات الخصوصيه ولكنهم

جاهروا في شكاياتهم مع مرور الايام اما السلطان عبدالعزيز فقد عمل بوصية «اغناتيف» في اتخاذه بعض التدابير رغماً عن جميع هـذه الموانع فمنح خديوي مصر اسماعيل باشا فرماناً تنتقل بموجبه الخديوية الى اكبر الانجال كي يعتاد الاهالي على هذا الحال بعد ان اعتادوا انتقالها الى الارشد فالارشد من الاسرة الخديوية ورقى ابنه «يوسف عزالدين افندي» سريعاً حتى أوصله الى رتبة المشيرية ونصبه قائداً على المعسكر الخاص وهو في العشرين ربيعاً من عمره تذرعاً لاستمالة قلوب الاهالي وعلى الاخص العساكر نحوه ومن جهة أخرى أوصى نجله يوسف عزالدين افندي بأن يبذل الاموال على ضباط العسكرية وامرائها ليتمكن من ارضائها وجلب محبتها له.

وبعد ان أمضى بضع سنوات في هذه التدابير وجه نظره لاظهار ما يكنه صدره حتى كان كلما صمم على اعلان قصده يعود فيرتدع عن غيه ثانياً بعد أن يرى تلك الموانع الكثيرة والمانع لاعلانه هو الجبن الذي فطر عليه مع انه كان ينوي اعلان قصده يوم عيد الجلوس او الميلاد . واكبر مانع له هو معارضة سفير الانكليز الذي كان وقتئذ يعضد ولي عهد السلطان مراد أشد

المعارضة وضف الى ذلك امتناع شيخ الاسلام عن اعطاء فتوى
في هذا الشأن ومن جهة أخرى ازدياد القيل والقال بين الاهالي
وشدة الانفعال الذي حصل عندهم ، وقد نشر بعض أرباب
القلب والقلم مقالات في الجرائد حرضوا فيها الاهالي على عدم
موافقة السلطان على هذا الامر كما حرضوهم على التزام طرف
السلطان مراد، كي لا تخرب من جراء افعال عبد العزيز البلاد.
فلما رأى السلطان ان لا ثمرة ترتجي بعد كل هذه التدابير التي
كان يأمل منها حل المسئلة حلاً يوافق قصده عمد الى حيلة
أخرى فحاول اقناع السلطان مراد على التنازل عن سلطنته فنصحه
كثيراً ثم زاد لديه بكاءً وعويلاً فلم يرَ منه جواباً سوى السلب
وعدم الاطاعة فلما فرغت جعبة صبره واعيته الحيل عمد الى
اتباع رأي اغناتيف سفير الروس مفضلاً قبول تلك الجناية
العظمى على رجوعه عن قصده خائباً وهو اعلان انتقال ولاية
العهد لنجله يوسف عز الدين افندي قبل الاهالي أو لم يقبلوا
وانه اذا رأى معارضة اومقاومة من الوزراء اوالعساكر استدعى
أربعين الف عسكري من عساكر الروس الى الاستانة واكره
الاهالي على قبول نجله ولياً للعهد. اذ كان اغناتيف سفير الروس

وعده باستحضار أربعين الفاً من أودهسا في خلال أربع وعشرين ساعة وانهم على قدم الاهبة ينتظرون اشارة جلالة السلطان فيظهر من هذا التدبير الذي قبله كل من السلطان ووزيره بطيب خاطر وانشراح صدر ما تكن صدورهم من الخيانة للدين والدولة حيال منافعهم وما هم عليه من الدنائة التي قل ان يأتي مثلها قطاع الطريق ومع علم هذا الصدر الاعظم الخائن عدم امكان حصول هذا التدبير واستحالته هان عليه فداء سلطانه في سبيل منافعه الشخصية فكان لا يجتنب ايقاع السلطان والوطن في هاوية السقوط والاضمحلال كي لا يعتريه داء سكوت المنفعة الذاتية بل كان يشوق السلطان لطلب الاربعين الف عسكري الروسي ويزين له سهولة الحصول على مآربه بواسطتهم اذ كان السلطان حينئذ لم يفكر في عواقب المهالك الموجودة واصر على عناده اصراراً يشبه الجنون . اما اغناتيف فقد لعب بالسلطان ووزيره لعبة الاولاد بالاكر ولم يدّخر وسعاً في تحسين لعبته فاتخذ هذه الفرصة السانحة واسطة لقضاء وطر (دولته من ملك بني عثمان)

فكان يجتمع السلطان ووزيره عند اول اشارة من السفير

ويفترقان حسب ارادته وهكذا كان السفير لا يألوا جهداً في ترتيب
فصل لعب السلطان ووزيره مع الامة العثمانية ليجمع من وراء هذا
الفصل المضحك لدولته، نقوط المتفرجين . ولم يشتغل اغناتيف
بمسئلة الوراثة وحدها اذ كان غاية ماترمى اليه الروس تمزيق شمل
الدولة العثمانية واضمحلالها حتى لا تقوم لها قائمة. فبعد ان دس
للدولة السم في الدسم وبعد ان كان يوجد في كل ساعة الف
وسيلة ووسيلة للسلطان ووزيره لحل هذه المسئلة اجتهد فى
نزع سلطة بطريك الروم الروحانية عن البلغار وتوصل الى
تصديق الباب العالي على نزعها وتشييد كنيسة خاصة بالبلغار
ونصب رئيساً روحانياً لهم حتى توفق بعد قليل من ايقاد نار
الثورة فى تركية أوروپا وايقاع الدولة فى مشاكل كبيرة اذ قد
ثبتت مؤخراً ان كنائس البلغار لم تشيد الا لتكون مأوى الثوار
والجمعية السلافية ولو ان خيانة البغار للدولة العثمانية وصداقتها
للروس ليست من الامور التي يصعب فهمها ولكنهم لم يقدروا
قبلا على فعل ما فعلوا من ادخال الثوار داخل كنائس الروم
الذين هم اصدق الطوائف للدولة العثمانية واشاع اغناتيف
حينذاك شدة افتقار خزينة الدولة في اوروپا وأراد اثبات

دعواه في عدم كفاية واردات الخزينة لفوائد الديون واثبات افلاسها فهيج افكار الدائنين الاجانب والرأي العام في اوروپا على الاتراك واقنع بذلك الاجانب الغير الواقفين على احوال الشرق بما أتى لهم من البنيان وهكذا امضى اغناتيف مدة سفارته فى الاستانة في تحريك سواكن الفتن على الدولة بعد ان وزن الاحوال العمومية والخصوصية فيها فسهل سبل الانتصار لدولته على الترك فى المحاربة القابلة (محاربة الروس والترك) فهكذا تكون الرجال الصادقون لدولتهم واوطانهم والا فلا

ترقي الافكار في الممالك المحروسة

تأثير الواقعة الخيرية على المعارف والادبيات العثمانية — تأسيس المدارس المتنوعة — اول جريدة انشئت في البلاد العثمانية — تزايد وتكاثر المطابع — وضع نظامنامة المطبوعات — تأثير النظامنامة على المطبوعات — مصطفى فاضل باشا وأول الاحرار العثمانيين في باريس — عودة الاحرار لبلاد الدولة العلية — ضيا باشا — نامق كمال بك — علي سعاوي افندي والذوات الآخرون .

هذه هي أيها القارئ الكريم مساوئ اواخر سلطنة السلطان عبدالعزيز التي كانت في أعلا طبقات ادارة الملك ولكن لا بد لنا من تعريف أحوال الاهالي وعلى الاخص المتنورين منهم واي مركز أخذوه حيال هذه السيئات حتى لا يفوت القارئ فصل من فصول هذا الدور المحزن ولكي يتصوره كما يره

لا يخفى على كل من طالع اسفار التاريخ العثماني ان الواقعة الخيرية كانت أعظم مؤثر على أحوال الدولة العثمانية ولو درسناها من أي وجهة لرأيناها بلا شك اكبر عامل على تنظيم المعيشة العمومية وتوسيع معلومات قسم من أهالي الممالك المحروسة ووضع اساس المعارف والادبيات العثمانية من جديد ولو تأملنا بعد حدوث هذه الواقعة لرأينا بين رجالنا ووزرائنا قوما « ولو

انهم قليلون » يقدرون مركزهم حق قدره ويقومون بواجباتهم خير قيام ولهم من الخبرة في أمور الدولة والاطلاع على الترقيات العصرية ما يكفي لاحتياجاتنا ولوجدنا بين شعرائنا وكتابنا رجالاً بلغوا أعلا درجة من الترقي في الادبيات الغربية عدا الادبيات الشرقية وتفننوا في أساليب الكتابة وتعلموا الفنون الحديثة التي هي اساس الادبيات. ومع هذا فان الترقيات الادبية عندنا سارت سيراً بطيئاً بالنسبة الى اليابان مثلا والسبب في ذلك هو ميل اهل سلطاننا منذ القديم الى الشر اكثر من الخير مع عدم مبالاة الذين يشغلون أعلا طبقات الوظائف في ادارة الدولة العثمانية بهذا الامر وبالحري عدم تقديرهم هذا الامر المهم حق قدره وعلى الاخص عدم الفة الاهالي الذين تعودوا على الاصول القديم ورغبتهم فيها عن الجديد . ولكن روح هذه الترقيات الجديدة سرت بين الافراد بالرغم عن هذه المشكلات الكثيرة حيث كانت ادبياتنا قبل الواقعة الخيرية عبارة عن تعليم الديانة وقسم من اصول الانشاء وكانوا يتبعون في تدريسهم المبادئ القديمة الذي وضع اساسها منذ عهد العباسيين كما انهم كانوا ينتهجون في تحصيلهم طريقاً غير معقول وغير كافٍ لتوسيع

معلومات الطالبين فكان الاديب منهم قبل بضع سنين يحصر همته في مطالعة المؤلفات المخطوطة دون ان يعير الفنون الجديدة او بالحري المعارف الغربية جانب الالتفات . حتى ان المطبعة التي انشئت في الاستانة سنة ١١٣١ هـ دخلت بعد زمن قليل في خبر كان نظراً لرغبة علمائنا عنها ونفرتهم من الاختراعات الجديدة ولم يهتم أولياء الامور منا بترويج هذه الصنعة التي هي مدار توسيع المعارف وانتشارها قبل الواقعة الخيرية حتى بعد حصولها بزمن قليل

ومن هذا الحين فصاعداً اي بعد الواقعة الخيرية بدأ اصحاب الحمية الوطنية فى تعميم المعارف (ولو لم يكن في الدرجة المطلوبة) وما يتعلق بها من الامور ففي سنة ١٢٤٢ هـ انشئت مدرسة الطب العسكرى وأصلحت مدرسة الطوبجية التي وضع اساسها على، عهد السلطان سليم الثالث، واكملت بعض نواقصها. وانشئت المدرسة الحربية في اوائل سلطنة السلطان عبد المجيد وعقبها انشاء مدرسة البحرية وفي اواخر سلطنته انشئت مدرسة المعادن وكلهم من المدارس العليا كما انشئت ايضاً مدارس الاعدادية (تجهيزية) في عدة مواقع مهمة وعدة مدارس

للرشديه (ابتدائيه) وهكذا سدت هذه المدارس بعض
احتياجاتنا العلمية . والمدارس التي انشئت على عهد السلطان
عبد العزيز لم تكن أقل فائدة من المدارس التي انشئت على
عهد عبد المجيد . ففي ابان سلطنته انشئت مدرسة الفنون الملكية
بهمة محمد باشا القبرصلي وفي اواسطها انشئت المدرسة السلطانية .
ولو ان هذه المدرسة انشئت بهمة وحث سفير فرنسا الذي كان
نافذ الكلمة في ذاك الحين وهي من المدارس التي يضرب
بانتظامها المثل كبقية المدارس العالية في الاستانة فتخرج فيها
تلامذة خدموا الوطن خدمات صحيحة كما يخدمه تلامذة
المدارس الاخرى وقد جعل التدريس فيها باللغة الفرنساوية
ولكن ألغي هذا اللسان من مدرسة الطب العسكري اذ كان
التدريس به قبلاً وابتدأ التلامذة يحصلون الطب على لسان آبائهم
وانشأ ايضاً في التاريخ نفسه مدرسة الطب الملكية وهي مستقلة
عن الاولى ولم تقف همة تشييد المدارس وتعميم المعارف على
عهد السلطان عبد العزيز عند هذا الحد بل كانت جميع الهمة
مصروفة الى انشاء المدارس الاعدادية والرشدية فكانت هذه
اغزر فوائد من المدارس العليا نظراً لخدمتها في تعميم المعارف

بين ابناء الطبقة العامة وكان «سليمان باشا» المشهور اعظم عامل على انشاء هذه المدارس .

ومع هذا فلم تكن المدارس وحدها هي التي نشأ عنها انتشار المعارف بين الاهالي على أواخر عهد السلطان عبد المجيد وأوائل عهد السلطان عبد العزيز بل كان شوق الاهالي للمطبوعات يزداد يوماً عن يوم فالمطابع لاتقل خدمة عن المدارس في تنوير أفكار العامة وتشكيل رأي عام بينهم فاول جريدة انشئت عندنا هي الجريدة التي أنشأها Alexandre Blacque الكساندر بلاق الفرنساوي الشهير سنة ١٢٤١ هجريه في ثغر ازمير وكانت تصدر باللغة الفرنساوية وليست هي باول جريدة أنشئت بل انشئ قبلها جريدة على عهد السلطان سليم الثالث بسفارة فرنسا في الاستانة وكان يديرها رجل فرنساوي أرسلته حكومة فرنسا ولكن مواضيعها لم تخرج عن حد اذاعة أخبار انتصار الفرنساويين في محارباتهم وتفصيلها تفصيلاً ولكن عدم كفاية إيراداتها للصرف عليها بالرغم عن سعي صاحبها المتواصل اضطره لتعطيلها وقد تشبث الكثيرون لانشاء المطابع فاخفقوا سعياً ولم تدم جريدة مدة طويلة غير التي كانت تصدر في ازمير وهذه الجريدة كانت

تدعى مرآة الشرق Spectateur de l'orient ولكن بدل اسمها أخيراً ودعيت Courrier de Smyrne بأخبار ازمير وكانت مباحثها توافق الزمان والمكان وكانت تأتى بالاخبار الصحيحة واشتغلت في هذه الآونه بنقل أخبار الثورة اليونانية التي كانت تتاجج نارها فكانت تأتي بالانباء الصحيحة من ميادين الحرب بسرعة عجيبة ما اذاع صيتها وأعلى كلمتها حتى في اوروپا نفسها وفي سنة ١٢٤٦ هجرية أحضر السلطان محمود محررها الى الاستانة وأحسن عليه بالاعانة اللازمة وساعده على اصدار جريدة فيها تسمى Moniteur Ottoman (الرائد العثماني) وبعد سنة أمر السلطان محمود باصدار جريدة تركية في الاستانة تسمى (تقويم الوقائع) وجعلها تحت ادارة محرر الرقيب العثماني. ولو ان هاتان الجريدتان كانتا لسان حال الحكومة ولكن محتوياتها كانت تختلف عن بعضها في بادئ الامر اذ كانت جريدة تقويم الوقائع لاتنشر سوى أوامر الحكومة الرسمية ولا تقبل المقالات الاخرى اما الثانية وهى الرقيب العثماني فكانت تنشر مقالات وابحاث شتى عن الاحوال الخارجية والداخلية حتى عدتها أوروپا لسان حال الباب العالي وهكذا دامت هاتان الجريدتان على

هذا المنوال سنوات عدة ثم أنشئت في الاستانة سنة ١١٥٩ ه جريدة أخرى تدعى (جريدة الحوادث) وكان بين مندرجاتها حوادث خصوصية عدا الاخبار الرسمية والوقائع المتنوعه ولذا راجت رواجاً باهراً في زمن قليل وعدت من الجرائد الرسمية للحكومة العثمانية وظهر أخيراً رجالٌ ليس لهم أدنى علاقة بالحكومة وانشاؤا في الاستانه وفي بعض الولايات المهمة جرائد غير رسمية فكثرت الصحف وتنوعت في أواخر سلطنة عبد المجيد واوائل سلطنة عبد العزيز حتى كان عدد الجرائد المنتشره في القطعات المختلفه من بلاد الدولة العثمانية بحسب الاحصاء الاخير الذي عمل في أواخر هذا العهد يزيد على الثلاثين نسخة وكان بينهما أربعة مجلات فنيه بين شهرية ونصف شهرية واسبوعية وهذا الحال يدلنا دلالة قطعية على ان الرغبة في انتشار المعارف التي هي من ضروريات المدنية الحاضرة كانت تزداد يوماً عن يوم عند اهالي الممالك العثمانية كافة حتى ان بعض رجال الدولة على اواخر عهد السلطان عبد العزيز بين ملكيين وعسكريين ضباطٍ كانوا أو امراء من الذين تعلموا في المدارس وذاقوا حلاوة ثمر التعليم سعوا جهدهم فى تعميم المعارف بين ابناء وطنهم ليذوقوا ما ذاقوا

ويقتطفوا ما اقتطفوا من أشهى ثمار التعليم

ولكن الحالة لم تبق على ما كانت عليه بعد الواقعة الخيرية في الاكتفاء بتقليد المأمورين العثمانيين للاجانب فى اللباس فان كبار الموظفين العثمانيين كانوا بعد الواقعة الخيرية يقلدون الاجانب فى ازيائهم فقط ولا يعرفون كيف يخدمون الوطن او كيف يسعون فى اعلاء شأنه بل كثر بينهم من يعرف قيمة الاصلاحات فى الدولة وقدر الانتظام فى دوائر الحكومة كما عرفوا منبع الثورات فى داخل البلاد العثمانية ولم نحكم على صحة قولنا هذا أى تنور عقول المأمورين بما أتينا عليه من قبل بل ان تعدد آثارهم ومؤلفاتهم العلمية والادبية لهوا كبر شاهد واصدق برهان على صحة قولنا وقد بدأت المطبوعات تزداد وتتكاثر عندنا منذ عهد السلطان عبد المجيد ولوان اكثرها خاص بشؤن العالم الاسلامي ولكن كان يوجد بين هذه المطبوعات ما هو معرب عن أشهر المؤلفات الغربية وبقطع النظر عن التعريب فقد ظهرت في هذا الوقت مؤلفات نافعة غاية في الاهمية باقلام بعض مشاهير الكتاب العثمانيين الذين جمعوا بين المعارف الشرقية والفنون الحديثة الغربية،كاحمد وفيق

باشا وجودت باشا ، ومن شا كلهم من الكتاب الذين أبدعوا
أصول التحرير والبلاغة في الادبيات التركية وأحيوها من جديد
وقد شجع هؤلاء بمؤلفاتهم « وعلى الاخص جودت باشا بالتاريخ
الذي وضعه » الادباء على أن يسيروا في كتاباتهم على النمط الذي
يوافق الزمان والمكان وان يتبعوا الترقي العصري وهو مما يدل
على اقتدارهم وحسن درايتهم وقد وقع هذا التغيير لدى المحررين
العثمانيين موقع القبول واجتهدوا في تعميمه وهكذا اتسع نطاق
فوائده حتى كان اكبر مساعد على تنوير أفكار الاهالي ولكن
ما الفائدة منه وقد سقط عن اول درجة عند صعوده على سلم
الترقي بما وضعت له يد الظلم من العقبات في سبيل تقدمه
وقد دامت هذه الاحوال الداعية للاسف حتى زماننا هذا
وازدادت الآن زيادة كبيرة جعلته في خبر كان اذ كانت
مطبوعاتنا في بادئ الامر حرة بلا قيد ولا قانون معين بل
كانت حرية المطبوعات بالغة منتهاها والكل حر في اصدار
أي جريدة شاء أو انشاء أي مطبعة أراد لايعارضه في أمره
معارض فلما زاد عدد الجرائد أخذت المطبوعات شكلاً آخر
وصارت تنشر الاخبار المحليه والمقالات الخاصه بالامور الداخليه

وتنتقد أحياناً أفعال الموظفين في اكبر وظائف الدولة فكدرت هذه الاحوال كأس صفاء اولياء الامور وأوجبت استياءهم وجلبت نحوها عداءهم فعملوا على ايجاد الوسائل الكافية لايقاف المطبوعات عند حدها ونزع حريتها اذ كانت على زعمهم تضر بالصالح العام فقرروا استعمال أصول مراقبة الجرائد وهي التي كان ولا يزال يعمل بها حتى الآن في بعض الممالك الغربية وبناءعليه وضع نظاماً خاصاً بالجرائد في سنة ١٢٨٢ هجرية وهو أول قانون وضع للجرائد فى البلاد العثمانية وابتداؤا في تطبيقه بكل شدة وصرامة وشددوا النكير على الجرائدوأحكام هذا النظام عبارة عن الزام كل من يريد اصدار جريدة باخذ رخصة من الحكومة كما حصرت مباحث الجرائد فى دائرة لاتتمكن معها من ان تتكلم فى ما تريد وتبحث عما تريد وان تكون مباحثها تحت مراقبة الحكومة الدائمة وعليه انشئ من ذاك الحين قلماً خاص لمراقبة المطبوعات الداخلية فى الباب العالي واحيل عليه هذه المهمة ولا يزال الى الآن مفتوح الابواب ينزل على كل من شذ عن هذه القاعدة من أصحاب الجرائد اليم العذاب ولو طالعنا هذا القانون من أي وجهة لرأينا خطة الحكومة منافية لمنافع ادارة

الملك واهالي معاً مجحفة بحقوقهم أشد الاجحاف حيث ان وضع هذه المراقبة لم يكن الا نتيجة خوف الحكومة من انتقاد الجرائد أعمالها وهو عيب يحط بقدر الحكومة وادارتها ويدل دلالة واضحة على قلة ثقتها بنفسها

ثانيا : ان الحكومة أظهرت بهذه الواسطة اشتراكها في ما يحدث داخل البلاد من الامور المباينة لقانون العدل والانصاف وسدت فى وجه الجرائد منافذ الانتقاد وحرمت عليها ولوج باب الصدق في نشر ما يقع من الحوادث داخل الممالك العثمانية وهكذا هدمت ركن ما بني من قصور آمال الاصلاح في الوزراء

ثالثاً:ان هذا النظام زرع بذور الخصومة والعداوة الشديدة في قلوب اصحاب الحمية الوطنية والغيرة الملية من رجال الدولة ووكلائها وقد ظهر هذا الحال بعد بضع سنوات من وضع هذا النظام حيث كان سبباً في تشكيل فرقة الاحرار العثمانيين في أواسط سلطنة السلطان عبد العزيز

أول مؤسس لهذا الحزب [1] هو مصطفى فاضل باشا

---

(١) حزب تركيا الفتاة

المصري أحد أعضاء عائلة محمد علي باشا الكبير مؤسس بنيان الخديوية المصرية

وقد تربى منذ نشأته تربية حقة وتلقى من مبادئ العلوم والفنون ما يناسب زمانه ومركزه وضف الى هذا انه كان ذكياً لبيباً ذا ثروة طائلة كأكثر أفراد عائلته ولكنه لم يمتزج باسماعيل باشا بعد ان تولى أريكة الخديوية فاتى الاستانة ودخل في عداد الوكلاء ولكنه لم يلبث في دار السعادة طويلا لعدم اتفاقه مع الوزراء المقتدرين كعالي باشا وفؤاد باشا فترك الاستانة وذهب الى باريز ليظهر ما لديه من الاعتراضات على القواعد المتبعة في ادارة الدولة ويكشف الغطاء عن معائبهم في بلاد الحرية والتف حوله اصحاب الاقلام الذين نفروا من ادارة عالي باشا وأصدروا عدة جرائد باللغة التركية وكتب فيها مقالات شديدة اللهجة على مساوئ الدولة في ذاك الحين وفند هذه السفاسف واحدة بعد اخرى واضعاً نصب عينيه أعمال فؤاد وعالي باشا الشخصية كعدم صرف المبالغ التي جمعت بطريق الاعانة لتوزع على من احترقت بيوتهم في الحريق الكبير الذي حصل في دار السعادة في الغرض الذي وضعت اليه وضياع

حقوق الدولة في تسليم القلاع العثمانية التي أقيمت في بلاد الصرب لحكومتها وأخذ الاموال لتسكين حادثة الشام من الخزينة بصورة باهظة والتساهل في أمر تسكين عصيان كريد وسوء استعمال أموال القروض العديدة وما شاكلها من الاحوال

هكذا ظهرت جمعية الاحرار لاول مرة في البلاد العثمانية ولم تظهر الا بعد ان عيل صبر هؤلاء الرجال وبعد ان احتملوا مالا يطاق من الاهوال لان حصول الترقي في المعارف العمومية « ولو قليلاً » كما قدمنا بعد الواقعة الخيرية كان أقوى عامل على بلوغ هذه الحالة ولكن وضع قانون المراقبة أوجب سرعة نموها وحصولها قبل أوانها . ومهما كان الامر فان الرجال الذين لم يرق في عيونهم سير احوال الادارة الداخلية في الدولة على عهد صدارة عالي پاشا اجتمعوا في باريز وأنزلوا من هنالك نور الحرية على البلاد العثمانية وهيجوا الافكار العمومية فكان اقبال الاهالي على منشورات الاحرار أعظم من ان يذكر حتى بيعت في الاستانة نسخة واحدة من جريدة « حريت » التي طبعت في باريز ودخلت البلاد العثمانية سراً بجنيه عثماني ومع هذا فلم يداوم هؤلاء الرجال على أعمالهم مدة طويلة

فعاد اكثرهم الى أوطانهم بعد وفاة عالي پاشا اذ شملهم العفو الشاهاني في ذاك الحين وان لم يكونوا حائزين تمام حريتهم في بلاد الدولة وكانت الحكومة ترقبهم بطرف خفي على الدوام ولكنهم شكلوا فرقة الاصلاح فصارت الحكومة تهتم بكل قول فاه به احدهم وتعيره اذناً صاغية وازدادت شهرتهم يوماً عن يوم وعدوا في مقدمة الاحرار العثمانيين سواء كانوا من الذين عادوا الى الاستانة أو من الذين لم يغادروا أوطانهم وكان ضيا پاشا أشهر شعراء العثمانيين يشغل مركزاً ممتازاً بين أفراد هذا الحزب فنادى بالنظم والنثر على قدر ما يستطيع من القوة واجتهد في اعلاء شأن الوطن كثيراً حتى ترك له في قلوب أمته اسم يمجده أعضاؤها حتى آخر نفس من حياتها . وكان نامق كمال بك [1] أشهر رؤساء هذه الجمعية وهو رجل شريف العواطف والاميال رزين العقل واسع القريحة محب لوطنه ، مشغوف بترقيته ، مجتنب للرياء والمداهنة ، عاشق للحرية وبالجملة فانه كان من نوادر مخلوقات زمانه وأشعر شعراء عصره وأوانه ، ولكن المامه بالسياسة كان سطحياً فاتحد مع شناسي أحد أدباء الترك المشهورين وعملا

(١) هو نامق كمال أشعر شعراء الترك

يدا واحدة على استئصال شأفة التحرير القديم وغرسوا مكانه بذور اصول جديدة وسعيا في تعميمها حتى احيا كلاهما الادبيات التركية من جديد فحرك هذا النابغة باشعاره البليغة ومقالاته الرائقة حسيات ملته وعواطف ابناء وطنه حتى استحق ان يلقب باستاذ أرباب الفكر والقلم من العثمانيين . وقد بدأت شهرته بالظهور في عهد عالي باشا وأخيراً صاهر مصطفى فاضل باشا وكان محرراً لجريدة «حريت» التي صدرت في باريز وقد نفي مراراً بعد عودته الى الوطن حيث كان دائباً على اظهار حميته وصداقته حتى داخل الممالك العثمانيـة وكان في هذه الفترة مديراً لادارة جريدة « عبرت » التركية التي كانت تصدر في الاستانة

وثاني مشاهير الاحرار هو المرحوم علي سعاوي افندي كان في بادئ امره من طلبة العلم فبعد ان حصل العلوم الفقهية في الاستانة قصد باريز وأقام فيها عدة سنوات تعلم في خلالها اللغة الفرنساوية واطلع على الادبيات الاوروبية ووقف على احوال السياسة العمومية

وذهب بعدئذ الى لوندره ونشر كتباً تختص بالاسـلام والعثمانيين واصدر جريدة باللغة التركيـة تسمى « مخبر » وهو

آخر من رجع الى الاستانة من الاحرار العثمانيين فكان يخطب في الجوامع والمحافل الخصوصية ويسعى جهده في تنوير أفكار الاهالي وتشويقهم على المعارف ولو ان بعض اعدائه كانوا ينسبون له بعض النواقص ولكن لا يتجارأ احد على انكار محبته لملته ووطنه وشغفه الزائد بهما حتى انه ذهب ضحية الوطن كما هو معلوم ومشهور عند الجميع

وكان احمد مدحت افندي الموجود الآن في الاستانة معدوداً من الاحرار العثمانيين الذين تحوم حولهم الابصار ولا ينكر واحد خداماته للمطبوعات العثمانية وتدريب الاهالي على الكتابة والمطالعة فقد اشتغل زمناً بالتأليف والتعريب ولا نغالي اذا قلنا انه اكثر اسلافه ترجمة وتأليف . وقد طالع آثاره اكثر الناشئة الجديدة من الكتاب الذين كثر ولله الحمد عددهم وتلقى اكثرهم درس التحرير عليه ولكنه مع ذلك كله كان مشهوراً بعدم ثباته واتباعه هبوب الرياح حتى نفسه لا ينكر هذه النقيصة ويصادق عليها

ومن الذين لا يزالون أحياء يرزقوا حتى هذه الساعة والذين يعدون في مقدمة احرار ذاك الوقت أبو الضيا توفيق بك

ولا أحد ينكر فضله على المطبوعات العثمانية فاشتهر في هـذا الخصوص أمره وزاع خبره

هؤلاء هم مجموع احرار ذاك العهد ولكن كان يوجـد أيضاً بين الضباط المتخرجين في المدارس رجال آخرون يعدون من حزب الاحرار «المتفقة الافكار» كما كان يوجد كثيرون من تلامذة المدارس العالية حتى الاعدادية من هم يعضدون هذا الحزب بكل قواهم و يميلون اليه ميل الرجال لغادة حسناء وكلهم كانوا يبتغون الاصلاحات الاساسية والانقلاب الجدي لتخليص وطنهم ويسعون وراء سعادة الملك والملة وسعادة أنفسهم

﴿ مساوئ السلطان عبد العزيز ﴾

المساوئ في احوال الممالك المحروسة العمومية — المملكة التي تحكمها الحكومة المطلقة ـ السلاطين في دور الترقي ودور الانحطاط ـ السلطان عبدالمجيد والسلطان عبد العزيز ـ العظمة والتكبر عند السلطان عبدالعزيز ـ نساء السراي ـ ميل السلطان للاسراف ـ مصر وسوء استعمال الامتيازات التي منحت لها ـ الخزينة الخاصة وميزانيتها ـ

لابد وانه يوجد بين قرائنا من طالع الكتب التي طبعت في اوروبا خلال الخمسين سنة الاخيره والتي تبحث عن الشرق وعلى الاخص منه أحوال الدولة العلية والذي يقرأها لابد وأن يرى بين سطور هذه الكتب «الجغرافية والتاريخ والسياحات» فقرات كثيرة تبحث عن مظالم الترك وهمجيتهم فانك لو تصفحت اي صحيفة منها لايمكن أن تجدها خالية عن نسبة الاتراك الى الظلم والتوحش وعدم الاستعداد للمدنية الغربية وترى في الكلام عن ادارة الامور الداخلية ان هؤلاء المحررين والسائحين يرون بلادنا في أقصى درجات الخصوبة مع استعدادها للترقي والعمران فينسبون وهم معذورون حالة بلادنا الحاضرة وما آلت اليه من الخراب الى عدم قابلية الملة الحاكمة «اي الاتراك» للتمدن والحضاره

ويرون افعال الحكومة وما تعامل به الاهالي من صنوف الجور والعسف فينسبونها الى استعداد الاتراك فطرياً للظلم والاستبداد وعدا ذلك فانهم يرون الثورات التي توالت أخيراً في الجهات المختلفة من بلادنا فيلقون تبعتها على الترك ولا يعتقدون غير انها ناشئة عن اعتيادهم سفك الدماء البشرية ويضعون اصابعهم في اذانهم حذر سماع غير هذه الاقوال ونحن لانجحد وجود ما يشيرون اليه في كتبهم من المساوىء داخل بلادنا وانهم لم يغالوا في اقوالهم عنها كما لم ينقصوا شيئاً في وصف ما تستحقه من الاوصاف

ولكن مع صحة أقوال المؤلفين الاجانب عن هذه الملة نقول انهم مخطئين خطأً فاحشاً في معرفتهم منشأ هذه السيئآت وان خطأهم هذا دليل واضح على عدم وقوفهم تمام الوقوف على احوال الدولة التي وقعت فيها من قديم الزمان . ولدى التدقيق في ملاحظاتنا الآتية تظهر هذه المسئلة بشكل لايبقى معه ادنى ريب ولا اشتباه:

لو ألقينا نظرة على أحوال حكومات الكرة الارضية باسرها لوجدنا كل حكومة منها تسعى في تدبير أمور ملكها

وتأمين سعادة رعيتها بشكل يناقض الاخرى وذلك تبعاً لاختلاف الملل والنحل فكل حكومة تضع نظامها على مايوافق مركزها الطبيعي والتقليدي وما يوافق عادات قومها واخلاقهم فالدولة العثمانية تتبع اصول ادارة الحكومة المطلقه منذ ستة قرون

فالامة الذي تحكمها حكومة مطلقـة يتوقف فيها حفظ العرض والناموس وسلامة الملك وعمرانه وجميع أحوالها الخصوصـية على اقتدار ملكها وحسن ادارته فاذا كان الملك الذي يحكم بلاداً على هذا النمط متصفاً بالاخلاق الحسنه وتؤهله تربيته واخلاقه الى هذا المنصب الجليل فلا بد وأن تسعد رعيته ويضرب في البلاد الامن أطنابه والا فلا حظ لها من نعيم الدنيا بل تبقى مقهورة مظلومة حتى يأتي يوم تنقرض فيه عن بكرة أبيها وتصبح البلاد قاعاً صفصفاً لا خلق يسكنها ولا طير يأويها. والشواهد فى تاريخ كل أمة من الامم اكثر من ان تعد وعلى الخصوص فى تاريخ الاسلام وتراها ظاهرة بشكل اجلى في التاريخ العثماني اكثر من غيره

وليس يخفى من طالع التاريخ ان الدولة العثمانية التي مر عليها ماينيف على ستة قرون من ابتـداء تأسيسها للآن يقسم

تاريخها نظراً للياقة سلاطينها الذين تولوا عرش الخلافة وعدم لياقتهم الى قسمين

القسم الاول وهو دور الترقي يبدأ منذ تأسيس المملكة العثمانية حتى سنة الالف هجريه فالملوك الذين تولوا عرشها وهم مؤسسو بنيانها الحقيقيون قاموا بوظائفهم نحو الدولة أحسن قيام بما تقتضيه تربيتهم وحسن أخلاقهم وعرفوا ارتباط منافعهم الذاتية بمنافع الدولة فالتزموا العدالة بين الاهالي واتخذوها دليل أعمالهم جاعلين التدبير والشورى رائدهم فوسعوا حدود ملكهم ولم يتركوا فرصة حتى انتهزوها لتنظيم ادارة بلادهم الداخلية وتحملوا متاعب الحروب ومشاقها حتى تركوا الامة المحمدية تثني عليهم وتشكر فضلهم وهي أقصى سعادة ينالها الملوك

أما الدور الثاني فيبتدئ بانسلاخ القرن العاشر من الهجرة فالملوك الذين ظهروا في هذا الوقت سلكوا جميعهم مسلكاً مخالفاً لمسلك ابائهم وجدودهم فلم يهتموا بوظيفتهم وكبر مسئوليتها بل كانوا يتخذون سلطتهم واسطة لفائدتهم الشخصية وقضاء شهواتهم النفسانية فهذا الشكل الاخير يظهر لنا جلياً قدر الافعال التي كانت في دور الترقي ومنبع الانحطاط وأسبابه :

وجد بين السلاطين العثمانيين الذين نشأوا في الدور الثاني من يميل لاصلاح حال الملك موقتاً ولكن اساس المسئلة كما قدمنا قبلاً هو عدم لياقة الملوك واهليتهم الامر الذي اوجب عدم جريان الامور في مجراها الطبيعي ونجم عنه انحطاط الممالك المحروسة يوماً عن يوم وتقهقرها الى الوراء بعد ان كانت أحسن الممالك ادارة في الخارج والداخل ولا حاجة بنا لتقليب صفحات أسفار التاريخ البعيدة لاثبات قولنا هذا فلو أوضحنا أحوال السلطان عبد العزيز في أواخر سلطنته لظهرت هذه المسئلة بحذافيرها

كان السلطان عبد المجيد مع ماهو عليه من بعض الاخلاق التي لا توافق أمور الدولة كما قدمنا قد تربى على عهد والده تربية حسنه توافق عصره على قدر الامكان وكان يتكلم الفرنساوية ويطالع المصنفات التي نشرت في أوروبا أيام سلطنته ويقف على أفكار أرباب الحجى ولكنه كان ميالاً للملذات الدنيوية ولا يدخر وسعاً في استفادته من ضروب لذائذ الشرق والغرب حتى انه بنى في قصره غرفة خاصة للتشخيص وهو أمر لم يسبقه فيه أحد من اسلافه وكان يأتي بكل جوقة جاءت من

أوروبا و يتفرج عليها في قصره. اما اخلاق السلطان عبدالعزيز فكانت تناقض اخلاق أخيه كل المناقضه بهذا الخصوص فلا يسر من التمثيل وغيره من اللذات الفكريه والادبيه بل كان يمضي أوقاته في الامور الماديه كالصراع ومقاتلة الديوك وما شاكلها وهي اكثر ما كان يلتذ به من أمور الدنيا فما تولى الملك حتى حول مرسح التمثيل الذي بناه أخوه في القصر الملوكي الى اصطبل وشيد بناء جديداً في القصر خاص بالديوك وكلاب الصيد لكنه لايؤاخذ على هذه الامور حيث ان السلطان مخلوق وله ما للمخلوقات من الحق في ترجيح أي شيء تشتهيه نفسه من ذوقيات الدنيا على غيره ولكن مما لامشاحة فيه ان السلطان لابد من ضنه باظهار أحواله الخصوصية واخفاء ما لايوافق اخلاق الرعية منها ولكن السلطان عبد العزيز لم يهتم بهذه النقطة بل جمع في برهة قصيرة كثيراً من مهرة المصارعين كما جمع عددا كبيراً من الحيوانات في قصره وابتداء في تمضية وقته بالفرجة عليها

فشاعت هذه الامور في الخارج وكان بين الاشاعات فقرات تضحك الثكلى كتعليق السلطان عبد العزيز في

رقبة ديك تفرد في المضاربة بين أقرانه قطعة من النشان المجيدي من الدرجة الاولى وتداولت هذه الاشاعة السن الخلق بالمجالس الخصوصية المختلفة بصورة لم يشتبه في صحتها أحد حتى نشأ عنها استهزاء عامة الناس واستخفافهم بعقل السلطان . ومع هذا كله فان السلطان كان ذا كبرياء وغرور لا مزيد عليهما ولو ان اخلاقه وعاداته السيئة لم تتجاوز حدودها فى أوائل سلطنته ولكنها اخذت تشتد يوماً عن يوم بعد وفاة عالي پاشا [*] ولنضرب لك مثلا عدم رغبته في تسمية احد باسم « عزيز » كما انه قد عود كل من يتشرف بلقياه تقبيل الارض حتى أوشك ان يقول « أنا ربكم الأعلى » وبالجملة فانه تعالى في العظمة والكبرياء حتى كان يعد كل من ينظر في وجهه مخالفاً للآداب التي فرضها السلطان على عبيده . فكان كل من ينظر الى وجهه لا يأمن عواقب هذه النظرة وكل من يريد تقديم عريضة بطلب احسان أو في أي شأن آخر يوقع على العريضة التي يقدمها للاعتاب « بعزت » او ينتحل اسما آخر اذا كان اسمه عزيز ومهما كانت عليه مواد العرائض من البساطة فلا بد من مزجها

[*] اس الانقلاب أحمد مدحت افندي

بالدعاء للذات الشاهانية حتى تحوز القبول والا فلا ينالها سوى الاعراض عنها والقائها في زاوية الاهمال . ومن الغريب ان عالي باشا جعل يشوق السلطان لزيارة أوروبا لعلمه بما يتصف به ملوك الغرب من التواضع وان السلطان متى رأى منهم هذه الاحوال يستبدل اخلاق الكبرياء والغرور بالاخلاق الحسنة ولكن جاء الامر على عكس ذلك اذ زد في كبرياؤه وغروره واعتداده بالنفس كما ازداد عنده الميل الى الاستبداد وهو قول منقول عن مقربيه في ذاك الحين . فكان في هذا الوقت يدعي الانانية في كل امر ولا يريد تقديم رأى أحد على رأيه في أمر من الامور ولا يقبل اعتراضاً على رأيه من أحد وكل من تجاسر على الاعتراض لا ينال الا أشد العقاب

ومما يؤثر عنه انه كان ذات يوم يلعب بالشطرنج مع ابراهام باشا[1] فعارضه الباشا في أمر جزئي فلم يسعه الا ان ضرب رأسه بمائدة الشطرنج ومع هذا كله فان السلطان كان امام من نالوا ثقته كالخشب المسندة أو كلعبة في يد طفل يلعبون به كيفما يشاؤون

---

(١) أحد سراة اليهود في الاستانة وعضو في مجلس شورى الدولة الآن

فاستفاد من بالسراي من المقربين من أحواله هذه وعلى الاخص منهم جماعة المماليك الذين لا تخلو من جرائمهم قصور ملوكنا حتى الآن فكانوا يفعلون ما يريدون ويقضون أوطارهم بدون ان يعارضهم معارض ولهم من ادارة الملك ما يشتهون ولم يبق السلطان في ربق المماليك فقط بل كانت نساء السراي أيضاً يلعبن به ويوجهنه أي جهة شئن وخلاصة القول انه كان أطوع لهن من بناتهن . فيبدد أموال الخزينة في شراء الجواهر المتنوعة ويصرف الاموال الطائلة لشراء الهدايا الثمينة ليقدمها لهن . وازداد ميل السلطان للاسراف زيادة عظيمة ولم تنحصر شهرة اسرافه العظيم في داخل البلاد العثمانية بل شاعت أحواله هذه في أوروبا فتهافت مشاهير الرسامين والنقاشين على باب تبذيره فكانوا يبيعون سلعهم لهذا السلطان الذي لا يعرف عنها شيئاً باغلى الاثمان حيث لا تعب ولا نصب في ما بين يديه من قناطير الذهب ومع هذا كله فاذا كان للسلطان أمل أو مشتهى فهو بلا شك انشاء قصور شاهقة مزينة من الخارج والداخل زينة لا يقدر أحد ان يأتي بمثلها . ففي أوائل حكمه بنى ما بنى من القصور متبعاً فيها قواعد الاقتصاد ولكنه شذ اخيراً عن

هذه القواعد وجن في حب الاسراف فكان يفرش مثلاقصراً شاده من جديد أو أصلحه في عهد غير بعيد . فرشاً وزينة يصرف عليها طائل الاموال حتى اذا ما تم ترتيب أحد القصور يصدر ارادته فيجدد مرة أخرى وبعد ان توضع هذه الارادة الاخيرة موضع الفعل لا يعجبه فرشه اويرى نقيصة في أثاثه فيأمر بتأثيثه تارة أخرى وقد دام الحال على هذا المنوال حتى آخر عهد سلطنته

فمن هذه التمهيدات والتسهيلات يعرف القارئ قيمة أخلاق سلطان آخر الزمان وشدة وطأته على الخزينة المالية وما بدد من أموال عباد الله في سبيل غاياته النفسانية . بل هي الحقيقة بعينها . حيث ان احواله هذه أعجزت من تولوا في عهده منصب الصدارة من فحول الرجال وتركت بعدهم للماثلين الأداني في مقام الصدارة واسع الآمال

ولم تكن محبة السلطان عبدالعزيز لمحمود نديم پاشا وشغفه به الا لموافقته على اي رأي رآه وارتآه اذ كان يوجد السلطان عبد العزيز وسائط متعددة ليتوصل بها لنيل بغيته وهي سلب الاموال ومنها التنقيحات التي أشرنا اليها قبلاً وسوء

التصرف في اموال سكة حديد الروم ايلي ولم تقف هذه السيئات عند حد معلوم بل كانت قبل هذا الدور وبعده تزيد في احوال الدولة وخامة يوماً عن يوم وتنزل بها الى منتهى هوة الذل والهوان . ومن جملة مساوئ اوائل سلطنة عبد العزيز هي اتخاذه جميع الوسائط في سلب الاموال ولو كان من ورائها اشد الاهوال ليملأ بها يداً تعودت على التبذير والاسراف الكثير ولم يرتدع عن غيه هذا بعد ان طبع على هذه الاخلاق بالرغم عن خوفه الشديد من عالي باشا « ولن يلين اذا قومته الخشب » حتى كان بين الوسائط التي يستعملها أموراً تنافي وقار الملوك وحيثياتهم وتناقض منافع الملك كل المناقضة ومع هذا كان لا يدخر وسعاً في استعمالها وكانت حشرات السراي يتهن طرباً ويرقصن عجباً كلما رأين تمسك السلطان بهذه الافعال فيشوقنه على اجرائها لينلن القسط الاوفر مما يسلبه من الاموال . وقد كشفت مسئلة الامتيازات المصرية المشهورة عن أحوال السلطان وأهل السراي الحجاب فظهر من ورائها ما لم يكن في الحساب . نعم ان أرض الفراعنة منحت امتيازات عديدة تقضي بحرية التصرف في أمورها الداخلية منذ عهد السلطان

عبد المجيد وعهد أبيه السلطان محمود العادل . ولو ان هذه
الامتيازات تقضي بعدم مداخلة الحكومة العثمانية في أمورها
الداخلية ولكنها حفظت حقوق الخلافة ونفوذها عليها وقد دام
الحال على هذا المنوال مدة من الزمان . ففي سنة ١٨٦٣ هـ اعتلى
أريكة الخديوية المصرية اسماعيل باشا المشهور بعد وفاة سعيد باشا
وكلاهما من عائلة محمد علي باشا الكبير . وكان اسماعيل باشا مع
ذكائه المفرط محب للأبهة والعظمة حريص على استقلاله في
أمور بلاده فلم يعتلي أريكة الخديوية حتى بدء يعارض الاستانة
في مداخلتها بامور مصر الخارجية ومعاملاتها مع الدول الاجنبية
بقطع النظر عن الامور الداخلية . ولكن ما الفائدة من معارضته
ويداه مغلولتان بالامتيازات الممنوحة لاسلافه من ولاة مصر
اذ كانت هذه الامتيازات تحتم على الحكومة المصرية عدم
اجراء شيء مع الدول الاجنبية كعقد معاهدات وما أشبه ذلك
الا بواسطة الحكومة العثمانية وكان اسماعيل باشا أعلم الكل
بهذا الامر ولكنه لم يكن ممن تثنى عزائمهم كثرة العقبات التي
وقفت في سبيل اخراج تصوره لحيز الفعل فبذل جهد استطاعته
في تحري الاسباب اللازمة لازالتها وعدها من أقدس الوظائف

عنده . حتى كانت هذه النقطة هي الشغل الشاغل له مدة حكمه على مصر وضف الى ذلك ان الرجل لشدة فطانته وذكائه وقف على أحوال الاستانة تمام الوقوف وعرف أخلاق وأوصاف جميع ذوي الحل والعقد الذين يشغلون اعلى المناصب فيها ولذا علم امكان حصوله على غايته بواسطة ما يحللونه هؤلاء الذوات من المحرمات وبناء عليه لم يتول أريكة الحديوية حتى بدء باظهار مقاصده المضرة الفاسدة فارسل بعض أتباعه الى الاستانة مثقلاً جيوبهم بالاصفر الرنان ليوزعوها هنالك على أصحاب النفوذ والمكانة العالية اذ كان غاية ما يرمي اليه هو توسيع دائرة الامتيازات التي منحت للأسرة الحديوية من قبل الدولة حتى يكون مستقلاً في أمور الادارة الداخلية والخارجية تمام الاستقلال ويفعل ما يريد بدون رقيب ولا ممانع . فكان للواسطة التي استعملها المشار اليه في سبيل الحصل على بغيته أحسن تأثير عند أهل السراي وأولياء الامور في الدولة العثمانية ولكن لا بد لاظهار الحقيقة بدون تحيز فنقول ان اسماعيل پاشا لم يتوفق لقضاء غايته ايام صدارة فؤاد پاشا وعلى الاخص على عهد عالي پاشا ولم يتحصل على بغيته تماماً اذ كان عالي پاشا وقتئذ واقفاً له بالمرصاد ولكن

لم يأفل نجم هـذا الوطني العظيم حتى انفتح في وجه اسماعيل باشا باب الطريق الذي يوصله الى مشتهاه وصارت الفرمانات تترى بعضها بعضاً ولسنا نقصد كتابة تاريخ فرنامات الامتيازات المصرية او ايضاح المسئلة بحـذافيرها ولـكن الذي لا بد لنا من قوله هو ان اسماعيل باشا صار بقرة حلوب للمابين حينما قبض محمود نديم باشا لاول مرة على زمام أمور الصـدارة فكان اسماعيل باشا يعطي على كل فرمان منح للحكومة المصرية مئات الوف من الجنيهات رشوة لذوي الحل والعقد في ادارة أمور الدولة .

ولا مشاحة في ان أهل السراي كان لهم النصيب الاوفر من الاموال المنهوبة لعظيم مركزهم بين الناهبين فما قدمه اسماعيل باشا لمركز الخلافة من الرشوة لا يدخل تحت حصر وحساب اذ شمل هذا المال جميع أهل السراي ومن انتمى اليهم من الرجال حتى وصل الحال باسماعيل باشا في بذل الاموال الى درجة انه أعطى من أتى له بتحية من خليفة الزمان ثمـانين ألف جنيه وهي حقيقة معلومة عند جميع المصريين

وهكذا أضر السلطان بولاية تستظل بظل الخلافـة

الاسلامية ان لم تكن تحت ادارته . فمنها يستنتج مقدار التخريب والضرر البليغ الذي يلحق بولاية يحكمها حكماً ادارياً

وفي الحقيقة ان ما لحق البلاد من المظالم والمغارم قبل هذا العهد لا يعد شيئاً بالنسبة لما لحقها من الخراب عن أيدي أهل السراي على عهد السلطان عبد العزيز . ولا بد لنا لكشف غوامض هذه المسئلة واظهار مخبآتها من عطف النظر على معيشة واسراف أهل السراي وعددهم الذين هم منبع الخلل وأساس العلل واليك جدولا يظهر هذه المسئلة باجلى بيان وهو مأخوذ عن ميزانية مستخرجة عن دفاتر ادارة الخزينة الخاصة كما يأتي

كان عدد من يتعيشون من السراي لا يقل عن خمسة آلاف وخمسمائة شخص، وألف ومائتي امرأة، وثلثمائة وخمسين طباخ، وأربعمائة سائس وخدمة اصطبل، وأربعمائة نوتي، وأربعمائة من خدمة الموسيقى الخاصة، ومايتي مصارع وملاعب للديوك ، وألفا خادم ، وما يزيد على الثلاثمائة ياور وكتاب وتشريفاتية ومابينجية ، مع قطع النظر عن القهوجية والدخاخنية والغسالين وما شا كلهم . كما ان عدد الاغاوات الخصي لا ينقص عن الثلثمائة

نفس وكان في معية اصحاب النفوذ من الخدم خلق كثير حتى
كان عدد من يأكل من مطبخ السراي يربو على الستة آلاف
شخص حالة كون اكثر هؤلاء من المتأهلين أصحاب العائلات
وكانوا جميعهم يتعيشون من السراي

فمجموع ما كان يحضره المطبخ العامر يومياً من الاطعمة
المتنوعة ما يكفي لسبعة أو ثمانية آلاف نفس فيظهر للقارئ من
هذه الميزانيـة السطحية مقدار ما أنفق على هذه القصور من
اموال العثمانيين ولا بد للقارئ من الوقوف على مقدار مايؤخذ
من بيت مال المسلمين ويصرف على حشرات السراي حتى
ترتسم امام عينيه حقيقة هذه الاقوال :

كانت ادارة الدولة العثمانية في دور الترقي وعلى الاخص
شئوون المالية منها منظمة أحسن تنظيم اذ كانت مخصصات
السلاطين محصورة بقوانين لا يمكن معها ان يزاد على رواتبهم
بارة واحدة ولو وقع شيء من هذا القبيل فهو نادر والنادر
لاحكم له ولكن أحوال السلاطين تغيرت منذ أخذت الدولة
في الانحطاط وبقيت هـذه القوانين لا حكم لها حيث صار
سلاطيننا يعدون خزينة الدولة مالهم او ثروة ورثوها عن

اجـداده اذ يعتقدون ان الدولة ملكهم والشعب خدمهم ولا احد يملك فيها شيئاً . ولكن الوزراء الغيورين الذين ظهروا في اواخر سلطنة السلطان عبـد المجيد وعلى الاخص منهم المرحوم رشيـد پاشا وضعوا للدولة ميزانية منظمة وافهموا السلطان وجوب تعيين المخصصات التي تأخذها الاسرة المالكة وأقنعوه على تعيينها وبعد أخذ رأيه حددت مخصصات السلطان وجعلت عشرين ألف كيس ايماية الف جنيه شهرياً وأدخلت في الميزانية بموجب الارادة السلطانية الصادرة في السابع عشرة من شهر ذي القعدة سنة ١٢٧١ هـ وجعلت تخصيصات اولاد الاسرة الملوكية من ذكور وأناث خمسة وعشرين الف كيس وخمسين كيس سنوياً فعلى هذا الحساب يكون مجموع ما يعطى للعائلة المالكة نيفاً ومليون ونصف من الجنيهات لا مقطوعـة ولا ممنوعة .

ولو قلنا ان واردات الخزينـة كانت لا تزيد سنوياً عن عشرين مليون جنيه يظهر للقارئ هذا الغبن الفاحش ولا يصدق وقوعه في احدى ممالك الدنيا حتى عند القوم المتوحشون ومع كل ذلك فان هذه التخصيصات وان كانت رسمية ولكنها

بعيدة عن الحقيقة بمراحل لان حشرات السراى كانوا يسحبون من الخزينة على عهد السلطان عبدالمجيد في كل سنة مايدنو من المليوني جنيـه وكانوا يتجاوزون هذا الحد في أغلب الاحيان وليست اقوالنا هذه رجماً بالغيب او محض اختلاق بل هي مأخوذة عما نشره الموظفون الاجانب بنظارة المالية في ذاك العهـد مع مرور الايام . وبالجملة فان الاحوال في اواخر عهد السلطان عبد المجيد كانت عند هذا الحد . اما في أواخر عهد السلطان عبد العزيز فيستنتج مما نشره احد الموظفين الاجانب في أوروبا عن تسلط حشرات السراي على ماليـة الدولة وما تأخذه منها سنوياً وهو (١)

ان ما يتناوله السلطان عبد العزيز من خزينة الدولة سنوياً نيف ومليون ونصف من الجنيهات وزد على ذلك انه أخذ فى ظرف اربعة عشر سنة لانشاء القصور الشاهقـة ما يربو على السبعة ملايين جنيه ولم يدخل هذه الميزانيـة ماأنفق من الاموال على شراء المفروشات والحيوانات والجواهر وغيرها كما لم يدخل الميزانية ما أخذته الحشرات من اموال القروض

(١) L'économiste Français

التي عقدت مع الاجانب ولم يدخلها أيضاً واردات الخزينة الخاصة الغنية ولو جمعت كل هذه الاموال لكان ما أخذه السلطان من خزينة حكومته جزاء خداماته لها يربو على الخمسين مليون جنيه وهو حساب لا يحتاج لدقيق فحص او عميق بحث هذا هو سفه السلطان عبد العزيز في أواخر عهده وما أضر به حكومته وهذا الحال ناشئ بلا ريب عن عدم لياقته لهذا المقام الجليل وعدم اتصافه بالاوصاف التي يتصف بها الملوك . فاضطر بفعاله هذه مأموري الحكومة على ان يدوسوا بأرجلهم القوانين والنظامات وحقوق الدولة والوطن حتى جهل كل من الموظفين في اعلى طبقات الحكومة قدر وظائفهم ومسئوليتها وهذا السلوك اي نتيجة اطوار الوارث السفيه كانت تنذر الجميع بقرب وقوع الدولة العثمانية في هوة لا نجاة لها منها .

﴿ احوال الوكلاء ومسلك مدحت باشا ﴾

مركز الحكومة في أواخر سلطنة السلطان عبدالعزيز — مسلك الوكلاء العثمانيين السقيم — مدحت باشا — شيوع خبر مؤآمرة حسين عوني باشا وشيرواني زاده رشدي باشا ومدحت باشا على خلع السلطان لاول مرة — اختلاط مدحت باشا بالعلماء — انتظار المستقبل

لا بد لنا من ايضاح الهفوات التي وقعت من الموظفين في اعلا طبقات ادارة الدولة على أواخر عهد السلطان عبدالعزيز في الاستانة التي هي مركز ادارة البلاد العثمانية والمحور الذى تدور عليه كافة أمور الدولة العثمانية بما يلي :

كان السلطان عبد العزيز ومحمود نديم باشا يفعلان فى الاستانة ما يريدان بدون معارض واتحدا معاً حتى أوصلا حالة البلاد العثمانية الى درجة لم يبق لها في الخارج ذرة من الاعتبار ولا في الداخل شيئاً من الراحة والامن . فالسلطان لم ير من الدنيا سوى اللهو والمسرات كما غرق نديم باشا في بحار الاموال التي يبذلها عليه،اغناتيف،وبقي امام تلك القراءالروسية كالتمثال حتى اصبح الباب العالي وامور الحكومة جميعها آلة صماء في قبضة، اغناتيف ، يديرها كيفما يشاء ويوجهها اي جهة

شاء وهكذا كانت احوال الدولة تزداد وخامة يوماً عن يوم ولكن :

أهل عدمت الاستانة اهلها في ذاك الحين ، أليس من مشتك هذه الفعال ، اما من واحد يتألم لهذه الاحوال ، اما من احد يسأل عنها ؟

فان كانت الاهالي عبارة عن المسلمين الذين يقطنون مقاطعات الاناطول، والروم ايلي فهؤلاء يقدسون ذاك التمثال الذي تنبعث عنه عوامل الظلم والاستبداد حيث قد اسدل على عيونهم برقع الجهل الذين هم غارقون فى بحر سيئاته منذ قرون . هم اعتادوا على تحمل انواع الذل والهوان حتى اصبحوا يعدون مجاهرتهم بطلب حقوقهم المهضومة « خروجاً على السلطان »

فالاهالي اعتادوا على تحمل عبء الظلم الثقيل حيث لم يذوقوا مدة حياتهم لذة العدل والانصاف . فلو طالعت تاريخ هذه الامة من الملة الاسلامية في عهد الدولة العثمانية لما رأيتها انصفت في دور من أدواره فالاستبداد مثقل كواهلها منذ القديم . ومع مغايرته للشرع المبين المحمدي تر الحكومة نفسها

آمنة سوء المغبة ولذا لا تفتر عن اتيان المظالم والمغارم . اما اهالي الاستانة فان معظمهم يستخدم في دوائر الحكومة واقلامها ويترقون في مناصبهم ومعاشهم من وراء استبدادها وعليه تجد اكثرهم يرجون دوام هذا الحال في ادارة الدولة لئلا تسلب منهم نعمهم حيث يعلمون انهم اكثر الكل استفادة من وراء هذا الاستبداد فالحكومة لهذا السبب آمنة ايضاً جانب اهالي الاستانة .

وهكذا كان لا يوجد بين الاهالي من يشكو مظالم السلطان عبد العزيز جهاراً او يتأفف منها في مبادئ هذه الاحوال ولكنه وجد اخيراً بين الاهالي من يتجاسر على اظهار عدم رضائه عن هذه الافعال

وهذه الفئة تنحصر في بعض رجال الدولة واركانها ولكن ما السبب في عدم رضاهم ؟ لنفحص أولاً هذه الجهة ولا بد لمعرفتنا هذا السبب من تقسيم الوزراء المعارضين لسير الاعمال في ادارة الدولة حينذاك الى قسمين .

فالقسم الاول هم اصحاب الافكار القديمة وهؤلاء كانوا اكثر الناس كدراً من هذه الفعال فحكموا بعد ان شاهدوا

بعينهم مجرى الاحوال في ادارة الدولة على ان الملة ستقع قريباً
في ورطة هلاك قل ان تنجو منها وطفقوا يعدون دفع هذه
المحاذير من اقدس الفرائض عندهم طالما هم اصحاب الحل
والعقد في ادارة الدولة فكانوا يتمنون من صميم فؤادهم ازالة
هذه المنكرات. ومع هـذا فان هؤلاء الرجال كانوا لا يعلمون
ضالتهم المنشودة من هذا الانقلاب الذين يسعون وراء حصوله
ولم يدركوا مدلوله بل كان جل غايتهم ازالة تلك المساوئ التي
يرونها باعينهم وكانت شغلهم الشاغـل ومنتهى آمالهم. فانهم لم
يكونوا يقدرون الامور الضرورية التي هي نتيجة احوال هذا
العصر العمومية كما لم يدر بخلدهم التشبث باصلاحات جدية او
بالحري فهم لا يقربون هذه الجهة ولا يريدونها. وزد على ذلك ان
اكثرهم كان من الجهلاء الذين لا يدركون معنى المدنية الحديثة
ولا وقوف لهم على أحوال العالم حتى انهم كانوا يعتقدون ان تبديل
أحوال الدولة على حسب مقتضيات الزمان من الامور المستحيلة.
فتراهم يتمسكون بالقديم قائلين « هذا ما كانت عليه آباؤنا » ولا
يتركونه ما دام فيهم رمق من الحياة.

ولذا نرى وكلائنا لم يهتموا حينئذ بانتهاج محجة الاصلاحات

التي وضعت على عهد السلطان محمود خان تدريجياً وتعميم العلوم والمعارف وهي اكبر سلاح يتقلده الاوروپيون للزود عن حقوقهم بيننا مهما بلغت شدة الاحتياج اليها بل ذهبوا مذهب التمسك بالقديم ولم يعلموا ان سلامة الملة والدولة تتوقف على تعميم المعارف وكان اكثرهم يعد هذا الامر مروقاً عن طاعة الله وتقليداً للنصرانية ويعارض فيه أشد المعارضه فعلى زعم هؤلاء ان استئصال شأفة هذه المساويء التي عمت بلادنا وفتكت بالاهالي فتك الوباء لا يمكن الا باعطاء الوظائف العالية لمن يعدون من محبي خير الدولة وصوالحها من الوكلاء وهي أقصى ما كانت ترمي اليه أفكارهم وغاية ما تدركه عقولهم . وصفوة القول ان هؤلاء الوكلاء الذين نوهنا عنهم لا تنكر محبتهم لاوطانهم وسعيهم وراء منفعة بلادهم واصلاح ما اختل من أمور دولتهم ولكن مع هذا كله فان اعتقادهم هذا لم يكن من الامور التي تخرج بالدولة الى ساحل السلامة أو تنجيها من أمواج بحر ذاك الاضمحلال المتلاطمة وهو امر لا ريب في صحته

وكان بين هؤلاء الوكلاء الذين هم من القسم الاول رجال يكرهون بعض الذين تولوا الوظائف العالية في ادارة

الدولة وازداد نفوذهم وطارت شهرتهم وعلى الاخص منهم محمود نديم باشا كرهاً لا مزيد عليه حتى اصبحوا وفي قلبهم نار تتأجج لاخذ الثار منهم ولوكانوا في بروج مشيدة .

أما القسم الثاني من الوكلاء: فكان افراده عبارة عن شخص واحد الا وهو الغني عن الوصف والتعبير ذاك الشهم الاداري الحازم من يستحق كل مدح واطراء مدحت باشا شهيد الملة والوطن فأفكار هذا الرجل وذكاؤه المفرط بعيد عن وصف الواصفين اقواله المؤثرة ونفوذه واقتداره اعظم من ان يدرك حتى اذا سمع أحد اسمه وخداماته للدولة، ومصيبته الاخيرة لا يمكن عدم الانفعال معها مهما كان السامع عديم الاحساس فمدحت باشا أوتي من الذكاء والعقل وسعة الاطلاع على عواقب الامور اقصى درجة يوهبها الباري لقليل من الناس حتى ان ألد أعدائه يعترفون له بهذه الخصائل والفضائل عدا عما كان له من الشغف الزائد بالوطن وعدم التداني لارتكاب ما كان يرتكبه غيره من الرشوة أو بيع الوطن كما تباع السلع او سقط المتاع

وكان مالكاً من الكمالات العلمية ماتؤهله لاحراز أعلى طبقة فى أي وسط عاش او بين اي قوم وجد كما انه كان مفطوراً على

الجسارة وحب الشهرة الحقيقية محبة عظيمة فلا يرجع عن شيء تشبث في اجرائه مرة ولو حال دون مبتغاه الف حائل وحائل اذ عنده ان الرجوع الى الوراء ضرب من المحال فلا ترهب اعينه المشكلات العظيمة التي تقف امامه حجر عثرة بل يظهر المعجزات في ايجاد التدابير قصد الوصول الى ما يريده ويهواه. غني القريحة : لا يتأخر ولا يعجز عن اختراع الحيل والدسائس السياسية .

ذو نطق مؤثر : وفي تدبير أمور ادارة الدولة مقتدر وماهر أوتي . «داهية الترك» هذا من سعة العقل وشدة الذكاء ما يمكنه من اجتياز العقبات التي يعذر معها كل حديث في مسلكه كعدم حصول التوفيق أو نقصان الممارسة ولو وجد في أى شعبة من ادارة الدولة العثمانيـة . فقد خلق شاذاً بين الوزراء العثمانيين اذ لا يخلو الامر من حدوث بعض الهفوات منهم وهي أعذار مقبولة لغيره ولكنها معدومة عنده

كان هذا الرجل أحد المعارضين لمجرى السياسة الخرقاء في أواخر عهد السلطان عبد العزيز فأفكار مدحت پاشا فى هذا الشأن وماله من الآمال العالية التي كانت منبثة في اعماق روحه وأحواله

ومشربه تخالف كل المخالفة آمال وأفكار الوكلاء الذين ذكرناهم قبلاً حيث ان المشار اليه يعلم حق العلم سوء عاقبة الاحوال الجارية واستحالة رفعها بعزل الوكلاء المضرين من ادارة الدولة وتعيين النافعين فيها كما كان يعلم تماماً ان لا بد للمحافظة على سلامة الدولة والملة من أحداث تغيير في أصول ادارة الدولة وافراغه في قالب أهم وأنفع وحصول انقلاب جدى داخل الممالك المحروسة

وكان كما قدمنا قبلاً قد تقلب في وظائف عديدة بجميع اقسام ادارة الدولة منذ زمن شبوبيته ووقف على دخائل الامور والاسباب المانعة لادارة الاحكام على محور الشريعة والعدالة وقد شخص منشأ الداء وعلم أسبابه فرأى ان الداء الوحيد فى اضمحلال الدولة ومصيرها الى الخراب هو الاستبداد الذي أخذ يزداد عندنا منذ ثلاثة قرون بصورة تخالف العقل والشرع وبصورة لم يرَ لها مثيل في جميع انحاء المعمورة وهو تشخيص حكيم حاذق لا ريب في مقدرته فقد شخص الداء وعرف له أحسن دواء وصحة هذا التشخيص ومقارنته للحقيقة تزداد يوماً عن يوم حتى أصبح لا يشتبه في صحته كل من ذاق

طعم الظلم الذي نحن عليه الآن فقد بلغ درجة لم يصل اليها في قديم الزمان . فمدحت پاشا قد طار صيته بما أتاه من الخدم العديدة في ما تقلده من الوظائف جميعها وبما أظهر فيها من ضروب اللياقة والاستعداد الفطري وكان قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات قد ترقى حتى بلغ منصب الصدارة ولكنه لم يلبث في هذا المنصب كثيراً اذ كان الوكلاء الذين يرجون الفائدة والبقاء في مناصبهم من وراء تملقهم لاهل السراي والتفافهم حولهم يحسدون المشار اليه ولا يحبونه أوبالحري يخافون شره وسطوته ولذا لم يكتفوا باسقاطه عن منصب الصدارة ولم يأمنوا جانبه بعد عزله فسعوا جهدهم في ابعاده عن الاستانة واتحدوا مع حشرات السراي حتى نفوه ولكنه تمكن من العودة اليها بعد زمن غير طويل وفي أثناء هذه الفترة التي نحن بصددها كان في الاستانة وله فيها عدة سنوات بعد عودته من منفاه .

وكان مدحت پاشا نابغة وزراء عصره وأقدرهم اطلاعاً على عواقب الامور وذا مسلك مخصوص والادلة كثيرة على حسن صفاته هذه ويمكن اثباتها بما كان يدور بخلده من التصورات والتفكرات الكثيرة التي كان يتصورها لتخليص وطنه مما كانت

عليه من الذل والهوان

فالرجال الذين كانوا يرومون انقاذ وطنهم مما كان عليه من الاحوال المشؤومة يشكلون القسم الجزئي من الوكلاء وكان لا يخطر على بال اكثرهم التشبث بشيء حيال هذه الامور والمشكل في كثرة هؤلاء وزد على ذلك علمهم علم اليقين ما ينتج من سوء العاقبة عند عدم اتمام أربهم فلم يتجاسروا على ولوج باب أمر وخيم العاقبة كهذا . فمسئلة الخلع على زعم العوام تفريط في حق السلطان والغالب على الظن ان هذا الاعتقاد هو السبب الوحيد في عدم جسارة هؤلاء الوكلاء على الخلع فلا عجب اذا وجد بين الوكلاء العثمانيين رجال من هذا القبيل في كل آن . حيث انهم جهلاء ولا يعلمون انهم مسئولون امام الله وعند الناس والملة بل كان اكثرهم يعتقد ان منشأ سعادتهم التي هم عليها هو السلطان ولا علاقة للملة برفاهيتهم ولا يفكرون في حقيقة يمكن الوقوف عليها لدى أقل تفكر وهي :

مصير السلطان سلطاناً واكتسابه للسلطنة والشوكة كل ذلك من كرم الامة فالسلطان بدون الامة لا يخرج عن حد رجل عادي ولا حاجة به لاحد وما دام السلطان

والوكلاء قد نالوا هذه الوظائف العالية بظل الامة فهم مدانون لها عقلاً وشرعاً . ولكنهم لا يدركون هذه النقطة وعلى زعمهم ان سلطانهم ولو بلغ ظلمه ما بلغ أومهما كان مضراً فالقيام عليه وخلعه ضرب من ضروب الخيانة كما انهم لايتهمون السلطان بالخيانة مهما ناب الامة من مظالمه ومغارمه أو وقعت بيد الاعداء بلاد سفك على فتحها دماء ملايين من شهداء الحمية بل يكتفون بقولهم « قدر فكان »

فوكلاؤنا في ذاك الوقت بل في يومنا هذا لا يزالون على تلك الافكار القديمة ولا حاجة لاثبات ما هم عليه الآن من تباين الآراء وتنوع الافكار . فلو كانت مثل هذه المعتقدات الباطلة عند العوام لما أوخذوا عليها ولكن ماذا نقول عن كبار رجال دولتنا الذين هم أصحاب الحل والعقد في أمور الادارة اذا كانت هذه الاعتقادات راسخة في عقولهم بدلاً من تحريهم الاسباب الموجبة لهذا الاضمحلال وهم أجدر الكل بحل الغوامض ووقوفهم تماماً على مجرى الاحوال في ادارة الدولة ؟

لا ندري : سوى اننا ندعي بدون تردد عدم لياقة هؤلاء الرجال للمناصب التي يشغلونها وهي الكلمة الحقيقية التي لا يحتاج

اثباتها لدليل أو برهان . فاذا كان شئ يشفع فيهم ويخلصهم من اللوم على قدر الامكان فهو معرفتهم ما ناب أسلافهم من الوزراء العثمانيين الذين عرفوا قدر وظائفهم وماهم مدانون به للامة وخدموا خدمات تذكر فتشكر من ظلم سلاطينهم الذي لم يتخلصوا منه وذهبوا ضحية خداماتهم فوزراؤنا الحاضرون ينظرون باعينهم الى عاقبة من تقدمهم من الوكلاء الغيورين فيرون أنفسهم عرضة للأخطار

أما مدحت پاشا فلم يكن في هـذه الدرجة من الجبن والخوف وقلة الثقة بنفسه اذ كان يعلم تماماً جواز تضحية السلاطين عقلا وشرعاً في سبيل سلامة الامة وسعادتها وضرورة محوهم من صفحات دفتر الوجود اذا كانوا هم العقبة الكؤد في سبيل تقدمها وان الوكلاء ليسوا سوى حلقة الاتصال بين الامة وسلاطينها وان محافظتهم على الامة وردهم عنها ما يطرأ عليها من الاحوال المضرة أقدس عمل يؤدونه فهم المسؤلون عن جميع ما يصدر من الهفوات التي تؤدي لمحو الدولة وانحطاطها كما كان يعلم ان اطاعة السلاطين الذين لا يفكرون في شئ سوى شهواتهم النفسانية ولذائذهم الذاتية يغاير جميع القوانين

الموضوعة والطبيعية ورضوخ الملة وسكوتها عن هذه الاحوال
لا ينتج سوى الاضرار البليغة ولو ان شخص السلطان مقدس
بعد اعتلائه سرير الملك والخلافة ولكنه لا يخرج عن كونه
شخصا كبقية الاشخاص فمن العبث ان يقدس مقام فرد يريد
من أمة يربو عددها على الملايين ان تنقاد الى آرائه وأفكاره
المضرة ويستعمل سلطته في ما يوافق أهوائه ويشتت شمل
الدولة ويقهرها وعليه فاحترام شخص كهذا حرام عند الملة
الاسلامية التي تشرفت بدين يكره الظلم والظالمين ويأبى الا
الحكم بالعدل بين جميع المسلمين بل من المستحيل رضوخ احدى
هذه الامم لاحكام كهذه مبنية على الاستعباد والحقارة التي لا
يقبلها المتوحشون وتنفر عنها الحيوانات الضارية . وما دام ان
الظلم اساس كل شيء في الدولة فازالته وامحائه فرض عين على كل
وزير محب لوطنه ساع لخيره من الوزراء العثمانيين وان التكاسل
في دفع هذه المظالم والمغارم لمن الجنايات العظمى والخطايا
الجسيمة التي لا يصح السكوت عنها فكل هذه الاحوال كانت
معلومة عند مدحت پاشا وبناء عليه كان يلقي تبعة تلك الثورات
الداخلية على عواتق وزراء ذاك العهد ولم يستثن نفسه بل عد

شخصه من جملة المسؤلين عنها . فقرر لزوم صرف الهمة لازالة
تلك المساويء الحاضرة وتخليص الدولة مما هي عليه من
السقوط العاجل . ومن الروايات التي يوثق بصحتها ان مدحت
باشا كان قبل هذه الفترة بثلاث سنوات أي منذ تولى الصدارة
أول مرة قد رأى ما هي عليه الدولة من كثرة الاختلال والاعتلال
فلم يستحسن سير هذه الاحوال وعلم انها ستقع عما قريب في
ورطة هلاك لا نجاة لها منها فاراد خلع السلطان لتخليصها
وتشبث في خلعه ولكن حال بينه وبين الخلع موانع كبيرة
فاضطر حينذاك على تأجيله الى حين . ويقال انه قد جرت
مذاكرة بهذا الشأن بينه وبين كل من المرحوم حسين عوني باشا
وبين شيرواني زاده رشدي باشا الذين هم أصدقاؤه الخصوصيون
وتذاكروا في الامر واكثروا من البحث والتنقيب ولكن داخلهم
الشك من أحوال شيرواني زاده رشدي باشا الخصوصية حين
أرادوا مباشرة الاعمال وزد على ذلك ان السلطان عبد العزيز
استدعاه في تلك الساعة ودار بينه وبين السلطان مذاكرات
خفية استغرقت بضع ساعات فازدادا شكاً منه وخافا سوء
المغبة فاتحد كل من مدحت باشا وحسين عوني باشا عليه كي

لا ينالا أشد العقاب اذا هو أفشى هذا السر للسلطان ودأبوا وراء نفيه حتى أبعدوه عن الاستانة ولكنه توفي في منتصف الطريق بينما هو سائر الى منفاه

والروايات مختلفة على كيفية وفاته فالبعض يدعي ان وفاته نشأ عن اليأس الشديد الذي خامر فؤاده من غضب السلطان الذي لحقه والبعض يدعي ان جميع هذه الروايات مختلقة لا أصل لها وهي من قبيل المبالغات والاراجيف بل انما وفاته نشأ عن ما دسه له مدحت پاشا وحسين عوني پاشا من الدسائس . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي انمدحت پاشا نفي بعد موته بيرهة من الزمان وأبعد عن الاستانة . وعلى كل حال فان فكرة خلع السلطان قد ظهرت لعالم الوجود في هذا الدور حيث ان مسئلة الانقلاب قد تداولت على السن الخلق في المحافل الخصوصية قبل حصولها بزمن غير قليل وهي توضح تماماً انها انما نجمت عن تلقينات مدحت پاشا وحسين عوني پاشا وتشويقاتهم التي اشاروا اليها من طرف خفي . وهي حقيقة ما وضع موضع التداول من المذاكرات اذ لا يخفى على كل عاقل ان الانسان مهما بلغ من القوة المادية والادبية

ومهما كان قوي الارادة ثاقب الفكر لا بد له من معين على اتمام مايبتغيه وعلى الاخص في المسائل التي تتعلق بادارة الدولة ليتوفق فيما تشبث في اجرائه . فاظهار فكرة الخلع التي تقررت بين عدة اشخاص من حيز القول الى حيز الفعل تتوقف على دراية واقتدار وجسارة ومتانة خارقة لما هي عليه من الصعوبة وعلى الخصوص فان التسرع في اظهارها لما يوجب الندم اذ لا بد من اكتساب موافقة الرأي العام حيث لا يستبعد حصول ثورات عظيمة تراق فيها دماء كثيرة ان لم يؤمن جانبها من قبل ولذا كان شهيد الوطن المرحوم مدحت پاشا يشتغل فيها قبل حصولها بكثير من الزمن

فمساوئ الاحوال في ادارة الدولة ظاهرة للعيان ولكن قل من يعترض عليها او يشتك منها وبناء عليه رأى من الضروري مراجعة الصنف الذي هو اكثر الجميع تأثراً من هذه الاحوال والذي يمكن بواسطته الحصول على هذا المقصد بسرعة وسهولة وهذا الصنف هو العلما . ولذا كان يعلم مدحت پاشا ان لا بد من استمالة العلماء نحوه حيث انهم الواسطة الوحيدة في قضاء هذه المهمة كما انهم كانوا اكثر الكل معارضة للهفوات

التي تصدر من حشرات السراي واكثرهم وقوفاً على حقيقة ما يجري في عموم ادارة الدولة من مساوئ الافعال . وعليه حصر المرحوم همته في استمالة بعض ذوي المكانة السامية من علماء الاستانة وسعى في ايجاد الوسائل لتمتين عرى المحبة معهم فشاد كوشك صغير وغرس حوله كرم لا يتجاوز عدة فدادين خارج الطوپقپو[1] في عزلة عن العالم وهذا الكوشك لا يزال معروفاً الى الآن بكوشك مدحت پاشا فكان يدعو نخبة العلماء اليه في بادئ الامر الواحد بعد الآخر ثم صار يدعوهم زرافات وكان ينادمهم ويصاحبهم طويلا حتى ازدادت معهم صحبته وتوثقت عرى محبته ولم تكن غايته من مصاحبتهم ومجالستهم اضاعة الوقت بل كان يتخذها واسطة يتوصل بها الى ضالته المنشودة ويبحث عن المساوئ الموجودة في ادارة الدولة التي هي مشتكى الجميع وموضوع القال والقيل عند الرفيع والوضيع . ولم تكن غاية ما يرمى اليه من هذه الاجتماعات المتوالية قاصرة على استحصال رضاء الحاضرين

---

(١) هو احد ابواب الاستانة تخرج منه الركائب براً الى عموم بلاد الروم ايلي

وموافقتهم على خلع السلطان وحصول انقلاب بسيط بل كان يشرح لهم احوال الادارة المطلقـة وما ينجم عنها وعن تطبيقها على ادارة الدولة العثمانيه وقد افهمهم بان السعي وراء تخليص الدولة مما هى عليه من الاضمحلال لايكون الا بوضع القانون الاساسي موضع التطبيق وحكم هذه الفكرة في عقولهم ليعلموا ان التشبث في نجاة الدولة من هـذه الاهوال واخراجها الى ساحل السلامة بدون هذا القانون ضرباً من المحال وأثبت لهم بالادلة الشرعية والآيات القرآنية والاحاديث النبوية والمؤلفات الاسلامية مطابقة أصول الشورى على الاحكام الشرعية وقد شرح لهم هذه الاحوال شرحاً مسهباً في مجالس الحب والمنادمة التي عقدها معهم فتمكن بمدة قليلة من استمالة جم غفير من العلماء نحوه ووقع رأي المشار اليه عندهم موقع الاستصواب والقبول فامنوه على سعيهـم من الآن فصاعدا وراء حصول هـذا المقصد الشريف وانهـم مستعدون لفداء ارواحهم اذا اقتضت الحالة وهكذا حصل على موافقة العلماء ورضائهـم فراجت فكرة الشورى عنـد هؤلاء العلماء الذي كان وقتئذ

عددهم ينيف على الاربعين الف [١] رواجاً باهراً حتى كانوا يتحدثون فيها في مجالسهم الخصوصية كلما حصل عندهم اجتماع وكانت تتسع يوماً عن يوم حتى عمت جميع أهل الاستانة

وهكذا انتقل هذا الفكر الشريف الى أهالي الاستانة عن غير جهة فاثر على الرأي العام تأثيراً كبيراً وحاز عندهم قبولاً عظيما

وكان مدحت باشا يعتمد على حزب تركيا الفتاة في وضع القانون الاساسي وأصول الادارة الدستورية والمحافظة عليها حيث انهم أصحاب الاقلام السيالة الذين اكتسبوا ثقة الاهالي ومحبتهم بما كانوا ينشرونه من النشريات الحرة الحقيقية اذ كان لهم اليد الطولي في قبول الاهالي للقانون الاساسي وتعلقهم باهدابه حتى ان الاهالي كانوا يحافظون على نسخ جرائد الاحرار حفظهم على أرواحهم وقد كنا وفينا هذا البحث حقه من الكلام وقلنا ان جرائد الاحرار التي انشئت في باريز راجت عند الاهالي رواجاً كبيراً حتى وصلت قيمة النسخة الواحدة

(١) ولكن انقص عددهم منذ اعتلى السلطان عبد الحميد أريكة الخلافة الاسلامية

من جريدة « حريت » التي كانت تدخل الاستانة سراً بجنبيه عثماني . وزيادة على ذلك نقول ان الحكومة مع شدة مراقبتها على جرائد الاحرار التي تنتقد أعمال الحكومة انتقاداً مراً كجريدة « حريت » وغيرها ومنعها من الدخول داخل البلاد العثمانية اعطت مطبوعات الاستانة نوعاً من الحرية اذ لم تكن كما هي عليه الآن في حالة الاسر والتضييق بل كانت تكتب أفكارها بحرية ضمير على قدر الامكان . ولنترك هذا البحث الآن ونرجع القهقرى الى ما كنا عليه فنقول: ان المرحوم مدحت پاشا كان يرمي الى غرضين من هذا الاجتماع يريد اصابتهما بسهم واحد: الاول وضع القانون الاساسي والثاني خلع السلطان عبد العزيز فكان يجالس العلماء ويصاحبهم ويستميلهم نحوه ويسعى لاستحصال رضاهم على خلع السلطان من جهة ومن جهة أخرى كان يحرض جرائد الاستانة التي تتكلم بحرية ضمير « كما أشرنا سابقاً » على انتقاد أحوال ادارة الدولة وتهييج الرأي العام تدريجياً وتشويقه على الانقلاب الحقيقي لتخليص الدولة مما هي عليه من السقوط والخروج بها الى ساحل السلامة . ولا حاجة بنا لاثبات ما يعتري مسئلة الخلع من المشاكل الكثيره وما ينجم

عن التسرع ونقصان التدبير فيها من الاضرار البليغة

ولو ان مسئلة الخلع لم تكن بالشيء الجديد عندنا اذ تقدمتها مسائل كثيرة من نوعها ولكن يفهم بأدنى ملاحظة ان وضع القانون الاساسي لا يسهل حصوله وعلى الاخص عند أمة لم تسمع له اسم من قبل ودون قبوله مشكلات عظيمة تعتري القائمين بوضعه وتنفيذه وزد على ذلك وجود عقبتين كئودتين اكثر ممانعة من الاهالي في وضع هذا القانون

واحدى هاتين المشكلتين هي الوكلاء المتمسكون بالتقاليد القديمة وأصحاب العقول المظلمة والثاني هي حشرات السراي الذين لا تستبعد رغبتهم عن هذا القانون الذي يقضي على منافعهم الذاتية القضاء المبرم ومن المحتمل معاكستهم له على قدر ما يستطيعون من القوة ولهذين السببين كان يحتمل حصول مشكلات عظيمة تحدث بواسطتهم فيضعونها لتكون حجر عثرة في سبيل وضع هذا القانون وهكذا كان لا بد من وضع هذه المشكلات التي يمكن حدوثها من أهل السراي والوكلاء وعوام الناس نصب أعين من يريد خلع السلطان ووضع القانون الاساسي حين التأكد من وقوع الدولة في مصيبة وحينئذ يختار أهون

الشرين اذا لم يكن انجاتها سبيل آخر . فقد قدمنا قبلا ان الطبقة الثانيـة من الاهالي والوكلاء وعلى الاخص حشرات السراي سيعارضون بلا شك فى وضع هذا القانون حيث قد اعتادوا اصطياد الاسماك من معكر المياه [١] فلا يقربونه ولا يبتغون وضعه اذا لم يوضع رغم أنوفهم اذ هم يعتقدون انه انما وضع ليكون حائلاً بينهم وبين استفادتهم من ادارة أمور الدولة وخزينتها ولا يعلمون شيئاً أو بالحري لا يريدون ان يعون غير ما اعتقدوا حالة كون العلائم ظاهرة تنذر بوقوع الدولة في بحر مصائب عميق وحدوث بعض الاحوال التي لا تحمد عقباها داخل البلاد العثمانية ولا بد باتياننا بنبذة عن هذه الاحوال ليتسع للقاريء مجال الفهم على ما سيأتي من الوقائع .



(١) مثل يضرب لمن يستفيد من اضطراب حال الدولة او الامة

﴿ الثورات الداخلية والمداخلات الاجنبية ﴾

بعض الملحوظات على محاربة الروس مع الدولة العلية — مفاسد الجمعية السلافية في بلاد الروم ايلي — مفاسد الجنرال اغناتيف — ثورة الهرسك ونتائجها — التكاسل في مركز الحكومة بهذه الفترة — مسألة القناصل — المداخلات الاجنبية — نوطة القونت آندراسي —

لو عطفنا نظراً دقيقاً على كيفية محاربات الدولة العلية مع الروسية لرأينا الاخيرة تخوض غمار الحرب معنا في كل عشرين سنة مرة منذ عهد بطرس الاكبر حتى الآن ولا تظن ان هذا الحال ناشأ عن الصدفة أو توافق الزمان اذ هو خطأ ظاهر باجلى بيان لا يعتقده الا كل من تعود سياسة الهزيان . فاذا دققت معنا تدقيقاً دقيقاً تتضح لك الاسباب الداعية لنشوب هذه المحاربة في كل فترة وآن :

مهما كانت صفة المحاربة وعلى أي صورة وقعت فانها بلا شك تزعزع اركان الدولتين المتحاربتين على السواء وتنهك قواهما وعلى الخصوص اذا دامت مدة طويلة .... حيث ان الحكومة تصرف عظيم همتها على المحاربة كي تأتي لها بالغرض المقصود وتتخذ كل واسطة لفوز جنودها على الاعداء فتغض

النظر حينئذ عن احوال الملك وتضرب صفحاً عن التجارة والزراعة والصناعة فتتعطل حركة البلاد وجميع ما يتعلق بحياة العباد . وزد على ذلك مصاريف الحرب الباهظة فانها توقع الخزينة بعسر شديد وتخرب ماليتها . ولهذه الاسباب ترى الدولة المحاربة بعد خروجها من الحرب مهما كانت غنية في المال والرجال ومهما كانت عليه من سعة الجانب لا بد لها من وقت طويل ريثما تتنفس الصعداء وتصلح احوال ادارتها الداخلية

وقد جرب الروس هذه الاحوال مراراً ولذا تراهم يلتزمون الحياد مدة طويلة بعد كل محاربة اثاروا غبارها علينا وخاضوا أغمارها معنا كي يستريحوا من عبء الحرب الثقيل ويتموا نواقصهم ويصلحوا ما اختل من أمور ادارة دولتهم ولا يتعرضون لشيء ما حتى اذا ما أنسوا في نفسهم الكفاءة اثاروا غبار الحرب مرة أخرى . وهي أحد الاسباب الداعية لمحاربتهم معنا في كل عشرين سنة مرة لا يقدمون ساعة ولا يؤخرون

وعدا ذلك فان الحكومة المذكورة تشتبك في الحرب بعض الاحيان مع غيرنا من الدول كمحاربتها مع فرنسا على عهد

ناپوليون الاول ومحاربتها مع السويد بعد فراغها من هذه المحاربة كما اضطرت على حشد جيش جرار لاخماد الثورة المجرية في سنة ١٨٤٨ وجملة هذه الاحوال الهتها عن التحكك بالشرق ولو مدة قصيرة . وما حدث من الثورات الكثيرة داخل بلاد هذه الدولة اضطرها على بذل كل نفس ونفيس لتسكين العصيان وهو الذي أوهن قواها وكان اكبر رادع لها عن تعرضها للشرق . وبعد محاربة القريم بخمس سنوات سعت الروسية بعزم متين فاستأصلت شأفة ثورات القفقاسية التي كانت تتأجج نارها منذ خمس قرون واستولت على ما بقي خارج عن طاعتها من هذه القطعة وبعد ثلاث سنوات ظهر في بولونيا ثورة كبيرة فسعت كثيراً في اخمادها وصرفت عليها طائل الاموال وسفكت دماء كثير من الرجال حتى توفقت لاخمادها وبعد هذه الحادثة ببضع سنوات استولت على امارة « خيوا » الاسلامية في التركستان كما ضبطت بلاد كثيرة في هذه المقاطعة وربطتها بها ربطاً قوياً محكماً

ومع كل هذه المشاغل التي كانت تشغل الروس لم تغفل أعين الامة الروسية وحكومتها عن الشرق بل بقيا ينظران

اليها شذراً . اذ كان أخص امالهم تنفيذ احكام وصية بطرس الاكبر في ضبط المملكة العثمانية وعلى الاخص الاستانة منها حيث انها مطمح انظارهم والشغل الشاغل عندهم منذ عهده فبعد هذه المحاربة شكل عقلاؤهم الجمعية السلافية وهي كما قدمنا كانت اكبر عامل على قضاء مآرب الحكومة الروسية وتسهيل السبل في حل هذه المشكلة . وقد ساعدت الحكومة الروسية كثيراً اذ لم تتشكل حتى القت الحكومة وظيفة تهيج العناصر النصرانية في البلاد العثمانية على عاتقها واحضار ما يلزم من الوسائط لاقامة معالم الثورة القابلة وحصرت الحكومة جل همتها في ترتيب تفرعات هذه المادة في سنة ١٨٦٢ ميلادية عقدت هذه الجمعية اجتماعاً كبيراً في موسكو وطلبت من جميع الملل السلافية ارسال اعضاء من قبلهم لحضور هذا الاجتماع . ولكن لم يلب دعوتها غير السلافيين الذين يقطنون بلاد الدولة العثمانية فذهب من بلاد الصرب والبلغار والجبل الاسود كثيراً من السلافيين واشتركوا بشوق زائد في مناقشة المسائل التي وضعت موضع البحث والتنقيب وامتنع عن حضور هذا المؤتمر سلافي النمسا متحلين كثير من الاعذار واكتفوا بارسالهم عبارات

الشكر لهذه الجمعية والثناء على اعضائها . وهـذا الاجتماع هو اول اجتماع رسمي عقدته الجمعية السلافيـة وقد اتخذوا تدابير عديدة لما يلزم اجراؤه في الثورات القادمه ومن جملة هذه المسائل مسئلة ما يجب عليهم اتخاذه من الوسائل عند سنوح الفرصة المناسبة لاقامة معالم الثورة فى جميع انحاء المملكة العثمانيـة وعصيان السلافيين فيها وقد وضعت هذه المسئلة موضع البحث والتنقيب فقرروا فيما بينهم اتباع الخطة التي تحققوا رجحانها على غيرها وهي :

ان يكون شهر موسكو المركز العمومي لهذه الجمعية وان يتشكل لها فرع آخر فى هذه المدينة وأن تكون مدينة (بكرش) مركز الجمعية الثانية وقد تشكل فى البوسنة والهرسك وبلغاريا وفى بعض المحلات الاخرى من المقاطعات المهمة جمعيات كثيرة تستتر تحت زيل الحماية الروسية وكنائس البلغار . ووظائف هذه الجمعيات تنحصر في بث روح الثورة عنـد أهالي الروم ايلى وتبشيرهم بواسطة الجرائد والمبشرين بقرب انقاذهم من نير الاتراك واثارة افكار العناصر النصرانيـة التي تقطن هـذه المقاطعات وتهييجهم على الترك وتقوية آمالهم فى حصولهم على

الاستقلال وتهيئة المحلات المناسبة من الآن لتخبئة الاسلحة التي ترسل لهم من قبل الجمعية المركزية وانتخاب الرجال الاكفاء الاشداء لاقامة معالم الثورة فى المستقبل وارسال الجواسيس داخل المقاطعات المتنوعة لاختبار أحوال المملكة العثمانية واستحضار جميع الوسائط اللازمة لتسهيل سبل العصيان وزرع بذور الشقاق بين العناصر المختلفة فى البلاد فدأبت الجمعية على هذا المنوال سنة كاملة واجتهد اعضاؤها بكل جد ونشاط وساروا على البروجرام الذي وضع لاول مرة فصادفوا فى كل أعمالهم نجاحاً باهراً كما اتضح من نتائج أفعالهم

كان مركز ادارة هذه الجمعية كما قدمنا فى شهر (موسكو) ولكن اغناتيف كان يعين لاعضائها خط الحركة ويهديهم الطرق التي يجب ان يسيروا عليها حيال كل طارئ فجائي يطرأ اوامر يقف لهم فى سبيل اجراآتهم حجر عثرة

كما انه كان الفاعل المطلق فى كل أمر من أمور الجمعية وقابض بيده على دفة الفساد يديرها كيف شاء ويوجهها الى أي جهة شاء وله الكلمة النافذة عند رجال الجمعية السلافية والكعب الاعلى بين اعضائها لا يأتون أمراً بدون رأيه ولا يعملون عملاً

بغير مشورته . وهكذا تمكن هذا السفير المحنك من الحصول
على ضالته المنشودة بواسطة هذه الجمعية حتى عم الفساد جميع
الممالك المحروسة فى زمن قليل ولكنه لم يبغ اثارة العناصر
النصرانية على الدولة قبل الاوان لغاية فى نفسه ولم يترك الفرصة
حين سنوحها بل باشر عمله بكل همة ونشاط اما هذه الفرصة فهي :
اننا نوهنا قبلاً عن ما وصل اليه نفوذ اغناتيف في ادارة الدولة
بعد وفاة عالي پاشا ولم يكتسب هـذا النفوذ الا بواسطة محمود
نديم پاشا ولكنه لم يلبث في صدارته الاولى طويلاً حيث ان
نفرة الاهالي منـه وعدم محبتهم له اضطر السلطان عبد العزيز
على عزله ولم يكن من خلفه في منصب الصدارة أحد غيره خان
وطنه وخدم سفير اعداء دولته وساعده على مفاسده الخفيـه
ومقاصده الدنية ولما كان محمود نديم پاشا أحب الناس على قلب
السلطان واعظمهم عنده قدراً ومنزلة استخدمه في أهم شعبات
الادارة كنظارة البحرية وغيرها ولكن مركزه هذا لم يكن من
المراكز التي يمكن معه ان يخدم سفـير الروس ويساعده على
قضاء أوطاره . ولذا جعل هذا السفير اعادة محمود نديم پاشا الى
منصب الصـدارة نصب عينيه واتحد مع حشرات السراي

الذين هم اطوع اليه من بنانه وتوسطوا له عند السلطان حتى تمكنوا من اسناد هذا المنصب الجليل اليه ثانية وكان ذلك في سنة ١٢٩٢ هجرية

ومن هذا التاريخ وقع مركز الخلافة تماماً فى قبضة حكومة الروس عدوتنا الازلية . ولم يكن الباب العالي هو الجهة الوحيدة التي وقعت تحت نفوذ السفير بل ان حشرات السراي والموظفون الأخرون كرضا پاشا رئيس قوميسيون المهاجرين وكثيرون من الرجال الذين تربعوا فى دست الوظائف العالية بهمة هذا السفير كانوا يخدمونه كما ان باب المشيخة كان تحت ادارة شيخ الاسلام حسن فهمي افندي الذي كان غريق بحر أموال السفير وهداياه

ومن المضحكات - وشر المصائب ما يضحك - ان شيخ الاسلام هذا لم يقدر حيثية منصبه حق قدرها بل كان آلة صماء في يد اغناتيف يديره كيف شاء . ومما يؤثر عن هذا الرجل وتداولته الألسن في النوادى الخصوصية في ذاك الحين انه قال ذات يوم لسفير الروس « أنت أحد عيناي وولدي حيدر العين الأخرى » وخلاصة القول ان الجنرال اغناتيف

نال في سنة ١٢٩٢ هـ من النفوذ في ادارة الدولة مالا يحلم به أحد من السفراء من قبل ومن بعد

وفي تلك الآونة كانت بلاد الروم ايلي جميعها كما قدمنا على قدم أهبة العصيان بما دسه اعضاء الجمعيات السلافية من الدسائس تنتظر اشارة الجنرال كما ان مركز الخلافة كان تحت نفوذه وله القول الفصل في جميع أمور ادارة الدولة أو بالحري كان الفاعل المطلق فيها . ولم يبق على السفير شئ يفعله سوى أمر واحد وهو حسن التصرف في الامور بعد ان أوصل الحالة الى هذا المركز الحرج . ولم يكن اغناتيف من الرجال الذين يضيعون فرصة كهذه فلم يقبض محمود نديم پاشا ثانياً على زمام الباب العالي حتى سعى في اظهار مقصده الاصلي بكل قواه وأمر أعضاء الجمعية السلافية بان تقيم الثورة في قطعة الهرسك التي هي المقاطعة النائية عن عاصمة البلاد العثمانية في الروم ايلي وثارت غبار الثورة على الخطة التي وضعها السفير من قبل وقد حدثت الثورة في ربيع سنة ١٢٩٢ هـ فبدأ قسم من أهالي الهرسك قبل هذا التاريخ بالامتناع عن دفع التكاليف الاميرية والضرائب المقررة بناء على تشويق أعضاء الجمعية السلافية ولما ان رأى

مركز الولاية هـذا الحال أرسل مفرزة من العساكر وكان القصد منها ارهاب الاهالي الذين امتنعوا عن اداء ما يجب عليهم اداؤه من الضرائب ولكن لم يأت ارسال العساكر باقل فائدة سوى مجاهرة من بقي مخلداً للسكون من اهالي قرى تلك المقاطعة بالعصيان وهبوبهم للثورة فاستفاد من هذا الحال أعضاء الجمعية السلافية الذين ارسلوا الى تلك الديار لايقاظ الفتنة والتحقوا بالثوار جهاراً بعـد ان بقيوا مدة مستترين تحت ذيل الخفاء . ومن جهة أخرى اوجب قرب هذه الولاية الى حدود النمسا والجبل الاسود انضمام جم غفير من السلافيين الى الثوار والتحق بهم قسم من اهل الجبل الاسود حتى بلغوا عدداً كبيراً

وهكذا انضموا جميعهم تحت راية أحـد الاشقياء المسمى « باكوپا ولويچ » وهو شقي مشهور من اهالي الجبل الاسود وكان قد اشتبك قبلاً مع الدولة العثمانية في عدة محاربات ورئس العصاة اكثر من مرة فقرروا فيما بينهم على ان يقاوموا العساكر العثمانية حتى يفنوا عن آخرهم ولما ان وصل الحال الى هـذا المركز وأخذ الثوار هذا الطور الجدي رجعت مفرزة العساكر المرسلة لتأديبهم القهقري نظراً لقلة رجالها ونفاذ ذخائرها فزادت

هذه الرجعة الثوار جسارة على جسارتهم . وكان والي البوسنة حيئذ درويش پاشا رجل خبير باحوال البلاد واقف على غوامض الثورات المتنوعة وأساليبها المتباينة اذ وجد في كثير من ثورات الروم ايلي ولكن ظهور العصيان وهلة أذهله واضاع رشده واعدمه التدبير . ومع هذا كله فقد ارتاء وجوب استعمال القوة امام الثوار فجمع القوة العسكرية الموجودة وزحف بها عليهم بدون اضاعة وقت ولكنه غلب على أمره في واقعة حدثت بينه وبينهم في ٢٤ تموز سنة ١٢٩٢ ورجع بعساكره من هذه المعركة بخفي حنين . فاوجبت هذه المغلوبية ازدياد نشاط الثوار واقدامهم على الثورة حتى سرت نارها الى جميع انحاء البوسنة والهرسك كما تسري النار بالهشيم . وانضم خلق كثير الى الثوار من أهالي هذه الولاية وأهالي الحكومات المجاورة لها «كالصرب» « والجبل الاسود » حتى بلغ عدد من اجتمع هنالك من الثوار نيف وبضع آلاف وعلى رواية أخرى ستين ألف او يزيدون

ولم تغفل عين اغناتيف بعد ان اوصل البلاد الى هذه الدرجة من الفوضى اذ لم يبلغه هذا الخبر حتى أرسل التعليمات اللازمة لاعضاء الجمعية السلافية وقناصل الروس هنالك مبيناً

لهم طريق السعي وراء نفخ نار الثورة وطرق ايجاد وسائل المداخلة وقد أظهر في مركز الحكومة العثمانيـة دراية كلية بهذا الشأن حيث ان القوة العسكرية العثمانية الموجودة حينئذ في البوسنة والهرسك كانت أقل من القليل فنادى أمراء عسكرية هذه الولاية طالبين من مركز الحكومة ارسال الامداد العسكري ولكن اغناتيف اخرهم عن ارسال العسكر قائلاً للوزراء العثمانيين « انكم اذا أرسلتم قوة عسكرية كبيرة وأسرعتم في ارسالها فثقوا تماماً ان هذا الحال سيؤثر على الرأي العام في أوروبا أسوأ تأثير ويذهبون الى انكم تقصدون من كثرة هـذه العساكر ذبح العنصر النصراني التي يقطن تلك البلاد دفعة واحدة » من جهة ومن جهـة أخرى قدم للباب العالي بلاغاً رسمياً عن لسان حكومته وفحواه (ان من الواجب على الباب العالي تشكيل قوميسيون يتألف من قناصل الدول العظمى وارساله الى محل الثورة لاخمادها بما تخذونه من الوسائط) ولم يقصد بهـذا البلاغ سوى افراغ المسألة في قالب سياسي وتزييد الاختلال ولما كان الباب العالي حينئذ طوع أمره لم يرَ من يعارض رأيه وفاز بامنيته

ولو ان الدول العظمى ابت التداخل في هذه المسألة في بادئ بدء ولكنها رأت من العبث امتناعها عن هذا الامر بعد ان رضى الباب العالي وهو حاكم البلاد وسيدها واضطرت على قبول اقتراح الحكومة الروسية وأعطت لقناصلها التعليمات اللازمة وتشكل وفد يتألف من قناصل الدول وارسل الى تلك الجهة وهي فاتحة ذاك الفصل المحزن . ولم يلبث ان ظهر استحالة حصول فائدة من ارسال هذا الوفد اذ لم تكن الغاية من ارساله حصول فائدة بل كان القصد منه تسهيل حصول مقاصد الجنرال اغناتيف . اذ غاية مايرمي اليه من ارسال هذا الوفد هو تشويق الثوار على الثورة وتزييد جسارتهم من جهة ومن جهة أخرى اكتساب الوقت لايقاد جزوة الثورة في البقية الباقية من قطعة الروم ايلي وتحريك ساكن المسألة الشرقية التي قرأ عليها صورة الحجاب منذ عشرين سنة وعرضها على أنظار الدول الغربية واعطائها صفة رسمية . ومن الزوائد ان نقول ان السفير نال جميع ماتمناه بواسطة هذه الثورة . اما وظيفة هذا الوفد فتنحصر في استفسار الثوار عما يبتغونه وتبليغ مطالبهم للباب العالي ونصحه على اجراء الاصلاحات التي تكفل حفظ الامن في

البلاد وتوزيع العدالة بين العباد . وقد قبل الباب العالي جميع
هذه النصائح الودية وأصدر عدة فرمانات تتعلق بالاصلاحات
وعين سرور پاشا قوميسير فوق العادة لمراقبة وضعها ولكن
العصاة لم يتركوا السلاح متخذين ارتيابهم في وضع الاصلاحات
الموعودة موضع التطبيق حجة حتى أعادوا جميع هذه المخابرات
بدون جدوى . وقطع النظر عن عدم حصول شيء بواسطة
القناصل فان الثورة قد تحولت الى مسألة سياسية ومن هذا
التاريخ فتحت أبواب المسألة الشرقية للحكومات الاوروبية
والمطبوعات الاجنبية ولكن مرور الايام كان يزيد بالطين
بلة وفي أحوال الدولة وخامة وتفصيل المسألة :

هي ان الدول الاوروبية جميعها كانت تلتزم في هذه المسألة
جانب الحياد حتى هذا التاريخ ومع هذا فان بعض الدول الاجنبية
الذين لاهم لها غير بقاء دولتنا معززة الجانب منيعة الجوانب كانكلتره
وفرنسا كانتا لاتفتران عن تقديم النصائح الوديه للباب العالي
بواسطة سفرائهما في الاستانة وعلى رأيهما ان لابد من اخماد ثورة
البوسنه والهرسك بالقريب العاجل وعلى أي وجه كان حيث
انهما يعلمان ما هي عليه ولايات الدولة العلية في أوروپا من

الاحوال وقد خافوا الا تسري نار الثورة الى هذه الولايات اذا
طال الزمان فيصبح التشبث في تسكينها ضرباً من المحال ولكن
اني للباب العالي ان يعير هذه النصائح اذناً صاغية والامر يومئذ
لذاك السفير الداهية . فلما رأى سفراء الدول ان الباب العالي
يصم اذنيه عند سماع مثل هذه النصائح من جهة ومن جهة
أخرى رأت ان الدولة العثمانية قد وقعت في قبضة الجنرال اغناتيف
سفير دولة الروس التي هي ألد اعدائنا اشمئزت نفوسهم من
هذه الاحوال فاعرضوا عنا بعد التفافهم طول تلك المدة حولنا
وحمايتهم لنا من مخالب اعداءنا ولم تلبث ان ظهرت نتائج
هذه الفعال

اذ لايخفى على كل من له المام بالسياسة ان دولة النمسا اكثر
الدول الاوروپية بعد الدولة العلية تضرراً من الثورات التي
تحدث في قطعة الروم ايلي مهما كانت درجتها وعلى الاخص
فانها مجاورة للولايات التي يكثر فيها الفتن فتقلق حركات الجمعية
السلافية بالها وتخاف لئلا تسري روح العصيان عند السلافيين
من رعاياها في بعض الاحيان وقد اجتمع فعلاً داخل مقاطعة
دالماچيا التي هي على حدود البوسنه والهرسك من الثوار جم

غفير وابتدأ بينهم القال والقيل الامر الذي اضطر النمسا على استعمالها القوة لتمزيق شمل هؤلاء الاشقياء وتدارك الامر قبل أن يزداد الخرق ويتسع ويقع القضاء حيث لا من يعصم ولا من يمنع . وبناء على هذه الملحوظات اتفق « الكونت اندراسي » رئيس وزراء النمسا مع الدول المعظمة على أن يرسل للباب العالي بلاغاً رسمياً لاخماد الثورة القائمة في ولاية البوسنه والهرسك في أسرع ما يمكن من الزمان حتى لا يبقى لافسادات الروس مجالاً ولا مكان . وقد أرسل هذا البلاغ رسمياً في ٣٠ كانون الاول سنة ١٢٩٢ هجريه وهذه هي محتويات البلاغ :

كتب الكونت للباب العالي بعد ان أوضح له أحوال ولاية البوسنه والهرسك وجميع ولايات الروم ايلي ايضاحاً وافياً ونبهه الى لزوم التشبث في اجراء الاصلاحات الاساسية المهمة لاخماد الثورة وهذه الاصلاحات هي عبارة (عن مساوات العناصر النصرانية بالعناصر الاسلامية في حقوقهم امام المحاكم وطرح الضرائب بصورة مناسبة ، وأن يكون وضع الاصلاح موضع التطبيق تحت مراقبة اعضاء هيئة التفتيش التي يتشكل اعضاؤها من أهالي تلك البلاد العثمانيين نصارى ومسلمين وغيرهم

مهما كانت صبغة هذه لاصلاحات)

اما الباب العالي فانه قبل هذه اللائحة بكل سرور ولكنه أهمل أمرها ولم يفكر في تطبيقها واجراء ما يلزم اجرائه من الامور الداعية لاخماد هذه الثورة حيث ان الحكومة العزيزية لم تكن من الحكومات التي تسعى في اجراء الاصلاحات وغيرها من الامور التي تعود بالخير على الدولة والملة اذ التبدلات التي حصلت في مركز الخلافة بعد هذا البلاغ ببضع أيام تركت الكل في هرج ومرج وزادت بالمركز حرجاً على حرج ولنبحث عن كيفية هذه التبدلات الآن طالما الوقت قد حان .



أول الفصل

أحوال الاستانة العلية — ازدياد الهياج عند الاهالي — حركات مدحت باشا — أحوال حسين عوني باشا — بلاغ الكونت اندراسي وتأثيره على أفكار الاهالي — اجتماع العلماء جوار جامع الفاتح وذهابهم الى الباب العالي — المواد التي طلبتها جمعية العلماء من الحكومة — تردد أهل السراى وتوسوسهم — اجتماع قناصل الدول في بك اوغلى — عزل محمود نديم باشا وحسن فهمي افندى ونصب محمد رشدى باشا وخيرالله افندى — انعكاس صداء الواقعة في اوروبا

كانت ولايات الروم ايلي في اوائل سنة ١٢٩٢ هجريه كما قدمنا كشعلة نار يزداد سعيرها كلما طال الزمان عليها ولكنها لم تكن كل البلايا التي سلطها الله على البلاد العثمانية بل كانت أحوال مركز الخلافة الاسلاميـة تزداد وخامة يوماً عن يوم وظواهر الحال تدل على قرب هبوب رياح مشؤمة تجعل سافل البلاد عاليها . وقد نوهنا في فصول تقدمت ان السلطان عبدالعزيز عزل وولى سبعة او ثمانية صدور عظام فى مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات ولا بد من اتياننا على أدلة أخرى ليتخيل القارىء ما كانت عليه الدولة من الاحوال الداعية للاسى والاسف ويحصل على فكر تام فى حق هذه السيئات والاقوال كثيرة

على نهاية ما يرمي اليه السلطان من تبديل وكلاء الدولة على التوالي . فالبعض يقول انه انما كان ناشئاً عن رغبة السلطان فى تولية محمود نديم پاشا واعوانه منصب الصدارة و بعض النظارات المهمة والآخرون يقولون ان السلطان لم يجسر على تولية محمود نديم پاشا نظراً الى نفرة الاهالي منه وعدم محبتهم اليه ولم يقصد من هذا التبديل والتغيير سوي ازعاج الوكلاء ورجال الدولة عساه ان ينال بهذه الواسطة ما يتمناه

وعلى كل حال فان مسألة التبديل والتغيير في أواخر عهد السلطان عبد العزيز لم تنحصر في مقام الصدارة بل سرت للنظارات الاخرى سريان النار بالهشيم حتى عدت لا ترى أحد النظار تجاوزت مدة نظارته بضع شهور وعلى الاخص فان الولاة كان لهم الحظ الاوفر من هذا التبديل والتغيير حيث ان الوالي الذى عين على أحدى الولايات في الاناطول أو الروم ايلي أو في الجهات الاخرى لا يضع قدمه على عتبة الولاية حتى تسبقه الارادة الملوكية بنقله الى ولاية أخرى حتى ان اكثرهم بينما هو سائراً في منتصف الطريق الا وارادة ثانية تأمره بالذهاب الى غيرها . فهذا الوالي قليل الحظ الذي تأتيه هذه المصيبة يصدع

للامر ويذهب الى مركز ولايته الجديدة وبينما هو سائر اليها واذا بارادة ثالثة تنبئه بنقله الى غـيرها . وكثيرون من الولاة من وقعوا في مثل هذه الاحوال وهي من غرائب هذا الفصل المضحك .

أما كون السلطنة لها مسؤلية مخصوصية أو وظيفة يجب القيام باعباءها .... فهي ليست عند هذا السلطان .... خربت المملكة .... أمر لا يعنيه ولا يسمع لاحد قولاً فيه .... أحوال البلاد صائرة من رديء الى ارداء .... لا يلتفت اليها أو يتعامى عنها ....

كانت الاحوال على ماوصفناها ولكن المثل يقول « لكل كمال زوال » وحقيقة هذا المثل كانت ظاهرة في هذه الاثناء ظهور الشمس في رائعة النهار — . وهو امر طبيعي ! ... حيث ان السلطان مهما اظهر من ضروب العجز والتقصير في ادارة الدولة وعدم اللياقة لمنصبه لا بد لظهور عواقب هذه الاحوال الوخيمة من مدة مديدة كما ان وقوف الاهالي على وخامة هذه العواقب تتطلب مرور زمن طويل

ولا شك في ان قرائنا قد ادركوا مما أتينا عليه من البينات

حتى الآن عدم لياقة السلطان عبد العزيز لمقام الخلافة المقدسة .
ولكن الحقيقة التي لا يشتبه فيها اثنان هو ان تعاقب تولي الرجال الأكفاء منصب الصدارة في أوائل وأواسط عهد جلالته قد ستروا جزءاً من المساوئ التي نشأت عن أخلاقه ....

ولكن لم يقبض محمود نديم باشا على زمام الصدارة حتى أخذت مزيات السلطان عبد العزيز الذاتية الحقيقية تظهر للعالم بشكلها المحزن وصارت المصائب تترى بعضها بعضاً . في هذه الآونة حصل عند الملة الاسلامية وعلى الاخص أهالي الاستانة منها هياج عظيم لم يسبق له مثيل وهو نتيجة هذه السياسة الحرقاء . فكانوا يتهمون السلطان ذاته بتهم عديدة واليك أهمها :

اولاً : لم يرَ للاموال من أثر وعلى الاخص في نظارة المالية بعد كل هذه الاقتراضات فعلى احدى الروايات (كذب كانت او صحيحة) التي كانت تتداول على الالسن ان القسم الكلي من هذه الاستقراضات الكثيرة كان موضوع في صناديق بمستنقعات السراي . وعلى رواية أخرى انها كانت مودوعة في بنوك اوروبا . وبالاخص فانهم كانوا يقولون ان لدي والدة السلطان من الجواهر وغيرها من التحف الثمينة

ما يربو قيمتها على بضع ملايين من الجنيهات . ولا مشاحة في ان بعض هذه الروايات مبالغ فيها ولكن لا بد لنا من ان نضع نصب اعيننا احكام المثل العامي الذي يقول «لا دخان بلا نار» وحينئذ نعلم ان بعض هذه الروايات لا تخلو من الحقيقة وان لها نصيباً من الصحة ولم تنحصر شكوى المشتكون من احوال ادارة الدولة في هذا الدور في افراد الاهالي فقط بل كان مأمورو الحكومة انفسهم اكثر الكل ضجراً منها حيث انهم اكثر الجميع وقوفاً على مجرى الاحوال العمومية : ورجال هذا الحزب كانوا يعتقدون ان محمود نديم پاشا متفق مع اهل السراي على سوق الدولة الى هوة الاضمحلال

وقد قدمنا قبلا على ان تعيين الولاة ، والمتصرفون في الولايات، والالويه،وما اشبه ذلك من الوظائف العالية يتوقف على رضاء السفارة الروسية في الاستانة عن كل من يرشح الى احدى هذه الوظائف كما ان بقاء الموظفين في وظائفهم يتوقف على اتفاقهم مع قناصل الروس وحصول الالفة بينهم . وهذا الحال كان بلا شك داعياً لمس احساسات وطنية القسم الاعظم من أصحاب الحمية من الموظفين ونفرتهم من الحكومة العزيزية

ولا نغالي اذا قلنا انها احد الاسباب (وربما كانت أعظمها) الداعية لزرع بذور العداوة بقلوبهم لهذه الحكومة ورؤسائها .

وزد على ذلك عدم قبض عموم الموظفين على رواتبهم من عهد بعيد اذ كانت واردات المالية جميعاً تدخل في مستنقعات السراى وتدفن هنا لك .. حتى كان الموظفون في دوائر ادارة الدولة جميعها قد وصلوا لدرجة أشرفوا معها على الموت جوعاً لعدم قبضهم على رواتبهم

اما أسباب اشمئزاز الاهالي : فهؤلاء وبالاخص الاغنياء منهم كانوا قد اضاعوا ثروتهم مرة واحدة فى مسئلة القونسليد « الاوراق المالية » التي نوهنا عنها فالاغنياء الذين كانوا قبلاً يعيشون مع عائلاتهم بالبذخ والترف باعوا ما فوقهم وما تحتهم بعد افلاس الحكومة وباتوا على الحصير ، واصبحوا بظل الخليفة لا يملكون شروى نقير . والذى زاد بالطين بلة وضاف على الاعتلال علة هو تشديد المراقبة على المطبوعات العثمانية وحصر نطاق مباحثها « نسبة » فى دائرة لا يمكنها معها ان تخرج عن حد اعلان بسيط فاصحاب الاقلام فى الاستانة كانوا يدركون سوء الاحوال في ادارة الدولة ويعلمون اكثر الكل ماينجم عنها من الاهوال ويعدون ايقاف

ابناءوطنهم عليها من أقدس الفرائض عندهم . ولكن اني لهم ذلك وقد تحكمت حلقات استبداد الحكومة بالمطبوعات فاصدرت أوامرها الى مأموري المراقبات بتشديد النكير عليها حيث ان حرية المطبوعات لم توافق مشرب الحكومة وأولياء الامور فيها ولذا كان المراقبون يحذفون من الجريدة جميع المقالةالتي يرون فيها جملة أوحرفاً مغايراً للقواعد المتبعة عندهم ويحذفون فقرات كثيرة من المقالات التي يساعدون على نشرهاالطفأمنهم حتى كان هذا الحال من اكبر البواعث على صدور الجرائد نصفها او ربعهاوبقاء عدة أعمدة منها بدون طبع الامر الذي أوجب اشتداد بغض الاهالي لحكومتهم وترك ميداناً فسيحاً لتأويلهم . ولم تكن هذه السفاسف وحدها هي التي أوجبت نفرة الاهالي من ادارة الحكومة العزيزية بل ان ثورات الروم ايلي وما هي عليه من الاحوال الداعية للأسف كانت اكبر داع لاشتداد هيجان الاهالي ورجال الحكومة الصادقين وعدا ذلك فان ثورة البوسنه والهرسك تركت جميع عقلاء الرجال العثمانيين في حيرة لامزيد عليها حيث انهم يعلمون ان ضياع البلاد وانسلاخها عن الدولة تتقدمها الثورات في كل آن وتعقبها المحاربة مع الروسيه وتجلي

هذه المحاربة عن وقوع قسم من بلاد الدولة في يد الاعداء ٠

كيف لا واستقلال الصرب واليونان امام أعينهم كالهيكل المجسم؟ وشواهد ثورة البوسنة والهرسك تدل دلالة واضحة على حصول نتيجة تشبه نتائج ماتقدمها من الثورات ٠ اما الاحوال التي نبهت الاهالي الى قرب حصول هذه النتيجة المحزنة فهي :

كانت الصحف على ماقدمنا من شدة المراقبة لاتجسر على بيان الحالة الحاضرة جهاراً ولكنها كانت تشير من طرف خفي الى ماهي عليه بلاد الدولة العثمانية من الفوضي وهذا الحال تسبب في حصول هياج كبير عند أهالي الاستانة وزد على ذلك ان رواية « وطن » او « سلستره » احدى مؤلفات نامق كمال بك المشهور شخصت مراراً في مرسح التمثيل الكائن في « كدك پاشا » وابكت الحاضرون بدل الدموع دماً وتركت أهالي الاستانة في هرج ومرج والذي زاد في الحال وخامة هو نفرة بعض وكلاء هذا العهد من أعمال الحكومة الحاضرة ودأبهم وراء تحريك الاهالي على السلطان ٠ وقد قلنا فى الفصول الماضية ان مدحت پاشا كان ينوي خلع السلطان وبينا جميع الوسائل التي اتخذها لخلعه

ففي اثناء هـذه الحوادث كان المشار اليه لايضيع دقيقة بدون جدوى بل سعى جهده فى ايقاف هذه السيئات عند حدها وارتأ لزوم مراجعة حسين عوني پاشا قبل الجميع والحصول على موافقتـه اذ كانت جميـع امراء العسكرية الذين اشتهروا بطول الباع وسعة الاطلاع على الامور العسكرية فى ذاك الحين من تلامذة حسين عوني پاشا وله عنـدهم اعتبار ونفوذ شخصي كبير عدا عن نفوذ المقام التي يشغله. ولا نغالي اذا قلنا انه كان اكثر وكلاء عهده نفوذاً واعتباراً وكان يعاكس حشرات السراي فى كل شيء ولا يحفل بأوامرهم حتى أرهب أعينهـم وخلص الخلق من شرهم على قدر الامكان والاسباب فى عدم رضاء حسين عوني پاشا عن مجري الاحوال فى ادارة الدولة كثيرة وهاك أهمها:

السبب الاول فى عدم رضاء هذا الوطني الغيور: ناشئ عن سوء تصرفات السلطان عبد العزيز الشخصية واستبداد اغناتيف بالباب العالي والوزراء وماكان يعاملهم به من المعاملات التي تمس باحساسات كل وطني يغار على وطنه ومصلحة بلاده

ثانياً — مداخلات حشرات السراي فى الامور العسكرية كل

يوم بل كل ساعة وصدور الارادات المتوالية المتناقضة كلما تشبث لاجراء أمر يعود على نظارة حربية الدولة بالفوائد الجزيلة كتنظيم المعسكرات على الاصول الحديث وادخال الاصلاحات الجدية فى الجيش وتنسيقه على أصول أوروپا واجراء بعض التبديلات والتغييرات التي يقتضيها الزمان كي لا يبقى الجيش العثماني دون الجيوش الاوروپية علماً بالاساليب الحربية وفنونها الحديثة المتنوعة. اذ لم يسعى في امر من هذه الامور الا وارادة صادرة بممانعته حتى عجز عن ايفاء وظيفته كما يحتمه عليه ضميره

ثالثاً : رأى المشار اليه الخلل الفادح في امور الدولة وسيرها السير السريع الى هوة السقوط والاضمحلال فعلم ان الوطنية تحتم عليه بالسعي وراء تخليص الدولة والملة مما هي عليه من الزوال .

رابعاً : وهو اهم الاسباب ـ ان المشار اليه نفي مراراً من وطنه وأبعد عن مركز السلطنة بدون ذنب جناه وقد تحقق ان وجود السلطان قد اضر بالدولة العثمانيـة والخلافة المعظمة الاسـلامية وحط بقدر العائلة الملوكية . فاراد ان ينتقم منه ومن اعوانه الذين خانوا وطنهم عن علم ولم يحسون باقل وخز

من ضميرهم والذي ينظر الى احوال حسين عوني پاشا، وصداقته، واستقامته ، وما كان يعامل به هؤلاء الادنياء من المعاملات ومركز الكبر والعظمة اللذان كان يتخذه حيالهم يعلم مقدار اشتياقه الى حصول الانقلاب في امور الدولة وفداء كل نفس ونفيس لديه وراء تخليص الملة والوطن .

ولهذه الاسباب جميعها كان المرحوم اكثر تشوقاً من مدحت پاشا الى الانقلاب الجدي وبناء ادارة الدولة على اساس متين . ولكن من الحقائق الثابتة انه كان ينبغي قبل كل شيء خلع السلطان واراحة الملك من عناءه وازالة المساوىء الموجودة في ادارة الدولة من جذورها وترك تفرعات المسئلة الى ما بعد الخلع . اما مدحت پاشا فانه كان بعكس ذلك يبحث عن ما يلزم اتخاذه من التدابير بعد الانقلاب وقد رسم الخطة التي سيجري عليها من هذا التاريخ

وعلى كل فان الاتفاق قد تم بين مدحت پاشا وحسين عوني پاشا بسرعة غريبة وبدون حصول أقل تردد عند أحد الطرفين . فأخذا يبحثان عن التدابير اللازمة لاستئصال شأفة الاختلال والذي ساعدهم على اتمام مآربهم هو نفرة أهالي

الاستانة من ادارة الحكومة العزيزية واشتداد الهياج عند عموم العثمانيين هذا عدا عن فدح الخلل في ادارة الولايات العثمانية واتساع نطاق الثورة داخل البلاد. وزد على ذلك فان البلاغ الرسمي الذي أرسله الكونت اندراسي للباب العالي كان من اكبر العوامل على اتمام أربهما حيث كثر عنه القيل والقال وصار حديث النساء والرجال فعم الخوف عموم الاهالي ودارت على ألسنة الخلق اشاعة مؤداها « ان السلطان قد اتفق سراً مع الجنرال اغناتيف على ان يجعل نجله يوسف عز الدين افندي ولياً لعهده قبل الاهالي أم لم يقبلوا وأن يأت بثلاثين الف من عساكر الروس لتأديب كل من يعارض في الامر » وتناقلت هذه الاشاعة ألسن الاهالي فزادت في بغضهم للسلطان . ومع هذا فان محمود نديم باشا كان اكثر الكل هدفاً لسهام تنديد قومه وسخطهم فكانت تنزل عليه اللعنات كالوابل الهطال حتى أصبح القوم كبيرهم وصغيرهم لا يتركون أدنى كلمة الا ويقولونها في حقه ويلصقون به أشنع التهم ولا يخشون في قولهم لومة لائم . وتداولت مسألة الرشوة على السن العوام وبالغوا فيما يأخذه محمود نديم باشا من الجنرال اغناتيف حتى كانوا لا يتكلمون الا

بالملايين . وشاع في هذه الفترة اشاعة بين مسيحي الاستانة مؤداها: « ان مسلمو الاستانة سيذبحون النصارى و يمثلون بهم و يسيلون دماءهم أنهاراً » فالقت هذه الاشاعة الرعب في قلوبهم واحتاط الكل منهم لنفسه وتسلح بما عنده وما وصلت اليه يده من الآلات الجارحة والاسلحة النارية حتى لم يبق في مخازن الاسلحة في الاستانة شيء يتعلق بالسلاح

وكان مدحت پاشا وحسين عوني پاشا واقفان على هذه الاشاعة تمام الوقوف حيث انهما كانا لا يفتران عن مراقبة أحوال الاستانة الخصوصية و يعقبان أمور الدولة وأفكار الملة خطوة بعد خطوة وينظران اليها في منظار الحقيقة وقد علما حلول الوقت الذي ينتظرانه لاخراج آمالهما ومقاصدهما الشريفة من حيز الفكر الى حيز العمل . فانتهزا هذه الفرصة بدون اضاعة دقيقة من الزمان واختارا بعد طول البحث والتنقيب أحسن الطرق ليسيروا عليها وراء غايتهما وهي :

اجتناب الامور التي توجب استياء الاهالي « ولو القسم الجزئي منهم » واستعمال الحزم والتروي في مسألة خطيرة كمسألة الخلع حيث ان أقل هفوة تصدر من أحدهما ينعكس

معها الحال ويسوء المآل وتكون عاقبتها عليهما شراً ووبالاً مع ما هي عليه الاهالي ومأمورو الحكومة من البغض للادارة العزيزية واشتياقهم الى حصول الانقلاب اشتياق الظمآن للماء الزلال وانتظارهم وقوعه بفروغ الصبر، ووزن الاحوال العمومية كما ينبغي ، وترتيب پروجرام مظاهرة ملية لتعتاد الاهالي على أمثالها كي لا تقلق خواطرهم من الواقعة القابلة وليكونون على بصيرة منها . فقررا استخدام طلبة العلم في سبيل الحصول على مقصدهما لعلمهما تداخل هؤلاء الاخيرون في مثل هذه الامور وسهولة ادارتهم وضبطهم عند اللزوم وعدم اخلالهم بالامن العام واتيانهم امراً من الامور التي تكدر صفا الراحة وقد راجعاهم فعلاً . ولكن طلبة العلم كانوا على جانب عظيم من الهياج وكان يشتد عندهم هذا الحال في بعض الاحيان وهو ناشئ بلا شك عن التشويقات والتلقينات التي كان اساتذتهم يلقنونها لهم ويشيرون بها اليهم من طرف خفي وكان بينهم من يشتك أفعال الحكومة جهاراً ويتظاهر بعدم الرضوخ لاوامرها مراراً وزد على ذلك ان الخطة التي اتبعوها في انتقاد أفعال الحكومة وأوضاعهم وأوطارهم والمركز الذي اتخذوه حيالها يدل دلالة

واضحة على وجود مسألة خفية تكنها صدورهم ويشتم منها رائحة تشبثهم في أمر ذي بال . وعلى كل حال فان طلبة العلوم بدأت تجتمع في يوم الخميس من منتصف شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٣ حول مدارسها وعلى الاخص حول المدارس التي هي بجوار جامع السلطان محمد الفاتح ودار بينهم الحديث سراً وكانوا كلما أخذت جمعيتهم بالازدياد يرفعون أصواتهم ويجاهرون في شكاياتهم حتى بلغ صياحهم عنان السماء .

ولو ان جلبتهم هذه كانت تحول دون فهم اقوالهم وما يتحدثون به – حيث كان يخرج من كل رأس صدأ – ولكن كان يعلى هذه الاصوات صوت «وقتنا هذا ليس وقت تحصيل ، ولا مطالعة دروس ، الحكومة على شفا جرف هار من الاضمحلال ، فالدولة والملة قريبتان على الزوال ، ويجب علينا ان نسعى وراء انقاذهما قبل ان يتعذر علينا خلاصهما» وقد دامت هذه الضوضاء ساعة من الزمن والتحق بهم خلق كثير من عوام الاهالي وخواصهم فلما ان رأوا كثرتهم اخذوا يشوقون بعضهم بعضاً على التقدم الى الامام والزحف على نظارة الحربية

ولما تكاثرت جموعهم زحفوا على نظارة الحربية من جهة

« البايزيد » فوقف حينئذ بينهم بعض العلماء الذين لا علم لهم عن هذا الاجتماع وغاية ما يرمى اليه ونصحوهم في عدم تقدمهم وأرادوا ممانعتهم ولكن تهافت اهالي الاستانة على الالتحاق بهذا الجيش العرمرم وانضمامهم اليه من كل صوب وحدب كان من اكبر العوامل على عدم رضوخ طلبة العلم الى اقوال بعض اساتذتهم . ولا مشاحة في ان بعض افراد هذه الجمعية أيضاً ومن التحق بهم من الاهالي كانوا لايعلمون شيئاً عن هذا الاجتماع بل كان الذين جاؤا للفرجة يلتحقون بالجمعية ويتبعونها أيما سارت حتى خيل للرائي انها قيام عمومي أو ثورة أهلية

وقد تشبث قوماندان نقطة الفاتح « سواء كان بصورة جدية أو من قبيل المجاملة » في ممانعة الطلبة عن تقدمهم الى الامام وأراد ان يحول بينهم وبين التقدم بالقوة الجبرية فوضع العساكر في نقاط متعددة من الطريق ونصحهم على العدول عن تهورهم ولما ان رأى عدم رضوخهم الى أوامره هددهم وأوعدهم ولكنه أخفق سعياً وعاد من حيث أتى

حيث ان الاهالي وطلبة العلم الذين كانوا يسكنون الجهات المختلفة من الاستانة لم يطرق آذانهم خبر قيام علماء جامع الفاتح

حتى تهافتوا على هـذه النقطة المركزية وانهالوا عليها كالسيل الجارف وأحاطوا العساكر احاطة السوار بالمعصم وتركوهم حيارى لا يعلمون ماذا يصنعون . وهكذا ظلت جموع العلماء زاحفة بضوضائها الى ان وصلت ميدان نظارة الحربية ولم تقف فيه كثيراً فتركته وسارت وجعلت وجهتها الباب العالي .

وحركتهم هذه تدل صراحة على انه كان بين الجمعية رجالا يقودونها ويسيرون بها على الخطة التي وضعت من قبل وهم مستترين تحت زيل الخفاء . وفي هـذه الاثناء كان العلماء وطلبة العلم يطعنون على الصدر الاعظم وشيخ الاسلام حسن فهمي أفندي جهاراً وزادوا بالتهديد والوعيد حتى طرق كلامهم هذا آذان القريب والبعيد حتى اذا ما اقتربوا من الباب العالي نادوا جميعاً بلسان واحد « لا نريد الصدر الاعظم ولا نريد شيخ الاسلام » وكرروا هذه العبارة

فشاع خبر اجتماع العلماء بجوار جامع الفاتح وزحفهم على الباب العالي بسرعة عجيبة وانتشر في جميع انحاء الاستانة وضواحيها حتى لم يبق أحد الا وسمع هذا الخبر . وكان محمود نديم باشا وشيخ الاسلام اكثر الكل تأثراً من هذه الحوادث

حيث كان اسم النديم يتداول على ألسن الخلق بالتحقير يسبحون بشتيمته ويهللون بلعنته على رؤوس الاشهاد غير مبالين به وبمقامه . فوقع النديم باديء بدء في حيص بيص ووقف في غرفته كمن تسمرت أرجله بالارض وظل باهتاً لا يدري ماذا يفعل برهة من الزمن ولكنه استفاق من غفلته فجمع من ضعفه قوة ومن وهنه جسارة فترك مقامه وولى هارباً الى سفارة العجم التي هي على قاب قوسين من الباب العالي . أما شيخ الاسلام فانه لم يبد من المتانة والجلد أكثر مما أبداه الصدر الاعظم اذ لم يطرق اذنه خبر المظاهرة التي أجرتها جمعية العلماء ضده وعزمهم على ارسال هيئة الى باب المشيخه حتى فر من دائرته كما يفر الطير من وجه الصياد واختبأ في بيت أحد أقاربه

ولا تسل حينئذ عن أحوال السراى فان مظاهرة طلبة العلم جعلت عاليها سافلها وأوقعت الرعب الشديد في قلوب حشراتها .... لأن من الحقائق الثابتة ان الملوك المستبدة تضع نصب أعينها جناياتها وجرائمها وتوجس خيفة من الاهالي وتبقى محترسة منهم على الدوام

حيث ان المستبدين يرتكبون الجرائم ويقتلون افراد

الاهالي عند صفو الليالي . ولكنهم يقعون في خوف شديد عند اول اعتراض يحصل على أعمالهم او هياج يحدث داخل عاصمتهم . ولا يأمنون جانب أحد ويرون جميع أهل الدنيا اعداء لشخصهم ويعجزون عن المقاومة مهما بلغت جسارتهم ولذا ضاع رشد السلطان عبدالعزيز عند سماعه هذه الحادثة وحار في أمره وخامر الخوف الشديد قلبه وتشنجت أعضائه ومفاصله . لم يبق له ملجأ للخلاص وعلم انه سينال أشد القصاص ولات حين مناص . ومع هذا فلم يأخذ هذا الهيجان بالسكون حتى توسل في اتخاذ بعض التدابير اللازمة متبعاً فيها الخطة التي رسمها له بعض الذين حافظوا على جديتهم اثناء الحادثة فاستدعى للسراي بعض الوزراء والرجال الموجودين وارسل للجمعية الپاش ماينجى والسرياور وجميع الرؤساء فاستفسروا منهم عن قصدهم من هذه المظاهرة فتقدم اثنان من العلماء وعددوا لهم ماناب الحكومة من الرزايا والمصائب من جراء افعال الوكلاء عديمي الاهلية والحمية وافصحوا لهم عن عدم ممنونية مأمورو الملكية، وامراء العسكرية والتجار، والاصناف، وعموم العثمانيين عن أفعال الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وطلبوا عزلهما وتعيين الرجال الأكفاء الذين نالوا

ثقة الامة مكانهما

وكان يعلو هذه الضوضاء اصوات ترشيح مدحت باشا أو رشدي باشا لمقام الصدارة وخير الله افندي للمشيخة الاسلامية . فنصح مندوبو السراي طلبة العلوم واوعدوهم المواعيد الكثيرة قصد تفريقهم ولكن لم تأت نصائحهم بأقل فائدة بل ذهبت مع الريح اذاصر افراد الجمعية على عدم مبارحتهم محلهم دون أن يروا انفسهم قد نالوا جميع مطالبهم المشروعة فرجع مندوبو السراي من حيث أتوا وعرضوا على الذات الشاهانية ما سمعوا وكانت السراى حينئذ مرتبكة ولشدة ارتباكها لم تقر حشراتها على شئ حيث انهم جميعاً كانوا في هرج ومرج ولذا لم يبق فيهم من يقدر على ابداء فكر بهذا الشأن . ومع هذا فقد استنسبوا أخيراً ان ينتظرون ريثما تجتمع الوزراء حيث ان أكثرهم قد احتاط لنفسه ولازم مخبئه بعد ان رأوا مغلوبية السراى وعجزها عن اجراء شئ امام هذه الجمعية كما انهم كانوا فرحين لهذا الحال يتمنون ان لو تقع اهل السراى في أشر الوبال من جهة ومن جهة أخرى كان رجال الفرقة التي يميل اليها السلطان عبد العزيز يرون بأعينهم هول الموقف ولا

يجسرون على تشويق سلطانهم للمقاومة . اللهم الا سفير الروس اغناتيف فانه لم يسمع بهـذه الحادثة حتى أرسل للسراي رجاله يستحث السلطان على المقاومة واصر على هـذا الامر اصراراً كبـيراً . وكانت رجال الجمعية في هذه الفترة تنتظر نتائج مطالبها بجوار « السركهجي » و « الباب العالي » وانتظروا الى المساء ولم يظهر شيء من هذا القبيل وحينئذ رأى رؤساء الطلبة والمتنفذون منهم انهم اذا افترقوا تكون عاقبة الافتراق عليهـم شراً ووبالاً بعد ان أوصلوا الحال الى هـذا المركز فقرروا الانتظار الى الصباح. ولم يرجع من افراد الجمعية أحد وانتظروا حتى مطلع الفجر .

ومع هذا فلم يستبعد سوء تأثير هذه الحادثة على الراحة العمومية حيث ان الذين يعلمون اسباب قيام الجمعيـة اقل من القليل ولذا وقعت مسيحي الاستانة وعلى الاخص منهم الاجانب الذين يقطنون (بك اوغلي) في حيرة شديدة من جراء اجتماع طلبة العلوم . وقد شاع في محافل بك اوغلي قبل الحادثة بعدة أسابيع ان المسلمون قد علقوا على ابواب جوامعهم والقوا في ازقة الاستانة اعلانات تدل على عزمهم على ذبح النصارى

والتمثيل فيهم ولا ريب في ان هـذه الاشاعات نتيجة دسائس سفارة الروس في الاستانة ولم تقصد من هذه الاراجيف غير تهييج الاجانب علينا

والذي اكد صحة هذه الاشاعة عنـد الاجانب هو قيام جمعية العلماء بالمظاهرة في ذاك اليوم حتى ان اكثر الاجانب قد احتاطوا لانفسهم لئلا يؤخذون على غرة منهم . وتسلحوا بالاسلحة الـكاملة ووقفوا في محلاتهم كالمدافع عن نقطته . من جهة ومن جهة أخرى فان الخوف الشديد قد خامر قلوب قناصل الدول الموجودة في الاستانة فقعدوا فى قونصلاتو النمسا اجتماعا بناء على تشويق قنصل الروس وتذاكروا فيما بينهم على ايجاد الوسائل التي يجب عليهم اتخاذها لمحافظة أرواح وأموال رعايا حكوماتهم وبعد ان أبدى كل منهم رأياً مخصوصاً على اساس المسئلة قال قنصل النمسا « ان الترك اذا هجمت على بك اوغلي فانني قادر على ان أجمع من رعايا النمسا المقيمين في الاستانة الف وخمسمائة شخص وأسلحهم بالسلاح الـكامل وأرد بهم غارة الاتراك » وعقبه قنصل الروس الموسيو « ختراوو » صاحب الحظ الاوفر في جميـع الدسائس والحيل السياسـية التي دسها الروس في الاستانة حتى الآن

وأوعد الحاضرين على انه سيجمع بضع مئآت من رعايا حكومة الجبل الاسود الذين يقطنون الاستانة ليدافع بهم عن الاوروپيين فقال له أحد القناصل مستهزءاً «لا علاقة لكم باهل الجبل الاسود ولا هم من رعاياكم فكيف اذاً تقدر على جمعهم» فجاوبه القنصل جواباً يشف عن حنكته ودربته «هنالك سر لا يعلمه احد غيري»

فكان قنصل الروس يفوه في المجلس المذكور بمثل هذه التفوهات من جهة ومن جهة أخرى يحرك سواكن الفتن على قدر ما يستطيع من القوة فلم يخل له الجو حتى أخذ يفكر في ايجاد طرق الاستفادة من هذه الواقعة واستعمال الوسائط الممكن استعمالها لتهييج الترك على الاوروپيين وتشويقهم على ذبحهم كي يجلب سخط الرأي العام الاوروبي علينا ويضطر الدول المعظمة على تجريد عساكرهم واحتلال الاستانة وهي أهم آمال الروس ومطمح أنظارهم منذ القديم . ولهذه الاسباب جمع جناب السفير بعض رعايا الجبل الاسود الذين يتكلمون التركية كما ينبغي ومن شاكلهم من الخذلة اللئام وألبسهم ملابس العلماء وأرسلهم الى الجمعية

والغاية الوحيدة التي يرمي اليها هذا القنصل من ارساله
هؤلاء الزعانف هو تشويقهم العلماء على ان يمروا من جهة (بك
أوغلي) وسعى كثيراً ولكنه اخفق سعياً ولم ينل ولله الحمد بغيته
حيث ان رؤساء الجمعية كانوا قد أخذوا تعليمات خاصة بهذا الشأن
ولذا مانعوا افراد الجمعية عن اتيان أي شيء له مساس بالآداب
العمومية أو مايتعلق بالاجانب كما منعوهم عن التعرض لأحد ما
من أهالي الاستانة نصارى كانوا أو يهوداً . وظلوا على هذا
الحال حتى هجمت جيوش الصبح وتغلبت على جيوش الظلام
وقامت من مراقدها النيام وكان ذاك اليوم يوم الجمعة فازداد
عدد رجال الجمعية كثيراً والتحق بالمتظاهرين الخاص والعام

وقد ثابرت طلبة العلوم على مظاهرتها وانتظرت في جوار
السركه جي والباب العالي نتيجة عملها دون ان يعلم أعضاءها شيء
عن هذا الاجتماع أو غاية ما يرمي اليه . ولم ينفجر الفجر حتى
شاع خبر دعوة السراي لكثير من العلماء وعقبه خبر توجيه
مسند الصدارة على رشدي پاشا والمشيخة الاسلامية علي خير الله
أفندي فهتف الجمهور حينئذ بهتاف الفرح والسرور وما لبثت
ان ظهرت مقارنة هذه الحوادث بالصحة فمر الصدر الاعظم

الجديد بعربته بين الجمعيــة قاصداً الباب العالي تحفه العظمة والاجلال فدخل الباب العالي وجرت مراسم التشريفات وبعد ختام المراسم شرف شيخ الاسلام الجديد خير الله أفندى باب المشيخة واستلم زمام وظيفته فلما ان رأى أعضاء الجمعية باعينهم هذا الحال تأكدوا من نيل بغيتهم فانصرفوا قاصدين مدارسهم داعين للذات الشاهانية بطول العمر ودوام البقاء ولم يحدث اثناء انصرافهم أيضاً ما يخل بالآداب العمومية . وهــذه هي واقعة العلماء التي تشغل في صحائف التاريخ العثماني موقعاً ممتاز . ولا بد لي قبل تكميل الواقعة من ابداء الملحوظات على بعض النقاط فيها كي يفهم القاريء واقعة العلماء تماماً

فالمتوغلون في التاريخ من القراء الكرام لا بدوان لاحظوا على ان قيام جمعية طلبة العلوم لا تقاس بقيام أشقياء الانكشارية التي كانت تنجلي على الاكثر عن خلع السلاطين أو قتلهم فمظاهرة الانكشارية وقيامهم كان يترك العالم في هرج ومرج بين خائف على روحه وحاسب حساب سلب أمواله اذ كانوا كلما قاموا يوقعون الخوف في قلوب اهالي الاستانة ويتركونهم حيارى . أما واقعة العلماء فانها لم ينشأ عنها أقل شيء مغاير

للادب وكانت من مبدأها الى منتهاها على غاية من السكون والسكوت وقد نال أعضاءها جميع ما طلبوا بدون اراقة نقطة دم حتى انصرافهم وتشتتهم ولم تستغرق هذه الحادثة زيادة عن ثلاثين ساعة

فحصول المقصد بهذه السرعة الغريبة وبدون استعمالهم السلاح في وجه الحكومة لا بد من عطفه على أخلاق السلطان الخصوصية. اذ من الخطأ ان نعطف تنزل السلطان الى اجابة مطالب العلماء على مرحمته وعلو جنابه حيث ان السلطان عبد العزيز كبقية المستبدين لا تظهر أمارات الخطر حتى يخامر قلبهم الخوف الشديد ويقعون في حيص بيص مهما أظهروا قبل الواقعة من الجسارة وشدة البأس. وهذا الحال خاص بالملوك والعلامة التي تميزهم عن بقية الافراد. فما أظهر السلطان عبد العزيز جبانته اثناء هذه الواقعة حتى أثبت الصدر الاعظم الخائن خيانته بما فعله من التجاءه الى سفارة العجم، ومن العبث ان ينتظر من نذل كهذا أقل دناءة منها. اذ كانت دناءته وخيانته أشهر من نار على علم عند جميع أهالي الاستانة. فبهروبه اثناء هذه الحادثة والتجاءه الى سفارة العجم وتركه مولاه وحيداً فريداً يتقلب على

نيران الخوف أثبت خيانته ولؤمه مرة أخرى

ولا بد لعلاوة شيء على ماقلناه لكي تظهر المسألة بحذافيرها فنقول : ان سفير الروس أبدى من المتانة والثبات اثناء حدوث هذه الواقعة ما يدل على حنكته ودربته السياسية حيث انه أوضح في تقرير رفعه الى حكومته بعد هذه الواقعة ببضع أيام الخطة التي سار عليها والتدابير التي اتخذها حيال هذه الجمعية (جمعية طلبة العلم) وانه أرسل الى السراي رجاله مرات عديدة وحث السلطان على استعماله القوة مع أعضاء هذه الجمعية وانه أوصى ان تستعمل العساكر الموجودة بجوار السراي « وطاش قشله » السلاح لتمزيق شمل المتظاهرين كما انه أخبر السلطان بسهولة جلب عساكر الروس من أودسا اذا مست الحاجة . وقد أخبر السفير حكومته أيضاً انه بذل كل نفس ونفيس لديه في سبيل ايقاع السراي بشراك حيلته ودسائسه ولكنه لم يفلح وانه مشغول الآن في تدبير حيلة أخرى لعل وعسى ان يتوفق فيها ويستعيض ما أضاعه من تلك الفرصة الكبرى [*]

[*] Moscovski Vedomostit, correspondance de Constantinople. 1876

اما الذين رتبوا هذه الواقعة فانهم نالوا ما يبتغونه تماماً اذ عوّدوا بفعلتهم هذه اهالي الاستانة على الحادثة القابلة حتى لا ترهب أعينهم مما سيحدث بعد . وبهذه الواسطة امنوا جانب انزعاج الاهالي

ثانياً - . انهم قد اكتسبوا الوقت لوزن الاحوال واختبار القواة الفعالة حين تطبيق مقصدهم الاصلي الذي رسموا خطته قبلاً

ولم يفهم تأثير الواقعة على السياسة الخارجية مرة واحدة . فالاوروپيون حتى السفراء الموجودين في الاستانة قد صرفوا أموالاً طائلة في سبيل حصولهم على المعلومات الصحيحة ووقوفهم على معيشة الاتراك ولكنهم لم يحصلون على شئ منها حيث ان اهل الاستانة عندنا يعيشون منفردين منذ القديم ولا يختلطون بالاجانب كثيراً وقليل منهم من له معرفة بلغتهم اللهم الا المستخدمون في الدوائر الرسمية العثمانية وهم أقل من القليل ولو ان هؤلاء الموظفون الذين لهم المام باللغات الاجنبية يحضرون بعض الاحيان الضيافات الرسمية و « البالو » التي تقام في « بك اوغلى » ولكنهم لا يفوهون ببنت شفة عن أحوالنا الداخلية حيث اعتادوا على كتم كل شيء عن الاجانب . ومع

هـذا فان حدوث هذه الواقعة الكبيرة أثرت على الرأي العام الاوروپي وزادت في أهمية المسئلة الشرقية التي كانت مطمح انظار العالم المتمـدن والنقطة التي تشرأب اليها أعناق الدول الغربيـة في ذاك الزمان . وقد افهمت هـذه الحادثة دول الغرب الذين سمعوا بوقوع بعض الحوادث في الاستانة ولا يعلمون عنها شيئاً ان في المسئلة سرّ يلزم كشف النقاب عنه وان لا يتركونه بعيداً عن أعينهم ولذا بادرت الجرائد الاوروپية الى ارسال مكاتبها للاستانة العلية كي يوافونها بالاخبار الحقيقية عن هذه المسئلة ففي هذه الفترة املى مكاتبي الجرائد الاجنبية الذين هم متشوقون الى أخبار هذه الحادثة تشوق الظمآن الى الماء الزلال اعمدة جرائدهم بالحوادث المختلقة وامتـلأت صحف الجرائد المصورة في رسوم الرجال والوكلاء العثمانيـين الذين كانت تتداول اسماؤهم على ألسن الخلق . وكتبت ترجمة حال الذين اشتهروا من أولاد ملوك الدولة العثمانيـة مفصلاً وخلاصة القول ان أقل واقعة تقع داخل البلاد العثمانية تتلقاها جرائد اوروپا وتهول في أمرها وتوصفها بما تصل اليه مخيلة كتابها. ومع هذا كله فان هذه الحوادث والاخبار لم تذهب

سدى بل نجم عنها ظهور ماهيات وكلائنا الذين يشغلون أعلى المناصب في ادارة الدولة

وقد ذاعت شهرة مدحت باشا، ونديم باشا، من وزراء تلك الفترة فعدوا نديم باشا ممن يلتزمون طرف الروس او بالحرى « طرف أموالهم » اما مدحت باشا فانهم كانو! يعدونه ذو مسلك مخصوص محب لوطنه وحيد وكلاء عهده بالمتانة والثبات واكثرهم استعدادا بالامور السياسية وكانت الجرائد الانكليزية والفرنساوية تعدد أوصافها شهيد الوطن هذا كل يوم وتترنم بمديحه ولكن جرائد الروس كانت على عكس ذلك تلعن المشار اليه وتنسب له من الدنائة ما تقدر عليه أقلام كتابها . وكانت هذه الجرائد في ترى املأ أعمدتها في ذمه من أقدس الوظائف عندها . فعلى زعمهم الفاسد انه لا أتى ولن يأت مثل هذا الشهيد المقدس رجل مفسد وخبيث ولا يتصور أن يأتي الزمان بمثله وكان اذا سمع أحد الروس اسمه حتى في أصغر القرى يستعيذ بالله استعاذته من الشيطان الرجيم حتى وصل الحال بهم الى درجة كانوا يطيلون لسانهم عليه كلما ذكره ذاكر . والحقيقة هو ان الاعداء شهدت لهذا الوطني الغيور وأقرت على اقتداره

ولو بنسبتهم مغلوبية سياسة الروس الخارجيـة اليه بمـا استعمله من الدسائس والحيل السياسة كما سيأتي مفصلاً

﴿ تشدد السيئات ﴾

تشدد العصيان داخل الولايات العثمانية — الحكومة الروسية — رأى الاوروبيون في حق العثمانيين — سريان العصيان الى بلاد البلغار والوقائع الاخرى — مناسبة الروس مع الصرب والجبل الاسود — بلاغ القونت غورچاقوف — احوال الاستانة في هذه الآونة — السلطان عبد العزيز .

بينما كانت احوال مقر الخلافة الاسلامية على ماقدمنا عليه اذ اشتد العصيان في بلاد الروم ايلي حيث الامدادات العسكرية التي ارسلها ولاة الامور في دار السعادة الى ولاية البوسنة التي هي منبع الثورات لم تف بالغرض المقصود وغلبت على أمرها لقلة عددها وعدادها وعدم اجتماعها في نقطة واحدة حيث ان ظهور الثوار فى نقاط مختلفة اضطرت امراء العسكرية على تقسيم العساكر الى مفرزات صغـيرة وتوزيعها على نقاط عديدة وهي السبب الوحيـد في انهزامها امام الثوار واتساع نطاق الثورة يوماً عن يوم حتى اصبح جميـع اهالي ولاية البوسنة متقلدين السلاح

رافعين لواء العصيان على حكومتهم واضعين الاستقلال نصب اعينهم مفضلين الموت على بقاءهم تحت نير الذل والهوان وخضوعهم لدولة بني عثمان، وكان كلما طال الوقت تفاقم الخطب وازداد العصيان، والتحق بالثوار كثير من أشقياء الروس والصرب والجبل الاسود حتى امتلأت بهم تلك السهول والوديان . والذي زاد بالطنبور نغمة هو تفاقم الخطب في تلك الديار حيث قد وصفنا قبلاً ملة الروس وما تعضد به الجمعية السلافية كما قلنا ان آمالهم ومقاصدهم الفاسدة من هذه المسئلة هي امحاء الدولة العثمانية والاستيلاء على الممالك المحروسة التى هي مطمح أنظارهم منذ القديم وعليه فلم يطرق آذان الروس خبر وقوع العصيان في الهرسك حتى فتحت أعينها وحملت بخيلها ورجلها عليها واشتغلت جميع جرائد الروس التي كانت تصدر حينذاك في المسألة الشرقية وأخذت تفندها تفنيداً . وكانت الاخبار والتلغرافات التي تأت من دار السعادة عن الثورة التي كان يشتد لهيبها يوماً عن يوم تشغل أفكار عموم الاهالي حتى كانت حديث العوام والخواص منهم . وكانت اكثر هذه الحوادث مختلقة لا أصل لها ولا يقصدون منها سوى تهييج افكار الاهالي حيث ان أعمدة الجرائد ملئت

بالفظائع التي يأتيها الاتراك ضد أبناء جنسهم كقتل وسلب وتمثيل وما أشبه من ضروب الهمجية والتوحش فلا تخلو صحائفهم في كل يوم من مثل هذه السفاسف والافتراآت فتراهم يختلقون في كل ساعة خبراً جديداً عن فظاعة العساكر العثمانية والباشبوزوق فيقولون في اليوم الفلاني سطت العساكر على القرية الفلانية وقتلوا نساء القرية وأخرجوا من بطونهن (؟) الجنين وشووا لحمهم على الاسياخ واكلوهم اكل الذئاب للغنم حتى صارت هذه الحوادث من الامور المعتاد سماعها عن عساكر الترك عندهم . كما ان كل مكاتب لجريدة روسية أرسل الى تلك الجهة لا يرسل خبراً لجريدته الا وفيه من الفظائع ما فيه كقتل الآباء . وخنق الاولاد . وذبح الامهات . والتسلط على عرض البنات . وخلاصة القول ان الجرائد كانت تردد صدا الوقائع وتزيد عليها ما شاءت وشاء لها الهوى

ولا شك ان في اشتغال الامة الروسية بحوادث الثورة وتهافتها على أخبارها هذا التهافت سرّ يعلمه ساسة الروس ودهاتهم . اذ لا غاية لحكومة الروس من هذه الاراجيف سوى تداخلها بالشرق بلا واسطة . فكانت ترى خطتها هذه

موافقة كل الموافقـة للاحوال التي كانت وقعت داخل بلادها ذاك الحين. والاسباب التي دعت حكومة الروس لاثارة غبار الحرب معنا كثيرة أولاً : وقوع البلاد العثمانيـة في ضعف واضمحلال لا مزيد عليهما

ثانياً - تحققها من عدم مساعدة أحوال الدولتان اللتان اعانتانا فعلاً في محاربة القريم وهما فرنسا وانكلتره على معاونتهم لنا الآن في أمر من الامور. ومع هذا فان أصل المسئلة لم يكن ما ذكرنا بل ان أحوال دولة الروسيا الداخليـة اضطرتها على خوض غمار الحرب وهي :

ظهور « جمعية النيهيليست »[1] في بلاد الروس قبل هذا التاريخ ببضع سنين واخلالهم بالامن العام اذ كان الاهالي وعلى الاخص منهم الطبقة السفلية كالعمال والفلاحـين كانوا قد شقوا عصا الطاعة على حكومتهم في بعض الولايات واعجزوها بايعاز من اعضاء الجمعية المذكورة. والتحق بهم تلامذة المدارس العليا وتركوا دروسهم وهكذا ظهرت ثورة كبيرة داخل بلادها

---

(١) تعادل حزب تركيا الفتاة وغايتها اطلاق الحرية للاهالي وتوزيع العدالة بينهم ورفع الاستبداد عنهم

واشتغلت الافكار العمومية في هذه الثورة وأظهر جميع الاهالي استياءهم من الحكومة في كثير من الامور . ولهذه الاسباب سعى الوزراء والقيصر في ايجاد مسئلة تحول افكار الاهالي عن هذه الامور وقد كان تصادف ظهور هذا العصيان في تلك الفترة اكبر واسطة لحصولهم على آمالهم وما يتمنون . حيث ان حكومة الروس تعلم ان نزوع الاهالي للعصيان وقيامهم مثل هذا القيام يضر بصالحها ويضعفها وربما كانت العاقبة عليها أشد وبالاً من الحرب . ولم تسعى لتهييج أفكار الاهالي على الاتراك الا لتلهيهم عنها وتحول انظارهم الى غير جهة . وبناء على هذه الاسباب كانت حكومة الروس دائبة على تحريك الفتن في الخارج من جهة ومن جهة أخرى تهيج الاهالي على الاتراك بما تنسبه اليهم جرائدها من الفظائع والمنكرات حتى هيجت الاهالي وحولت انظارهم عن اثارة الفتن الداخلية وجعلتهم على قدم الاهبة للمحاربة التي كانت واضعة خطتها منذ القديم

اما اوروپا . فان احوال حكوماتها وأهليها كانت تناقض منفعة الاتراك كل المناقضة بالرغم عن علمهم تمام العلم مقاصد الروس وآمالهم الفاسدة حيال المسئلة الشرقية وتأكدهم من

وجود يد للروس في كل ثورة حدثت في تلك الجهات . كما
انهم يعلمون ماهم عليه الاتراك وعلى الاخص الحكومة العثمانية
من الاستعـداد لاجراء المظالم والمغارم . وزد على ذلك ان
حكومة الروس كانت قد اشترت ضمائر بعض أصحاب الصحف
التي كانت تصدر في أوروپا بهذه الفترة اذ كانت تملئ أعمدتها بما
توحيه اليها ساسة الروس من الاخبار الملفقة وتنقل عنها بعض
الجرائد التي هي على الحياد ولذا كانت مندرجاتها لا تقل عن
مندرجات جرائد الروس بنسبة الهمجيـة والفظاعة الى الاتراك
حتى كانت هذه الاخبار كافية لهتيج الرأي العام في أوروپا علينا

ومع هذا فان وجد شيء يوجب مأيوسية بعض محبي خير
الدولة العثمانية من الدول الاوروپية ومسرة أعداءها هو بلا
شك دوام الاختلال في البلاد المحروسـة واتساع نطاقه يوماً
فيوماً وسرايته الى جميـع بلاد البلقان حتى وصل الى درجة لم
يسبق لها مثيل

ولما أرسل الكونت اندراسي بلاغه المعهود الى الباب
العالي كانت الثورة منحصرة داخل ولاية البوسـنة والهرسك
ولكنها سرت الى جميع الولايات العثمانية في اوروپا وكلما حدثت

ثورة لعنت اختها . حتى ان الثورة التي حدثت في شرق الروم ايلي أرخت سدول النسيان على ما تقدمها من الثورات الهائلة

وكان في هـذه الاثناء اعضاء الجمعية السلافية الصغرى الذين هم مختبئون في ولاية الطونة يجرون على الخطة التي وضعتهم لها الجمعية السلافية الكبرى فى شهر (بكرش) فى احداث ثورة كبيرة بتلك الولاية واضرموا نار الثورة هنا لك فقام أهالي قريتي (تاتار پازاجق) و(اوتلق كوى) وما جاورهما من القرى وهجموا على من جاورهم من أهالي القرى الاسلامية فلما رأى الاسلام هذا الحال تسلحوا وقاموا يدافعون عن أرواحهم وأموالهم ووقعت بينهم واقعة انجلت عن انهزام الاولين ولكن ما الفائدة منها وقد عادت هذه الحادثة بفوائد جمة على الثوار ونالوا بها اكثر مما املوه من العصيان بما استعمل معهم الاسلام من الفظائع وما أتوه من ضروب الهمجية والتوحش اذ كان غاية ما يرمي اليه الثوار من قيامهم هذا على المسلمين تهييج الاهالي الاسلامية واجبارهم على مهاجمة البلغار واشاعة ما يحتمل حدوثه طبعاً من الهفوات اثناء هذه الواقعة وترديد صداها على صحف الجرائد الاوروبية وتهييج الرأي العام فيها على المسلمين ولا حاجة بنا أن نقول ان البلغاريين

قد ظفروا بما أملوا من هذه الحادثة واستفادوا مما هي عليه الاسلام من الجنون ولله في خلقه شؤون .

وبينما كانت أحوال البلغار على هـذا الحال اذ ظهر فى (سلانيك) حادثة ازعجت الخواطر فزادت فى الطين بلة وفى الاعتلال علة وهي : ان احدى بنات البلغار التي أتين من (عورتحصار) الى سلانيك ارادت التشرف بالدين الاسلامي فوقع من جراء هذه المسئلة منازعة بين الاسلام والنصارى ووسطوا السلاح فيما بينهم فتداخل قنصلا فرنسا والمانيا اللذان كانا يريدان تسكين الهيجان بين المتنازعين فقتلا من أيدي الاسلام تصادفاً فزادت حادثة قتلهما فى الرأي العام الاوروپي هياجاً وتركت لدسائس الروس الذين كانوا يستعملونها لاعراض الدول الاوروپية عن مساعدة الدولة العثمانية مجالاً واسعاً وهكذا توفقت الروس لقضاء غايتها من هذه الجهة وامنت جانب مساعدة بعض الدول الاجنبية للدولة العثمانية عند نشوب الحرب بينهما حيث كانت هذه الوقائع المؤسفة من اكبر العوامل على نوال الروس بغيتهم وتسهيل السبل لحصولهم على غاياتهم

والحقيقة التي لا ريب فيها هي: ان حكومة الروس رأت ان الفرصة سانحة والوقت مساعد فلم تغفل لها عين ولكنها تأكدت عدم مناسبة الوقت لتبجحها بحماية المسيحيين الذين يقطنون بلاد الروم ايلي ومعاضدتهم جهاراً بناء على بعض الاسباب الموجبة فشوقت حكومتي الصرب والجبل الاسود على هذا الامر وبذلت جهدها في قيامهم لحماية المسيحيين ولذا لم تبدأ الثورة في ولاية البوسنة والهرسك حتى تسلحت هاتان الحكومتان واستعدتا لكل طارئ مفاجئ وتداركتا الاسلحة وحشدتا الجنود على الحدود ووقفتا ينتظران انتهاء الوقت المحدود . فكان البرنس ميلان امير امارة الصرب وقتئذ يدعى بناء على تشويق الروسيا حماية المسيحيين ويعد معدات الحرب من جهة ومن جهة أخرى يرسل البلاغ وراء البلاغ والانذار وراء الانذار للباب العالي ويهدده كأنه الحاكم والباب العالي المحكوم . ومقابلة لخداماته هذه كان يأخذ من الروس اعانات نقدية كثيرة ولو ان حكومة الروس كانت ترسل اليه الاعانة النقدية سراً في بادئ الامر ولكنها اتخذت اخيراً عدم تأثير البلاغ الرسمي الذي قدمه القونت اندراسي للباب العالي حجة وصارت ترسل اليه الاعانات

النقدية جهاراً . وقد ارسلت الى امارة الصرب كثيراً من ضباطها المستخدمين في معسكراتها كما انها لم تأل جهداً في ارسال جميع المتشردين من رعاياها بصفة فدائيين الى تلك الامارة وانهالوا جميعهم على بلاد الصرب بعد ان اخذوا على حساب الجمعية السلافية من الاعانات النقدية مالا يدخل تحت حصر وحساب . وكان بينهم الجنرال « چرنايف » الذي اشتهر في محاربات « التركستان » القديمة ولكنه احيل قبل هذه الحادثة ببضع سنين على المعاش نظراً لسوء اخلاقه وشراسة طبعه وعدم رضوخه لاوامر اولياء الامور

وهكذا كانت المسئلة تزيد كل يوم وخامة على وخامة حتى وصلت لدرجة عجزت معها الحكومة عن اجراء شيء ما . ولكن ساسة اوروپا كانوا حينئذ يرومون حل المسئلة حلاً سلمياً ومن الغرائب ان ساسة الروس ايضاً كانوا يظهرون ميلاً شديداً للمحافظة على السلم آبان المذاكرات والمخابرات الرسمية . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيهاهي : ان الروس لم يقصدوا من تحويل المسئلة الى المخابرات الرسمية الا ليكتسبون الوقت وقد ارادت الروسية ان تظهر للعالم الاوروپي ميلها للسلم وعدم

رغبتها في خوض غمار الحرب مع الدولة العلية . وبناء عليه طلب البرنس (قورچاقوف) ناظر خارجية الروسية من الدول العظمى ان يتداخلن مع الباب العالي مرة اخرى في حل المسئلة حلاً سلمياً وشوقهن على ذلك كثيراً وأخذ على عاتقه عهدة مخابرة الباب العالي فارسل اذ ذاك بلاغاً رسمياً بالوكالة عن الدول العظمى وبالاصالة عن دولته ولم تزد محتويات البلاغ الذي ارسله البرنس « قورچاقوف » عن محتويات البلاغ الذي ارسله « القونت اندراسي » ناظر خارجية النمسا الى الباب العالي قبلاً اللهم الا ما زيد به البلاغ بقوله « اذا كان الباب العالي لا يخمد الثورة القائمة في ولايات الروم ايلي ويصلح امورها في ظرف ثلاثة اشهر فان الدول الثلاث المتفقة « روسية ، والنمسا ، والمانيا ، يتخذن التدابير اللازمة كي لا يتركن مجالاً لما يحتمل حدوثه من الاضرار التى تنشأ عن هذه الفتنة » ومن هذا البلاغ يفهم القارئ ما لساسة الروس وعلى الاخص منهم البرنس غورچاقوف في ايجاد الدسائس والحيل السياسية من طول الباع وما هم عليه من المهارة في حوك مثل هذا المتاع حيث ان المذكور كان يهدد الباب العالي في هذا البلاغ

من جهة ومن جهة أخرى كان قد اعطى للباب العالي مهلة شهرين او ثلاثة اشهر من الزمان لتسكين الفتنـة القائمة ليظهر للدول الاوروپية تعلق الحكومة الروسية باهداب السلم . وعدا ذلك فانه لم يقصد من هذه المدة القايلة سوى اكتساب حكومتا الصرب والجبل الاسود الوقت لاتمام المعدات الحربية التي لم يتوفقا لاتمامها حتى الآن . والا فهو من اعلم الناس بعدم تمكن الحكومة العثمانية من اخماد الثورة في هذه المدة القليلة . كما انه كان يوجس خيفة من اعادة المياه الى مجاريها ، فتذهب اذ ذاك مساعي الروس هباءً منثوراً ويستحيل عليها حصولها على مآربها وأمانيها ، حيث انها رأت فدح الخلل الطارئ على ادارة الولايات العثمانية وما هي عليه اهليها من التنابذ والتنافر فعلمت ان الفرصـة سانحة لحل المسئلة الشرقية حلاً يوافق غايتها ومقاصدها الخفية .

فاجتهـدت بكل قواها واظهرت من ضروب المهارة السياسية ما لا تأتي باعظم منها ساسة دولة بلغوا من التفنن في الحيل أقصاها . وعلى كل حال : فان افكار الروس ومقاصدهم كانت ظاهرة للعيان ولكن ما الفائدة وقد توالى وقوع الاحوال

الداعية للأسف في مركز السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية بصورة تخدم آمالهم ، وتوافق كل الموافقة لمجرى سياستهم ، وتساعدهم على نيل بغيتهم ومآربهم ، تناقض كل المناقضة لسلامة الدولة وتوافق كل الموافقة لزوالها .

وقد قلنا قبلاً ان واقعة العلماء قد اثرت على ادارة الدولة تأثيراً حسناً اذ بهمة رجالها طردت تلك الوكلاء التي كانت منقادة لسفير الروس انقياد الاعمى وبانقيادهم اوقعوا الدولة في شراك أعداءها وتركوا لمداخلة السفير مجالا واسعاً في ادارتها ونصب مكانهم أصحاب الحمية الوطنية من الوكلاء . ولكن ما الفائدة من هذا كله وذاك التمثال الذي تنبعث عنه عوامل هذه السيئات قابضاً بيده على زمام الامور ، فلا الدولة خالصة من العناء ، ولا الملة ذائقة الهناء ، ولا فائدة تنتظر من الوكلاء ،وكل ما يتشبثون في اجراءه هباء في هباء

ومن الحقائق الثابتة ان هؤلاء الوكلاء قد تشبثوا في بعض التدابير المفيدة حين تولوا زمام الامور كارسالهم العساكر اللازمة لاخماد الثورات القائمة في ولايات الروم ايلي واتخاذهم بعض التدابير الاحتياطية لرد كل طاريء مفاجيء يفاجيء الدولة من

جهة الصرب والجبل الاسود . ولكن نتائجها كانت عبارة عن جزئيات اذ كانت بعيدة عن ملافاة الاخطار التي تهدد سلامة الدولة في هذا الحين وتترك بقاءها بين الشك واليقين ،

حيث ان الدواء الوحيد لخلاص الدولة مما هي عليه من الاضمحلال وازالة المصائب التي أصيبت بها البلاد العثمانية هو اجراء الاصلاحات التي يقتضيها الزمان و بناء ادارة الدولة على أساس متين ، وبهذه الواسطة كان يمكنهم تخليص الدولة بدون اضاعة قسم كبير من أملاكها والافكل تشبث بغير الاصلاحات عقيم لا محالة . حالة كون مواقع الرجال الذين بيدهم الحل والعقد في هذه الاثناء لم تكن مساعدة على قيامهم باجراء الاصلاحات الجدية اذ كانوا كما قدمنا قد نالوا هذه الوظائف بطرق غير مشروعة عند ضرورة الحال أثناء واقعة العلماء التي أتينا عليها مفصلا .

ولهذه الاسباب كانوا لا يأمنون جانب أهل السراي ويخافون شرهم ويعلمون ان حياتهم محفوفة بالاخطار في كل وقت وزمان بما يمكن ان يحصل لهم من الاذى عن يديهم فيوقعون انفسهم بالمهالك اذا هم سعوا وراء امراً يفيد الدولة والملة

وينقذهما مما هما عليه من السقوط السريع . وكان هذا الحال اكبر باعثاً على عدم تشبث وكلاء ذاك العهد في شيء ما وقد اثر على افعالهم تأثيراً كبيراً وهدم ما بني على وطنيتهم من صروح الآمال . وقد اضطروا على عدم تطبيق افكارهم الحسناء واخفاء ما تكنه صدورهم من الآمال والتصورات الشريفة التي كانوا يتصورونها لخلاص وطنهم .

وهكذا حرمت الدولة والملة من الانتفاع من مزاياهم واقتدارهم حتى كانت امارات الخوف والوجل تبدو على محياهم كلما تشبثوا في امر من الامور . وعدا ذلك فان مجرى الاحوال في العاصمة بعد واقعة العلماء كانت من اكبر العوامل على حصول التنافر والتنابذ بين السلطان من جهة ووكلاء الدولة والاهالي من جهة اخرى حتى اصبحوا جميعاً في نفور دائم ، ونزاع قائم ، كما ان افكار الاهالي ضد السلطان كانت تزداد يوماً عن يوم حتى اخذت شكلاً مهيباً لا يصعب على كل ناظر لبيب ينظر اليها التحقق من قرب حدوث امر ذي بال !...

وكانت المطبوعات في اواخر عهد السلطان عبد العزيز على ما قدمنا من التضييق والمراقبة . وقد دام هذا الحال حتى

وقوع الواقعة المعلومة (واقعة العلماء) ولكن المطبوعات العثمانية تنفست قليلاً بعد هذه الواقعة وخفت وطأة المراقبين عنها بالنسبة الى الماضي

ولو ان احكام نظامنامة المطبوعات كانت تظهر صولتها على الجرائد في هذا الزمان ايضاً ولكنها لم تكن كما كانت عليه قبل الواقعة من الافراط في التضييق . وخلاصة القول : ان عموم اهالي الاستانة اخذت تتنفس هواء غير الهواء الذي كانت تتنفسه من قبل وكان أصحاب الجرائد والمطبوعات واثقون من معاضدة بعض ذوي الحل والعقد من رجال الدولة لهم ولذا كانوا لا يخافون شر السراى ولا يهابون سطوة حشراتها . وبناء عليه كانت المطبوعات العثمانية في ذاك الحين تبدي رأيها على أحوال الدولة بحرية ضمير غير خائفة مراقبة مراقب اوعقاب معاقب بل كانت لا تدخر وسعاً في انتقاد الاحوال الحاضرة والماضية وتقبح خطة الحكومة وتعطف سوء الاحوال الحاضرة على عدم لياقة اولياء الامور للمناصب التي يشغلونها

وكان بين مطبوعات الاستانة في هذا الدور الذي نحن في تعداد وقائعه جريدة (بصيرت) و (عبرت) وغيرهما من

الجرائد االمهمة وعدا ذلك فقدكان يصدر فيها جرائد هزلية كجريدة (چايلاق) و (ديوژەن) وما شا كلهما وكانت مندرجاتهما على جانب عظيم من اللطافة وكان أصحاب الاقلام يظهرون أفكارهم بصورة هزلٍ لطيف مملوء بالمعاني والالغاز. ولهـذه الاسباب كان اقبال الاهالي عليهما عظيماً حتى ان نشرياتهـما لاتزل في مفكرة الخلق الى الآن وهما من اشهر واروج جرائد ذاك الزمان

وعلى كل حال : فان مطبوعات ذاك الدور قد اخذت موقعاً ممتازاً وكانت على جانب عظيم من الاهمية نظراً لتأثيرها على الرأي العام وقد أخذ جميع اصحاب الحمية الوطنية من ذوي الاقتدار والاهلية يظهرون ما تكنه صدورهم من الغيظ منذ زمن قديم الى الآن. حتى صارت الجرائد مرسحاً للشكايات يظهر عليه كل مشتك مصيبته متحسر على دولته. فكانوا يظهرون باجلى بيان شدة تأثرهم مما ناب وطنهم من المصائب وما هي عليه دولتهم من الاحوال الداعية للاسى والاسف وعدم استنكافهم عن اقتحام اي مخاطرة يقتضي اقتحامها لايقاف هذه المساوي عنـد حدها ولو اقتضت الحالة لفداء أرواحهم

وتضحية أموالهم وعيالهم . وكانوا يستعملون شدة اللسان عند اظهار العداوة الى الوكلاء السابقة وعلى الاخص منهم محمود نديم باشا حيث كانوا ينزلون عليه اللعنات كالوابل الهاطل وقد صار تعداد افعال هذه الشركة (محمود نديم واهل السراي) وما اضرت به الدولة كنز لايفنى ورأس مال كبير لتأويل الاهالي وعلى الاخص فان اختلاط الباب العالي بسفارة الروس كان حديث الخاص والعام، من نصارى واسلام، يؤولونها كما شاؤا وشأت لهم الايام

وقد دام الحال على هذا المنوال مدة طويلة وكانت حيثية ملك الزمان وموقعه في تزلزل دائم . كلما ازداد الهياج عند اهالي الاستانة من اصاغر واعاظم . ولوان المطبوعات كانت لاتتعرض لشخص جلالة السلطان مباشرة ولكن الجميع كانوا يعلمون ان نتيجة تعريض الجرائد بادارة محمود نديم باشا عائدة على الذات الشاهانية . فالاهالي يعتقدون ان القسم الكلي من المساوي التي نجمت عن ادارة هذا الوزير انما حصلت برضاء السلطان ان لم تكن بأمره . وعلى الاخص فانهم كانوا يعلمون مداخلة (الوالدة سلطان) بالامور السيئة التي تعود على الدولة بالويل

والخراب . ولذا كانوا لايستثنون احداً من أهل السراي نساءً كانوا اورجالاً ولم يتركوا كلمة الا قالوها بحقهم ! ...

كانت مركز الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية بعد واقعة العلماء على هذا الحال

فلو استيقظ السلطان (ولو بهذه الفترة) من غفلته ، واستفاق من سباته ، وسار على طريق معقول في جميع حركاته ، لما صعب عليه تلافي الامر نظراً لما جبلوا عليه افراد الامة العثمانية من الشغف الزائد بسلاطينهم ، وما هو منبث من الصداقة الاكيدة فى اعماق روحهم . ولكن كان الحال على عكس ذلك . حيث ان السلطان عبد العزيز لم يقدر حرج المركز حق قدره بعد واقعة العلماء ولم يظهر أثراً من المقدرة على اختيار طريق يؤدي به الى انقاذ نفسه مما يحيطه من المهالك والأخطار . بل أمضى زمانه في الخيالات الباطلة والتصورات العقيمة ولم ينتبه من احدى الوقائع الكثيرة التي كانت تقع في كل آن بل كان دائب الاشتغال في ما يخطر على عقله من التصورات الفاسدة التي لا ينجم عنها سوى الاضرار ، وتؤدي بحياته وملكه الى الدمار . ولم يبدل قديم أخلاقه وعوائده حتى

في ابان هذا الاضطراب بل كان يعامل الصدر الاعظم وشيخ الاسلام بفتور زائد . حيث قد عدهم له من ألد الاعداء، وزاد في مخابراته مع محمود نديم پاشا والجنرال اغناتيف أحباؤه القدماء .
ومن العبث ان يؤمل دوام الحال، مدة طويلة على هذا المنوال، اذ الطفرة محال . فجميع الموفقيات التي حصلت بعد بذل كل هذه المساعي حتى الآن ، قابلة للزوال بارادة من السلطان .

وعلى الخصوص فان أطوار السلطان عبد العزيز وحركاته التي عقبت هـذه الواقعة كانت تدل اكثر الوكلاء على انهم معرضون لخطر كبير . ولذا رأوا ضرورة انهاء هـذه الاحوال التي هي مثقلة كاهل الطرفين (السلطان ، والوكلاء) على أي وجه من الوجوه وشدة الاحتياج لحركة قطعية نهائية

خلع السلطان عبد العزيز

بعض المحوظات على كيفية خلع السلطان عبد العزيز تقرر الخلع بالقوة العسكرية — سليمان باشا ورديف باشا — امتناع شيخ الاسلام والصدر الاعظم عن المداخلة في الخلع وموافقتهما أخيراً برضاءهما — أحمد باشا القيصري والرجال الآخرون — أحوال السلطان عبد العزيز ، والجنرال اغناتيف ، ومحمود نديم باشا ليلة الخلع — وصول سليمان باشا الى المدرسة الحربيـة والخطبة التي ألقاها على الضباط — زحف تلامذة المدرسة الحربية على سراي البشكطاش — وصول حسين عوني باشا وتشبثات الخلع - دخول سليمان باشا على دائرة السلطان مراد — امتناع السلطان مراد عن الخروج من القصر — أحوال السلطان عبد العزيز .

لا مشاحة في ان مسألة خلع السلطان عبد العزيز هي من أهم وقائع العصر الأخير حالة كون أصحاب اليد الطولى في هذه المسألة التي تشغل أهم صحائف أسفار التاريخ العثماني من الرجال قد اضطروا على ستر بعض الوقائع التى كانت سبباً في ظهور هذه الفاجعة على مرسح التمثيل بشكلها المهيب المحزن واكتفوا باظهار بعض المواد اللازمة لمن اشترك معهم في تشخيص هذا الفصل من الرجال . ولذا ترى ان بعض أسباب هذه الواقعة لا تزال مستترة تحت ذيل الخفاء بالرغم عن قرب هذه الحادثة

من زماننا ووجود بعض الذين شهدوها باعينهم واشتركوا فيها بانفسهم على قيد الحياة . ولا زالت تفرعات هذه الفاجعة المعلومة حتى الآن في عالم الغياهب والظنون تورث المؤرخين والكتاب مشكلات عظيمة وتقف امامهم حجر عثرة في سبيل اظهار ما استتر منها جوازاً ووجوباً

فعلى رواية [*] ان مدحت پاشا وحسين عوني پاشا قد رأوا باعينهم ما هي عليه الاهالي من البغض الشديد للحكومة العزيزية يوم قيام طلبة العلم بالمظاهرة المعلومة فجمعوا بعض افراد النصارى الذين اشتهروا بين أبناء ملتهم بحميتهم الوطنية وحبهم للدولة العليـة وتشبثوا في وضع مسألة الخلع موضع الفعل بواسطة جمعية تتشكل من مسلمين واروام وأرمن . حتى ان بعض الرواة يؤكدون انهم اجتمعوا فعلاً وتآمروا على الخلع واستنسبوا للخلع يوم الجمعة في التاسع من شهر مايس وانتخبوا جامع نور عثمانية (الذي هو اكثر الجوامع ازدحاماً في كل وقت) للجمعية مركزاً واتفقوا على ان يزحفوا بعد صلاة الجمعة

[*] هذه الرواية منقولة عن لسان رجال يوثق باقوالهم

راجع أثر Mourad. V. cont. E. de keratry

على الباب العالي ويطلبون من السلطان اصدار ارادة تتضمن الاصلاحات الجدية وانه اذا لم يجب طلبهم هـذا يفعلون كما كانت تفعل الانكشارية من خلع السلطان الحاضر واعلان جلوس السلطان مراد الذي هو الوارث الشرعي لعرش آل عثمان . فنحن لا ننكر على الرواة روايتهم هـذه ولا نصدقها على علاتها بل اننا نقول ان من المحتمل حصول مذاكرة على اظهار فكرة الخلع لحيز الفعل بينهم وربما كانت أقرب للحقيقة من الروايات الاخرى .

اما مسألة رضاء الاهالي وموافقتهم على خلع السلطان فمما لا نصدقه ولا نوافق عليه . حيث قد ثبت بالتجارب العديدة استحالة ارضاء الاهالي وسوقهم بالهين اللين على مسألة كهذه هي أمنع من عقاب الجو بل ربما اظهروا استياءهم منها

ثانياً : ان الواسطة الوحيـدة والنقطة المهمة في حصول المتآمرين على ما يبتغونه هي كتم الاسرار وحيث ان محافظة العموم على السر ضرب من المحال، كان لا بد للرجال الذين يقتضي كتم السر عنهـم من معرفته ووقوفهم على كنهه مهما حاول المتآمرون من اخفاءه . ووقوع أقل هفوة منهم في هذا

الزمان ينعكس معها الحال ، ويسوء المآل ويوقع حياة رجال كثيرة في أشد الاخطار، وتكون العاقبة عليهم شراً ووبالا

ثالثاً : ان مداخلة النصارى من التبعة العثمانية في الامر واشتراكهم في الخلع لايخلو من الفائدة على كل حال ولكنها تترك مجالاً للقيل والقال ، بين الاهالي عند حدوث ما يحتمل حدوثه عقب الواقعة من الاضطراب وتكون لفرقة المعارضين بعد الخلع ذريعة يتذرعون بها لاقامة معالم الاختلال . وبناء عليه نقول انه ربما كانت هذه الاسباب من اكبر العوامل على عدم حصول الخلع بواسطة الجمعية العمومية التي تقرر انعقادها في جوار جامع (نور عثمانية) واضطرتهم على احداث الانقلاب بواسطة الوكلاء والعساكر . حيث ان الذين دبروا مسئلة الخلع قد رأوا انهم يصونون بهذه الواسطة حياتهم مما يطرأ عليها من الاخطار ويكونون في حرز العسكر الحريز فيدافعون عنهم ، اذا اقتضت الحالة ويردون غارة كل غائر عليهم ، ويتحصلون على مقصدهم باسرع ما يمكن من الزمان . ويتمكنون من ازالة المساوي التي يحتمل حدوثها عند وقوع مثل هذه الواقعة

وعلى الاخص فان قليل من امراء العسكرية من يعلم

حقيقة الامر وبقية افراد هـذه القوة التي يجتهـد رجالها في حصول المقصد امتثالاً لاوامر رؤساءهم لا يعلمون عما يفعلونه شيئاً بل كانوا دائبين على تنفيذ اوامر امراءهم وسيعلمون ما فعلوا بعد ان تتجلى امامهم نتائج اعمالهم ويرون بأعينهم ذاك الانقلاب العظيم . وعلى كل حال فان مسئلة الخلع قد تقرر احداثها بالقوة العسكرية ولكنهم ارتأوا قبل كل شيء تنويم أهل السراي واغفالهم لاكتساب الوقت ولذا كتب اعضاء جمعية العلماء كتب الشكر والاخلاص وارسلوها للسراي وحلفوا لاهلها أعظم الايمان، انهم لا ينحرفون عن موالاتهم مدى الازمان . ولم يكن القصد من هذه الرسائل كلها سوى ذر الرماد في أعينهم وتحويل انظارهم الى جهة اخرى . كي يدبر المدبرون أمورهم آمنين جانب كل طارئ فجائي يطرأ من جهتهم . فاشيع حوادث كثيرة متنوعة لتنتظر الاهالي ما تولده الليالي فهاجت الافكار وعقبها حصول ذاك المقصد العالي ! ....

ولو ان مسئلة الخلع والانقلاب كانتا من جملة افكار مدحت باشا الصائبه وناشئتان عن سعيه المتواصل كما ان سوق الاهالي الى هـذه الجهة كانت نتيجة تدابير المشار اليه الصائبه . ولكن

مداخلة حسين عوني پاشا في الامر واشتراكه بالخلع كان اعظم عامل على سهولة حصول المقصد لمساعدة موقعه على ان يكون صاحب الطول والحول في هذه الفاجعة . حيث كان ناظراً للحربية وجميع امراء العسكرية تحت ادارته هذا عدا عن حب اصحاب الحمية الوطنية وذوي الكفاءة في الامور العسكرية له وشغفهم به شغفاً يكاد يكون عبادة وانقيادهم الى اوامره انقياد الاعمى وزد على ذلك ان جميع الذين يشغلون اهم النقاط في الاستانة كانوا ممن نشأوا على عهده وترقوا في ظله ولذا كانوا يتمنون كلمة يفوه بها ولي نعمتهم، اوامر يأمرهم به ليفدون في سبيل تنفيذه أرواحهم

وعدا هذا وذاك فان المشار اليه كان كما قدمنا عالماً بدقائق الامور العسكرية واقفاً على كنهها . وقد وضع أصول الانتظام والطاعة بين العساكر ونظم المعسكرات احسن تنظيم كما استمال جميع امراء عسكرية ذاك العهد نحوه واحرز موقعاً ممتازاً بين رجال المعسكرات وزرع بذور محبته في قلوبهم واحرز عندهم من النفوذ والاعتبار ما لا يحرزه أحد غيره من قبل ومن بعد ومع هذا فان الحقيقة التي لا مراء فيها هي : ان

حسين عوني پاشا مهما كان موقعه كبيراً ومهما عظمت درجته في
اعين العالم فلا بد له من معين على اتيان امر عظيم كخلع السلطان
وانه في غاية الاحتياج الى المعاونة المادية والادبية من بعض
الامراء . ولذا كان يعلم وجوب استمالة بعض امراء العسكرية
ذوي المكانة العالية عند رجال العالم العسكري في الاستانة
ومشاركتهم له في الخلع ولا شك ان اول هؤلاء الامراء
واشهرهم هو: سليمان پاشا ناظر المدرسة الحربية فى الاستانة

ومهما قيل فى حقه . فانه كان فائقاً على جميع الامراء الذين
اشتهروا فى ذاك الحين بفضلهم وعلمهم وقد كان من أقدر الناس
على ايفاء خدمات عظيمة لدولته وملته

تربى المشار اليه في المدارس العسكرية وتخرج فيها وترقى
فى الوظائف حتى وصل هذه الدرجة بلياقة واستحقاق . كيف لا
وهو اهل للترقي لا يشتبه فى اهليته اثنان، فطر على النشاط وفرط
الذكاء واحرز قصب السبق بين الاقران، ونبغ فى جميع الفنون
التي تحصلها تلامذة مدرسته وتفرد فى علم التاريخ حتى عد
هرودوت ذاك الزمان

ولا زالت آثاره ومؤلفاته الجدية المتروكة محافظة على

اهميتها حتى الآن . وقد كان حائزاً للكمالات المعنوية وواقفاً على كنه العلوم العصرية خبيراً بالفنون الحديثة الحربية . ولم يصعب عليه ادراك الاسباب الحقيقية فى سوء ادارة الدولة التي نشأت عنها تلك السيئات التي اثقلت كاهل الدولة منذ قرون . فاجتهد بكل قواه لازالتها ووضع الاصلاحات موضع الفعل والتطبيق . والمصيبة المؤلمة التي نابته بعد محاربة الروس لاكبر شاهد على ما قدمنا من الحقائق الكثيرة

حيث كان للمشار اليه حينئذ اعداء كثيرة كما يوجد للآن بعض اعداءه الالداء وهؤلاء لا يألون جهداً فى اختلاق الاكاذيب ولا يجتنبون اسناد المفتريات للمشار اليه لينتقمون منه ولو بعد وفاته

فنحن لا ننكر بعض النقائص - فى الحركات العسكرية - التي يسندونها اليه ولكننا لا نصدق ان مصيبته المعلومة كانت ناشئة عن هذه النقائص بل ربما كان تفرده بين اقرانه بالذكاء واحرازه قصب السبق في الامور الحربية وتمثيله أهم فصل من فصول تلك الفاجعة — فاجعة عبدالعزيز — هو السبب الوحيد في ذهابه ضحية آمال اهل السراي الفاسدة

وكان حسين عوني باشا يعتمد عليه كثيراً لما عرف عنه من الصدق والامانة ولم يرى حاجة لتشويقه على الاشتراك في مسئلة الخلع . حيث كان يرى بعينه سوء الادارة فينفعل منها شأن كل محب لوطنه غيور على مصالح امته . ويعلم شدة الاحتياج لايقاف هذه المظالم والمغارم عند حدها المحدود

والذي اعان ناظر الحربية على هذا الامر من الرجال هو رديف پاشا رئيس مجلس الشورى العسكري في الاستانة وهو لايقل عن سليمان پاشا كفاءة واستعداداً وذكاء فقد اثبت اهليته في جميع ما تقلد من الوظائف العسكرية وارتقى الى هذا المنصب بحق واستحقاق . ومع هذا فلم يكن ذي حمية وطنية او محب لخير امته ـ وهو الفرق بينه وبين سليمان پاشا ـ والوقوعات المتوالية اوضحت للمؤرخين هذا الامر بشكل لا يبقى معه اقل شك وارتياب .

اذ كان رديف پاشا محباً لمنفعته الذاتية شغوف بمصالحه الشخصية لا يفكر الا فيما يعود عليه بالفائدة ولو كان من وراءه خراب الدولة والامة . يتدانى الى اخذ الرشوة وخلاصة القول انه كان جامعاً للاخلاق الدنية لا ينقصه شيء منها .

ونحن مع عدم انكارنا اشتراكه في مسئلة الخلع وكبر مسئولية الوظيفة التي اخذها على عاتقه نقول اننا لو عطف هذا الامر على نفوذ حسين عوني پاشا لكان اقرب للحقيقة كما لو عطف على حميته الوطنية . وهذان الرجلان كانا اكبر مساعد لحسين عوني پاشا يوم وقوع الواقعة . حيث ان المشار اليه قد اعطاهما التعليمات اللازمة وعين لهما الخطة التي سيسيران عليها . ودلائل الاحوال تدل دلالة واضحة على عدم افشاءهما هذا الامر الى الامراء العسكرية حتى قرب وقوع الانقلاب اي قبل حصوله بيوم او يومين اذ لم يكن من داع يدعوهما لافشاءه . فالذين بيدهم الحل والعقد من الامراء العسكريين يمكنهم ان يزحفوا بالعساكر الموجودة تحت قيادتهم الى الجهات المقصودة وضبط النقاط المطلوبة بغير ان يعلموا احداً عن قصدهم .

فبعد ان أمن المتآمرون جانب العسكر واستمالوا نحوهم رؤساءهم . توسلوا في ايجاد الوسائل الاخرى لتسهيل سبل حصول الانقلاب . وأول شيء كان يجب عليهم اجراءه هو ادخال محمد رشدي پاشا ، وخير الله افندي اللذان توليا

أمور الصدارة وباب المشيخة الاسلامية بعد قيام طلبة العلم ضمن المتآمرين .

اما رشدي پاشا المترجم: فقد كان لين العريكة عديم الاعتداد بنفسه ينهج على الدوام منهج سائر الوزراء بالرغم عن تعلقه باهداب الاصول القديمة ، ينجذب نحو اصحاب النفوذ من الوزراء ذوي الرأي الثاقب والفكر الصائب،لعدم ثباته وسلوكه مسلكاً مخصوصاً .فشغفه الزائد بالوطن وحبه لخير ملته ودولته اشهر من نار على علم، كما انه كان وزيراً منصفاً يلبس لكل حلة لبوسها فيطيع من تحقق عنده كفائته وأهليته ويصغى لقوله ونصائحه ويأبى مواجهة من ثبت لديه لؤمه وخيانته. وهو السبب الوحيد لمحافظته على حيثية مقامه . ومع هذا فقد كان محروماً من الاوصاف والمزايا التي يجب ان يتحلى بها رجل مثله يشغل اعلى منصب في الحكومة لاستئصال شأفة المساوى التي عمت البلاد ونشأ عنها ضيق العباد .

والادلة القطعية على كيفية اقناعه على الاشتراك في هذه الحادثة مفقودة فعلى رواية - وهي اقربها للعقل - انه امتنع عن المداخلة عند اول مذاكرة حصلت ولكنه رضي اخيراً

ودخل ضمن المتآمرين بعد ان هدده مدحت پاشا اولاً واوعده حسين عوني پاشا ثانياً .

ومهما كانت درجة لزوم اشتراك الصدر الاعظم في هذا الانقلاب فان اشتراك شيخ الاسلام واعطاءه الفتوى بهذا الشان ومساعدته مادياً وأدبياً لاهم منها والزم، نظراً لتقدم وظيفته على جميع وظائف المتآمرين في مسئلة كمسئلة الخلع هي في اقصى درجات الاشكال . حيث قد جرت العادة منذ القديم في اخذ الفتوى من شيخ الاسلام لكي يظهر للعالم وجه مشروعية الانقلاب .

اما كيفية اشتراك شيخ الاسلام خير الله افندي في هذه المسئلة ودخوله في عداد المتآمرين فنوردها هنا على علاتها كما نقلها لاحد اصحابه وهي :

كان ذات يوم في مجلس الوكلاء الذي انعقد عقب توليته منصب المشيخة الاسلامية فبعد ختام المذاكرات اخذه مدحت پاشا وعزله عن بقية الوكلاء وقص عليه القصة وسئله رأيه فيها فداخله الشك بادى بدء وخامر قلبه الخوف الشديد من هذا الامر ولكن مدحت پاشا اخذ يورد له الادلة على

شدة اللزوم والاحتياج الى الانقلاب ويثبت له ما حاق الدولة من الخطر العظيم وما هي عليه من الاضمحلال السريع من جراء سوء افعال السلطان عبد العزيز . ولما كان شيخ الاسلام ممن لا ينكرون مشروعية اسقاط السلطان عبد العزيز عن سرير السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية وجواز خلعه لم يتأخر عن تصديق كل ما فاه به مدحت پاشا ولكنه أظهر له كثرة العقبات التي تقف فى سبيل الخلع وصعوبة ازالتها . وما ينجم عنها من الاضرار البليغة عند عدم حصول الموفقية وربما كانت القاضية على حياة جميع المتآمرين . وأوصاه بالعدول عن فكره . ولما ان رأى عدم تأثير كلامه على أفكار مدحت پاشا وشدة تعلقه باهداب الانقلاب طلب منه ان يمهله مدة من الزمن ريثما يفكر في الامر ويتبصر بعواقبه أو تأخيره الى حين . وعلى أثر هذه الكلمة افترقا وذهب كل منهما الى مكانه »

وبعد هذه المحادثة ببضع أيام اجتمع به محمد رشدي پاشا الصدر الاعظم وحسين عوني پاشا ناظر الحربية فى الباب العالي وفاتحاه بالمسألة ذاتها وطلبا منه جواباً قطعياً بهذا الشأن ولكنه

ووقع في حيص بيص ولم يجسر على اعطاءهما قولاً نهائياً .

وقبل وقوع الواقعة بيومين قصد سليمان باشا منزله وبعد ان انعزلا في غرفة من غرف المنزل أبلغه سلام هيئة الوكلاء وأخبره انتظارهم جوابه القطعي عن المسألة واكد له استحضارهم على جميع الوسائل اللازمة لاظهار مسألة الخلع من حيز الفكر الى حيز الفعل باسرع ما يمكن وبدون اضاعة دقيقة من الزمان فاعترض عليه وأراد تأخير الخلع لمدة أخرى فقاطعه الپاشابقوله « لقد مضى أيها الاستاذ ما مضى ، وستقع الواقعة اليوم أو غداً ، فلا تضيع الوقت سدى ، وتتركنا عرضة لانتقام العدا ، ففي هذه الدقيقه بين يديك أرواحنا ، وعليك اتكالنا ، فلا تخيب فيك آمالنا ، »

فلما أتم كلامه عرف شيخ الاسلام حقيقة الحال ، وما يتهددهم من الاخطار ، فاضطر الى وضع ختمه على المضبطة التي قدمها اليه وبعد يومين صدرت من باب المشيخة تلك الفتوة التي ينتظرها الخلق بفارغ الصبر .

وهكذا اشتركت المشيخة الاسلامية صاحبة الكعب الأعلى في مسائل الانقلاب التي كانت تحدث داخل الممالك المحروسة من قديم

الزمن في المسألة ولم يبق من خطر يخشى حدوثه من تلك الجهة

ومع هذا كله فان همة الرجال الذين ذكرناهم قبلاً مهما عظمت ومهما كانت عليه وظائفهم من الاهمية لا بد لهم من مراجعة بعض الذين يخشى من معارضتهم أو وضعهم العقبات في سبيل المسألة وادخالهم فى عداد المتآمرين لعظيم أهميتهم بين رجال الدولة ووزرائها وأهم هذه الفئة هو بلا شك أحمد باشا القيصري ناظر البحرية . حيث ان المشار اليه قد تفرد بين أمراء البحرية بالعقل والذكاء واصالة الرأي فالقى فى قلوبهم محبته وبسط ، عليهم ظل نفوذه ، واستمالهم نحوه وخلاصة القول انه كان الفرد الوحيد بينهم وله الكلمة النافذة فى كل أمر عندهم .

وقد كان كغيره من الوزراء المحبين لدولتهم ووطنهم يعارض أشد المعارضة لمجرى الاحوال فى دور السيئات حتى كان هدفاً لسهام سفير الروس وأعوانه من حشرات السراي فنفي من الاستانة مرتين بدون ذنب جناه او منكر اتاه . وكان فى تلك الفترة على وشك الابعاد مرة ثالثة لما بينه وبين محمود نديم باشا من التنافر والتنابذ . وهي السبب الوحيد فى دخوله

قبل الجميع فى عداد المتآمرين واشتراكه فى الانقلاب

وقد وجد غير هؤلاء كثيراً من الرجال الذين اشتركوا في مسألة الخلع ولكن يتعذر معرفتهم لتستر اكثرهم بعد الوقعة خيفة ان يتخذها أعداءهم من حشرات السراي حجة للانتقام منهم

ولكن من الحقائق الواضحة ان سعد الله باشا الذي كان باشكاتباً للمابين الهمايوني على عهد السلطان مراد الخامس وانتحر حين كان سفيراً للدولة فى فينا حضر الفاجعة من مبدأها الى منتهاها ومثل الفصل المهم منها

كانت أحوال الوكلاء فى اواخر عهد سلطنة السلطان عبد العزيز فى هذا المركز . فالرجال الذين يشغلون أعلا المناصب قد قر قرارهم على خلع خليفة زمانهم واتخذوا التدابير اللازمة بمهارة خارقة العادة وساقوا الخلق الى هذا الانقلاب العظيم بواسطة مطبوعات ذاك العهد التي كان لها من الحرية ما لا يقاس معها حرية المطبوعات العثمانية فى زماننا هذا ولو انها لا تعد شيئاً بجانب حرية المطبوعات الاجنبية

ولا تسل عن احوال الاستانة في هذه الفترة فان هياج الاهالي بلغ حد الافراط فالناظر اليها لا يرى فيها الا كل غارق

فى بحر التفكر او واضعاً على خده كف التحير

وقد اخذ اهالي الاستانة يتباحثون في الامور التي كانت مجهولة حتى هذه الساعة وتداولت الالسن مسئلة وضع القانون الاساسي وسعي مدحت باشا وحزب تركيا الفتاة لتطبيقه على ادارة الدولة . فاذهل هذا الانقلاب الفجائي الذي حدث في سماء دولتنا عقول العالم وتشتتت افكارهم ولم تتفق الا على رأي واحد وهو عدم دوام هذا الحال مدة طويلة من الزمان

اين كان السلطان عبد العزيز بهذه الاثناء وفي اي مركز كانت افكاره ؟ نقول وقولنا الحق انه لم يكن عنده علم عن هذه الامور ولم يسمع عنها خبراً بل كان ملتهياً بما لديه من وسائط اللهو واللعب مشتغلاً فيها عن ادارة الدولة والملك . ولا يعلم ان تلك السحب السوداء المتلبده في سماء نحوسه ستمطر عليه من غضبها مطراً كالسيل ، تجعل نهاره كالليل ، وتقلب عالي سعده اسفله

والرجال الذين نفروا من سوء سلوكه، ومشربه، واخلاقه يحاصرون قصره ويحيطونه بسور من حديد !... مسكين يا عبد العزيز ! اين عيناك تنظر هذه الاحوال ؟ واين أصحابك

ليخففون عنك وطأة هــذه الاهوال ؟ اين الرجال الذين نالوا محبتك وافدوا الملة والدولة وراء سعادتهم؟ اينهم ؟ اين محمود نديم باشا وجناب السفير اغناتيف ؟ لماذا نراهما قد نقصا على اعقابهما حين ترآات الفتن . وتركا صاحبهما في أشــد المحن . ؟ اما محمود نديم باشا ! فكان في هــذه الليلة كما هي عادته جامعاً حوله الغلمان ، يعاقر واياهم بنت الحان ، يسقونه ويسقيهم ، يداعبونه ويداعبهم ، ويشنف بجس عوده آذانهم ، غريق بحر حسنهم وجمالهم

اما جناب السفير : فقد كان جامعاً حوله الجواسيس ، يلعب مع الكونت زيچنى ، والموسيو وونوفيس سفيرا النمسا واليونان بالورق غير عالم بمـا سيحدث في فجر ذاك اليوم من الانقلاب العظيم

وكان هذا الحال يدل دلالة واضحة على عجز اعوان السلطان عبـد العزيز وغفلتهم ، وانتباه المتآمرين ويقظتهم ، اذ كانوا قد أحضروا جميع وسائط الخلع بدون ان تشعر بهم اعداءهم ينتظرون حلول الوقت الذي سيقضون فيـه القضاء المبرم على الاستبداد والمستبدين

اما السلطان الذي لا علم له بما دبرته له يد المقادير قد دعي حسين باشا الى السراي لأمر من الامور، فانتحل هذا عذراً وامتنع عن الحضور ، ولكن هذه الدعوة خالجت ضميره فظن ان سر المؤامرة قد اكتشف فارسل رجاله لكل جهة كي يستنشقون له الخبر واتحد حينئذ حزب المتآمرين على المبادرة لخلع السلطان في هذه الليلة

وهكذا رفع الستار عن اول فصل من فصول هذه الفاجعة ! ....

....

كانت ليلة الاثنين سابعة ليالي شهر جماد الاول سنة ١٢٩٣ ﻫ ليلة ظلام حالك ، فالسماء تهطل المطر بدل الدموع آسفة على هذه الاحوال، والريح يعصف من البوغاز فيقيم البحر ويقعده ، وتتلاطم امواجه بشاطئه ، فتستر اصوات ملاطمتها ضوضاء الاهالي فيعم السكون .

ولم يظهر في ذاك اليوم وتلك الليلة امارة تدل على قرب حدوث واقعة تاريخية في « قصر طولمه بغچه » تشغل الكتاب والمؤرخين ، وتكون رأس مال كبير للمحررين . فالسكون

العميق مستول على جوار بشكطاش ، والسراي مشغولة كعادتها بما لذ لسكانها وطاب، من انواع اللهو والطرب، والنقاط العسكرية المجاورة للسراي لا علم لها بما سيأتي به الزمان من العجب ، ولا شيء خلاف المعتاد ظاهر يدل على شعور الخلق بالانقلاب . ولكن من دقق النظر كان يرى قبل زوال الشمس ثلاث مدرعات حربية ، مملوءة بعساكر من سورية ، متهيئة للزحف على الجبل الاسود ، لتأديب كل من هدد السلام واوعد ، راسية في عرض البحر ، تنتظر من رؤساءها الامر ، وبعد غياب الشمس بقليل سارت الهوينا داخل البوغاز توهم العالم انها ذاهبة الى المحل المقصود ، ولم تقرب من السراي حتى القت رواسيها واستقر بها النوى ، ولسان حالها يقول ان لي شيء ههنا انتظره . كما انه كان لا يرى في القشلاقات المطلة على السراى شيئاً يجلب نظر الناظر اليه ، وتلامذة المدرسة الحربية خرجوا للتفتيش بعد طعام العشاء ونادوا ثلاثاً « پادشاهم چوق يشا » اي « فليعش سلطاننا كثيراً » وانصرفوا بعدئذ . وفي الساعة الثالثة بعد الزوال صفر صفير النوم واستلم كل منهم سريره واخذ الموكلون بحراسة التلامذة من الضباط يمشون ذهاباً واياباً

كعاداتهم [*]

فما ازفت الساعة الخامسة بعد الزوال حتى شوهد عربة مقبلة من جهة (البك اوغلي) وقفت امام باب المدرسة وخرج منها رجل طويل القامة . فاستلم الباب ودخل ، غير هياب ولا وجل ، وبعد ان رد السلام الى العسكر المصطفة امامه بهيئة طابور دخل غرفة ناظر المدرسة مستصحباً معه ضابطان خرجا لاستقباله فقلع رداءه وعرف حينئذ ان هذا الضيف الذي حضر على غير ميعاد هو سليمان پاشا ناظر المدرسة الحربية . ولما جلس مكانه اشار للضباط اشارة فخرجوا مسرعين واخذ هو يفتكر بعد خروجهم واطال بالتفكر ولم تمضي عشر دقائق حتى عاد احد الضابطين الذين كانا مع الپاشا ودخل الغرفة وقال (كل شيء حاضر يامولاى) وهذا الرجل هو احمد بك احد امراء المدرسة الحربية .

وبناء على اشارة الپاشا فتح شق الباب ودخل خمسة عشر ضابطا تقريباً وجلسوا على الترتيب كما امر الپاشا وغلق آخر من

---

[*] واقعة المدرسة الحربية هذه منقولة عن لسان رجل كان بمعية سليمان پاشا وشاهدها بعينه ولا يزال حتى الآن حياً يرزق

دخل منهم الباب وكان هذا الاخير هو احمد بك المذكور .

فنظر اليهم الپاشا نظرة مدقق فاذا بهم مدججون بالاسلحة لابسون ملابسهم كأنهم مستعدون للتعليم . فاسر في اذن البعض منهم همساً، وكلم الآخرون، وقام اخيراً بينهم خطيباً وفاه بطلاقة لسان تحير العقول مازجاً اقواله بما كان يخرج من صميم فؤاده من الشكوى، شارحاً لهم ما عم البلاد من البلوى. قائلاً : « ايها الرفقاء ! .... ان الدولة والملة يطلبان منكم في هذه الليلة وظيفة كبيرة ومقدسة ، فاذا استنكفتم عن اداء هذه الوظيفة التي ينتظرانها بفروغ الصبر من سواعد همتكم ، فدولتنا ستنقرض ، وملتنا ستضمحل ، ترون اعداءنا الخارجية ظهرت من كل صوب وحدب ، ولو ان ردعهم بعناية الله وظل حميتكم من اسهل الامور علينا ، ولكن ماذا نفعل مع من هم بين ظهرانينا من الاعداء وما يمكننا ان نعمل ! ... سلطاننا سلم زمام امور دولتنا للروس الذين هم الد اعداءنا ، اغناتيف قد صار في الاستانة فعال لما يريد ، كان لنا قبلاً شيء يسمى الباب العالي ، ولكنه انتقل الآن الى سفارة الروس، ولم يقف الحال عند هذا الحد ، بل بدأ السفير يتداخل في امورنا

حتى اصبح كما تروا ينفي كل يوم اكبر رجالنا ، واشهر امرائنا ، ويبعدهم عن عاصمة بلادنا ، واعلموا ان هـذا الحال اذا دام معاذ الله مدة اخرى فمقر الخلافة الاسلامية واقعة بيد الروس لا محالة ، اذ هي غاية ما ترمي اليه اعداءنا .

فمن الواجب علينا ان نكف يد السلطان الذي هو منشأ جميع هذه المساوي عن ادارة امور الملك . والا فما لنا واسطة نجاة تتصور غيرها ، وطننا الذي اهين واحتقر ، وملتنا التي سيقت الى وادى الاسارة والذل ، حصرا جميع آمالهما في همتكم وحميتكم يطلبان منكم الاسعاف) فما اتم هذه الجملة حتى اغرورقت عيناه بالدموع ولم يبق له مجالاً للكلام كما لم يبق لمستمعيه عين تنظر اليه وكل منهـم مطرق رأسه في الارض من شدة الهيجان يكابر على نفسه لضبط دموع الاسى والاسف عند سماعهم هـذه الحقائق التي قصها عليهـم بلسان التظلم والتأثر ، فداوم الباشا على كلامه قائلاً « وبناءً على هذه الاسباب المجبرة قرقرار العلماء والوكلاء ، ورجال الدولة على خلع السلطان عبدالعزيز ، وانا الآن عائداً من مجلسهم ، وقد القوا على عواتقنا اكبر وظيفة من هـذه الفاجعة ، فعساكر البحرية من البحر ،

وعسكر طاش قشلة وما جاورها تحت قيادة رديف پاشا من البر ، ونحن سنزحف من ههنا على السراي لنؤدي واجباً فرضته علينا الوطنية ، فما اتم كلامه حتى نادت الضباط بصوت واحد اننا حاضرون ، ولامركم مطيعون ، والى اي جهة تريدونها ذاهبون ، ولو اقتضت الحالة لافدينا ارواحنا في سبيل ما به تأمرون ! » وانتصبوا جميعهم قائمون فاشار الپاشا الى احمد بك واخذه بجانبه فاخرجا من جيوبهما ساعاتهما واخذا يتباحثان فقال الپاشا للضباط « هيا ايها الرفقاء انتظروا النفير » وبعد خروج الضباط بقليل ذهب احمد بك الى فسحة المدرسة مستصحباً معه « نوبتجى البورزان » وامره ان يصفر صفير القيام فما سمع ضباط المدرسة صوت النفير حتى خرجوا مسرعين . اذ كانوا قبلاً علي تمام الاهبة واخذ حينئذ ضباط المدرسة بايقاظ التلامذة فقامت التلامذة من حديث نومها ولبست ملابسها واخذت سلاحها وخرجت من المدرسة وكان احمدبك يعطي الاوامر لصف التلامذة على النظام في فسحة المدرسة بصوت جهوري ولم تمضي خمس عشرة دقائق حتى انقطع الحس وساد السكون واصطفت التلامذة بهيئة طابور ووقفت

الضباط في مكانها فلا عدت تسمع الا قوماندة (على الحذاء)
« صاي » نخرج اذ ذاك سليمان پاشا من غرفتـه واقترب من
احمد بك واعطاه الاوامر اللازمة وبعد قليل زحف صف تلامذة
المدرسة الحربيـة من خلف المدرسة بقيادة احمد بك بشكل
طابور نظامي واخذوا بالتقدم من امام قشلة « كموش صو » دون
ان يشعر بهم احد وظلوا سائرين على هذا المنوال الى ان قربوا
من ميدان قصر « طولمه بغچه » فأوقف الطابور حينئذ ولم يتقدم
من ضباطه سوى احمد بك وسليمان پاشا و بعض الضباط

فبينما هم سائرون اذ قابلهم في الطريق ثلاث اشخاص.
وهؤلاء هم رديف پاشا ، ومن بمعيته من الضباط فتحادث
سليمان پاشا ورديف پاشا ملياً وبعـد ختام الحديث توجها
معاً الى الساحل فنظرا الى نقاط على وجه الشاطئ لاترى تماماً
لشاسع بعدها عن النظر والظاهر انهما قد رأيا ما اوجب
محظوظيتهمـا وزاد في سرورهما حتى انهما تركا تلك النقطة
وسارا الى مدخل الزقاق المؤدى الى الطوبخانة ووقفا هنالك
ولم يمض على وقوفهما زمناً طويلاً حتى اسرعا لملاقات العربة
المقبلة عليهما من تلك الجهة يحيطها ثلة من عساكر السواري.

وكان الراكب في هذه العربة هوحسين عوني پاشا ناظرالحربية فبعد ان تحادث سليمان پاشا ورديف پاشا مع الناظر تفرقا وذهب كل منهما الى جهة ولم يمضي كثيراً من الزمن حتى خرجت تلامذةالمدرسة الحربية من الزقاق المتقدم ذكره واتوا الى الميدان واصطفوا صفاً حربياً

وحينئذ اخذت الضباط من كل جهة تعطي الاوامر بصوت منخفض وزحفت التلامذة مفرزةوراء مفرزة . فصف سليمان پاشا واحمد بك قسماً منهم على ريختم السراي وحافظوا على جهة الميدان ومدخل الزقاق محافظة من كل طارئ مفاجئ يطرأ في ذاك الظلام الحالك ، ووضعوا العساكر في الزقاق المؤدي الى مسجد بشكطاش كما وضعوا مفرزات قوية في مداخل الازقة الاخرى ولم تمضي نصف ساعة زمانية حتى احاطوا السراي بالعساكر المسلحة احاطة السوار بالمعصم ، والعابر حينئذ لا يرى في الازقة فرداً واحداً غير العسكر

والضباط يقربون بعض الاحيان من العربة فيعرضون على حسين عوني پاشا معروضاتهم ويعودون مسرعين بعد ان يتلقوا منه الاوامر اللازمة وبعد ساعة مضت على هذا الحال توجه

سليمان پاشا الى قصر « طولمه بغچه » مستصحباً معه ست ضباط واقترب من احد ابواب القصر فطرقه . ولم ينفتح حتى دخل القصر . فلما ان سمع البوابون الضوضاء في خارج القصر ورأوا دخول بعض الضباط اليه فروا الى دائرة الحريم وهذا الحال يدل على انهم فزعوا من هول المشهد ولكنهم لم يفوهوا ببنت شفة لما اعتراهم من الذهول عند حدوث هذا الحادث الفجائي . ولما دخل الپاشا دائرة الحريم فتح الباب ودخل الى الدائرة فاستفاق اغاوات الحريم حينئذ من هذه الضوضاء وأخذوا يمسحون اعينهم بايديهم وينظرون يميناً وشمالاً كالذي اعتراه البله . ففاجئهم الپاشا بقوله « اخبروا سمو ولي العهد ان لي معروضات مهمة ابغي عرضها عليه وارجو ان يتكرم بقبولي بين يديه بدون اضاعة وقت » ففر الاغاوات للداخل وسمع بعدئذ من اعلى القصر بكاء النساء ونحيبهن ولم يعود احد من الداخلين بخبر . فاراد بعض الضباط الصعود الى اعلى القصر ولكن سليمان پاشا استحسن الانتظار مدة اخرى .

ولما ان مضت مدة طويلة ولم يأتيهم احد بخبر اضطر سليمان پاشا على الصعود وعند صعوده اتاه بعض الاغاوات

وابلغوه امتناع ولي العهد عن الخروج « فقال لهم ان الامر مهم لا يقبل تأخير ، وعندي بشرى سأبشره بها ، فلا يخاف وجميع من ههنا هم عبيده الامناء الصادقون ، فلا بد لي من مشاهدته » ولما الح عليهم ادخلوه غرفة محاذية لغرفة السلطان مراد وخرج حينذاك من الباب فدنا منه سليمان پاشا وبايعه الخلافة بكل صدق واخلاص ، واخبره بجلوسه على سرير الخلافة وخلع عمه السلطان عبد العزيز من طرف الوكلاء والملة . ومع هذا فان السلطان مراد قد ظل باهتاً مدة من الزمن لا يبدي اقل حراكاً ولا يفوه ببنت شفة . وكانت في هذه الفترة نساء السراي يبكين وينتحبن في غرف القصر واحداهن تبكي قرب الباب وتقول « لا تأمن جانبهم فانهم خونة يريدون ان يخرجوك من القصر ويغدروا بك » فتفرس سليمان پاشا بها واذا هي والدة السلطان مراد فدنا من الباب وطمنها على نجلها ببعض الاقوال فاخذ الحس بالانقطاع عندئذ . ومع هذا فان السلطان مراد اظهر التردد في الخروج مراراً ولكنه وافق اخيراً على الخروج بعد ان طمنه سليمان پاشا على حياته وسكن روعه بما فاه به من العبارات المطمنة كما هو مشهور بسبك أمثالها . وعند

خروجه هجمت عليه والدته وضمته الى صدرها قائلة « ولدي مراد ! ... » وبكت حتى أبكت الحاضرون معها . ولكن سليمان باشا سعى كثيراً في تطمينها وقال لها « لا تخافى ولا تحزني فلا شيء يوجب الخوف والحزن وهو من الآن فصاعداً سلطاننا وولي أمرنا » ووضع يده في يد السلطان وأنزله عن السلم : ...

وبعد خروجهم من القصر توجهوا نحو الميدان وكان سليمان باشا وقتئذ يرافق السلطان جنباً لجنب والضباط يعقبون أثرهم . أما السلطان مراد فقد كان سائراً بذهول دون ان يعلم الى أي جهة سائرون به وأقطع المدى لا تتمكن من فتح فاه والوقت ما بين الفجرين والظلام حالك

ولم يطرق أذن ناظر الحربية الذي كان منتظراً في عربته بميدان السراي خبر قدوم السلطان مراد حتى نزل من العربة وخف لاستقبال السلطان الجديد وبايعه الملك والخلافة وقص عليه مجمل الاحوال بكمال الأدب والاحترام راجياً منه اسعاف طلب العلماء والوكلاء ورجال الدولة الذين ينتظرون تشريفه في نظارة الحربية ليبايعونه السلطنة والخلافة وعليه فقد استراح

قلب جلالة السلطان مراد وزال ما يخامر قلبه من الخوف الشديد وصدرت ارادته بتشريفه الى جهة استانبول . فاعطى حسين عوني پاشا الاوامر اللازمة للامراء وجلس في عربة الملك امام السلطان امتثالا للدعوة السنية وتوجهت العربة حينئذ بسرعة البرق قاصدة جهة الطوبخانة يحيط بها الياوران وثلة من عساكر السواري

ولنرجع الآن الى ما كنا عليه من وصف أحوال عبد العزيز فنقول :

انقسمت تلامذة المدرسة الحربية بعد وصولها لميدان السراي الى مفرزات متعددة حيث ألقى على عواتقهم محافظة النقاط المناسبة . وصرف المتآمرون جل همتهم فى مراقبة النقاط التي كانت تحافظ على السراي . اذ كانوا يوجسون خيفة من العساكر الموجودة هنالك وعلى الاخص الضباط منهم حيث ان اكثرهم كانوا ممن أغدق عليهم عبد العزيز نعمه وتمكن في قلوبهم حبه، لكونهم كل يوم امام اعينه، ولذا كان ينتظر منهم اظهار الصداقة له والمدافعة عنه على قدر الامكان

ولكن المتعرض الفجائي الذي تعرضه والمكيدة التي

كادها لهم من توكل بمراقبتهم من الضباط بمهارة خارقة أذهلهم واضاع رشدهم وجعل مدافعتهم من رابع المستحيلات . حيث ان الضباط الموكلون بضبط هذه النقاط أعطوا لتلك العسكر قوماندة (رمي السلاح في الارض) فالقت العساكر بسلاحها وهي لاتعلم شيئاً عن هذا الامر . فقام بعض ضباطها يستفهمون عن الخبر ممن أعطوا الاوامر . فما كان من المتآمرين الا ان وضعوا بنادقهم في صدور من تعلل منهم مهددين بالقتل كل من فاه منهم ببنت شفة . فلما ان رأى الضباط عجزهم عن ابداء أقل حركة سلموا بسلاحهم وانفسهم معاً . ومع هذا فقد رأى المتآمرون ان الحزم يحتم عليهم ان لا يطلقون سراحهم فنقلوهم تحت الحفظ الى جهة أخرى

أما داخل السراي فقد كان السكون مستولياً عليها ولا يشاهد أقل حركة فيها ولكن ركض نساء دائرة السلطان مراد من جهة لاخرى وجلبتهم افهمت سكان قصر عبد العزيز حدوث أمر ذي بال. فاستفاق جميع الخدم من نومهم واطلوا من النوافذ الى الخارج يستعلمون الخبر فرأوا ان القصر محاط بالعساكر احاطة السوار بالمعصم فوقفوا على سر المسألة وتناقلتها السنتهم

حتى وصل الخبر الى نساء القصر جميعهن ولكن لم تتجاسر احداهن على اخبار السلطان

وكان سليمان پاشا حينئذ مشغولاً باصعاد السلطان الجديد الى أعلى القصر ورديف پاشا بمحافظة دائرة السلطان المخلوع وما اتم سليمان پاشا وظيفته حتى اتم رديف پاشا محاصرة السراي ولم يدعو أحداً يخرج منها او يدخل اليها واتخذ دائرة السلاملق مركزاً له وطفق يعطي الاوامر اللازمة للضباط ويتجسس احوال دائرة عبد العزيز وما يجري فيها

وترصد محافظو السراي من ياوران ومابينجية وأعلمهم بالخبر وافهمهم ان جل ما يطلب منهم من الصداقة هي المحافظة على السلطان ولي نعمتهم وان من يأتي باقل حركة خلاف اوامره لا ينال الا اشد العقاب . ولما كان هؤلاء . ليسوا من الذين يحافظون على الولاء . وقت الشدة والعناء. اضاعوا رشدهم ولم يفه احد منهم ببنت شفة . والمعلومات القطعية في ما كان عليه السلطان عبد العزيز حينئذ من الاحوال مفقودة . ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي ان جميع اهل السراي عدا عبد العزيز قد وقفوا على سر المسئلة وعلموا بسقوطه عن سرير

الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية. وكانت والدته اول من سمع بهذا الخبر المحزن. فعلى رواية ان المدافع التي اطلقت عند توجه السلطان مراد وحسين عوني باشا هي التي انذرته بخلعه وهذه الرواية اقرب للحقيقة من غيرها . حيث يروى عن بعض مقربيه انه كان حين اطلاق المدافع نائماً ولم يسمع بها حتى استفاق من نومه وأخذ يعد طلقات المدافع فلما رأى ان عدد الطلقات تجاوزت العدد المختص بالجريق قام منذعراً وقال انها لمدافع الجلوس [*]

تم

[*] من أراد ان يعلم عاقبة السلطان عبد العزيز وكيفية وفاته فليراجع كتاب « فاجعة السلطان مراد الخامس » تأليف مؤلف هذا الكتاب وهو الآن تحت الطبع



